المملكة الأردنية الهاشمية

مجلة
مجمع اللغة العربية الأردني

العدد الأول — المجلد الأول

صفر ١٣٩٨ هـ. — كانون الثاني ١٩٧٨ م.

الطبعـــة الثانيـــة

١٩٨٢

http://abbassa.wordpress.com تحميل كتب

كلمة العدد

بسم الله الرحمن الرحيم

استهلال

يُسعِدُنا ان نقـدّم الى العالم العربي هذا العدد الأول من (مجلّـة مجمع اللغـة العربية الاردني) ، راجـين ان تستمرَّ أعداد هذه المجلـة بعد اليوم في المضيّ في طريقهـا ، بجهود المخلصين من ابنـاء هذه الامة العربية المجيدة ، الحريصين على لغـة الضاد العزيزة ، وعلى خدمـة النهضة العلميـة في وطننا العربي الكبـير .

لقـد مضى على تاسيس مجمعنا الاردني عـامٌ وبعضُ العام ، بعد ان تغلّب علـى بعض الصعاب التي اعترضت سبيلـه في بدايته ، وقد اصبح في وسعـه الآن ان يمضي قُدُمًا في تحقيق الأهـداف السامية التي قام من اجـل تحقيقها في خدمة اللغة العربيـة ، والمشاركة في خدمة التراث العربي والاسـلامي الزاهر ، والحضارة العربية المعاصرة .

والمجمـع يضمّ جهوده المتواضعة الى جهـود اشقّائه من المجامع العربية العريقة ، بعـد ان اصبح عضوا في اتحاد المجامـع ، وبعد ان استكمل عدّتـه ، واصبح موضع أمل في أن يعمـل عملا فعّالا مثمرا في تادية رسالته العلمية واللغويـة .

ونحن نؤمن بان المجلّـة ركن من اركان العمـل المجمعيّ لا غنى عنه ، تستقطب جهـود الاعلام من أهل الفكر ، مـن الاخوة العرب ، ومن الزملاء المستشرقين ؛ فالمجلـة هي صوت المجمع وصـوت سدنة

اللغة العربية والتراث العربــي والاسلامي معا . ونحن نامــل ان يؤدّي هذا الصوت الامانــة التي يرتفع لتاديتها ، بجدارة وكفاءة وصـــدق .

لقــد بذلنا جهدا خيّرًا من اجل ان يكون هــذا العدد الأول جديرا بمكانه في استهلال صدور المجلــة ، ولكننا نعلم ان الكمال للــه وحده . ولهذا نرجو ان يكون لنـــا من تسامح الاخوان وتقديرهم مـــا يعذر عن النقص،ومـــا يحفز على المضيّ قُدُمًا لمـــا نرجو ، ويرجون منا ، مـــن الكمـــال الممكـــن .

واللّــه ولــيّ التوفيــق .

مقرّر لجنة المجلــة
نائب رئيس المجمــع
الدكتور محمـــود السمرة

ابن رشد في أدبه

للدكتور عبد الكريم خليفة

مقدمـــة

تهدف هذه الدراسة الى القـاء الضوء على جانب مهـمّ من جوانب انتاج عَلَـمٍ من اعلام الفكر في حضارتنا العربية الاسـلامية ؛ وهذا الجانب يتمثل في « ادب » ابـن رشـد ، وهو واحد مـن اشهر الكتّاب ومن اكثرهم خصبا وانتاجـا .

وان هـذه الدراسة شائكة في نظرنا ، وذلـك لصعوبة الفصل بين مجال الفكـر والفلسفة من ناحية،والأدب مـن ناحية اخرى . فان مفاهيم الادب وتعريفاته تتعـدد وتختلف باختلاف الاتجاهات الفكريـة والثقافية والاجتماعية عنـد الباحثين . وربما كان اهـمّ من ذلك كلّه ان نصل الى مفهـوم الادب عند الكاتب ذاته . ليس مـن السهل ان تحدد مفهوم الأدب عند ابن رشـد ، دون النظر في فلسفته وفـي مفهوم الأدب عند معلمـه الأول « ارسطو » .

اليس من الخطـا ان تعتبر مفهوما واحدا للأدب ، تحـاول إقحامه على جميع انشطة الفكـر الانساني ؟ ... الا تتداخل مفاهيـم الادب هذه بالوانه ومذاهبـه ؟ ..

لا شكّ ان هنالك فرقـاً كبيرًا بين ادبٍ واقعيٍ تحتل فيـه جدّيّة الفكر مكانة ممتـازة ، وادبٍ لاهٍ يُضفي عليه الأديب رونق النكتة والظرف .

لقد كان ابن رشـد جادًّا ، وكانت الدراية اغلب عليه من الرواية . وبلغت جِدّيّته الى الحـد الذي عبّر عنه صاحب كتاب التكملـة بقوله : « ... وعُنِيَ بالعلم مـن صغره الى كبره،حتى حُكِيَ عنـه انه لم يدع النظر ولا القراءة منذُ عَقِلَ الا ليلة وفـاة ابيه ، وليلة بنائه على اهله ... وانه سَوَّدَ في مـا صَنَّفَ وقيَّدَ وأَلَّفَ وهذَّب واختصر نحـوًا منَ عشرة آلاف ورقة . ومال الـى علوم الأوائل،فكانت لـه فيها الامامة دون اهل

عصره » (١) .ونحن لا يهمّنا في هـــذا المجال مدى دقة هذه الروايـــة ، ولكنْ ما توحي بـــه من نظرة ابن رشد الجادّة الـــى الحياة وتحكيمه العقل ، وذلـــك بغلبة الدراية عنده على الروايـــة ...

فاذا نظرنا مثـــلا الى المساجلة الفكرية باعتبارها احـــد الفنون الادبية الراقية ، الا يحقُّ لنـــا ان نُصَنِّفَ في اطارها تلـــك المساجلة التي دارت بين ابن رشـــد والغزالي ؟ فقد وصفها العقـــاد بقوله : « فلـــم يحفظ لنـــا تاريخ الفكر مساجلة بين حكيمين في قـــوة المساجلة التي دارت بـــين ابن رشـــد والغزالي،ومضاء سلاحها،ونفـــاذ حججها وبراهينهـــا ... » (٢) .

وهنـــا يشير الكاتب في الواقع الـــى معركتين فكريتين مـــا زال اثرهما العميق في التفكير الفلسفي الاسلامي . فقد اثـــار الأولى الغزالي في كتابه : « تهافـــت الفلاسفة » واثـــار الثانية ابن رشـــد بكتابه : « تهافـــت التهافـــت » .

وبالرغم من أن ابن رشـــد قد ذاع صيته لـــدى الافرنج في مجالين اساسيين من المعرفـــة ، هما الطبّ والفلسفة ، فـــانّ جوانبه الفكريّة والثقافية الأخرى لـــم تكن اقل إشراقا ؛ فهو على حـــد تعبير بعض الروايات ، كمـــا سنرى فيما بعد : « كـــان يُفْزَع الى فتواه في الطـــبّ كما يُفْزَع الى فتواه في الفقه ، مع الحظ الوافر من الاعراب والآداب » (٣) .

وإنّ الدارس للحركة العلميـــة في ذلك العصر ، لا يَعجُب من هـــذا كله،فقد عاش ابن رشـــد في بيئة علمية عاليـــة جمعت مشاهير عصره ، يعينه في ذلك طبـــعٌ مؤاتٍ واستعداد فطريّ أصيـــل .

امّـــا في مجال الحركة العلمية فـــي الأندلس ، ورغبةِ اهلهـــا في العلم ، فنحن نستذكر مـــا اورده المقّري ، اذ قال : « وامّـــا حال اهل

---

(١) التكملـــة ، ج ٢ ، ص ٥٥٤ .
(٢) العقـــاد ، ص ٥٥ .
(٣) لـــرج ، ص ٢٧ .

الأندلس في فنون العلـــم ، فتحقيق الانصاف في شأنهم في هـــذا الباب ، انهم أحرص النـــاس على التميّز : فالجاهل الذي لم يوفّقه اللـــه للعلم يجهد أن يتميَّز بصنعـــه ، ويربأ بنفسـه ان يُرى فارغـــا عالة على الناس ، لأن هـــذا عندهم في غاية القبح،والعالـــم عندهم معظَّمٌ من الخاصـــة والعامة ... فالعالم منهـــم بارع ، لأنه يطلب ذلك العلـــم بباعث من نفسه ، يحمله علـــى ان يترك الشغل الذي يستفيد منـــه ، وينفق ما عنده حتى يعلـــم . وكلّ العلوم لها عندهم حـــظّ واعتناء الا الفلسفة والتنجيم ، فان لهمـــا حظّاً عظيما عند خواصّهم ، ولا يُتظاهَر بهـــا خوف العامة . فانّه كلَّمـــا قيل « فلان يقرأ الفلسفة » أو « يشتغـــل بالتنجيم » اطلقت عليه اســـم زنديق ، وقيِّدَت عليه انفاسه . فـــان زلَّ في شبهة رجموه بالحجارة او حرقوه قبـــل ان يصل امره للسلطان ، او يقتلـــه السلطان تقرُّباً لقلوب العامـــة.وكثيرا ما يأمر ملوكهم باحراق كتـــب هذا الشأن اذا وجـــدت ... » (٤) .

إنّ ظاهرة التضييق علـــى حرية الفكر ، التي اشـــار اليها المقّري ، قد أصابت بلهيبها ابن رشـــد ذاته في محنته التي حلَّت بـــه في أُخريات عمره ؛ وإنَّ هـــذه الظاهرة لم تكن في الحقيقة لتقتصر علـــى الاندلس ، بل امتدّت من مشرق دار الاســـلام الى مغربه الأقصى ، وذلـــك في فترات معيّنـــة .

ولـــو القينا نظرة علـــى أحداث الفترة الزمنية التي لقي بها ابـــن رشد محنته ، لوجدنا امثلـــة كثيرة في هراة وواسط ودمشق وبغداد (٥) .

اسمه ونسبـــه وكنيته :

هو محمـــد بن أبي القاسم احمـــد ابن أبي الوليد محمـــد بن احمد بن رشد ، يكنى أبـــا الوليد . وهو حفيد قاضـــي الجماعة بقرطبة . (٦) .

---

(٤) النفـــح ، ج ١ ، ص ٢٠٥ .
(٥) انظـــر العبـــر ، ج ٤ ، ص ٢٨٥ .
(٦) النباهي ، ص ١١١ . انظـــر : ابن ابي اصيبعة ، ص ٥٣٠ ، ج ١ ، ص ١٠٥ .

ولد بقرطبة سنة ٥٢٠ هـ. ١١٢٦ م. وادرك من حياة جَدّه شهرا سنة عشرين (٧) . وقد اشتهر في اوروبا في القرون الوسطى باسم AVEROES (٨) .

نشأ ابن رشد في بيت علم وفضل ، وكان ابوه أحمد بن محمد بن احمد بن رشد ابو القاسم ، قد تولّى القضاء (٩) . وتتحدّث المصادر من نشأة ابي القاسم هذا ، فتقول : «إنه من اهل بيت فقه وعلم » (١٠). وربما ساهمت شهرة ابن رشد الحفيد وابن رشد الجَدّ ، في قلّة المعلومات التي وصلتنا عن ابي القاسم . وتوفي والد ابن رشد سنة ٥٦٣ هـ. (١١) . وهذا يعني أن الأديب الفيلسوف ابن رشد ، قد ذاعت شهرته العلمية في حياة والده .

اما جَدُّه محمد بن احمد بن احمد بن رشد (١٢) فيُروَى ان أصله من بلدة سرقسطة (١٣) . وكان قاضي الجماعة بقرطبة ، وصاحِبَ الصلاة بالمسجد الجامع بها ، يكنى ابا الوليد ... وكان فطبها ،عالما حافظا للفقه ، مقدّمًا فيه على جميع اهل عصره ، عارفًا بالفتوى على مذهب مالك واصحابه ، بصيرًا باقوالهم واتّفاقهم واختلافهم ، نافذا في علم الفرائض والأصول ، من اهل الرياسة في العلم والبراعة والفهم مع الدين والفضل والوقار والحلم والسمت ، والهدي الصالح .

ويستمرّ صاحب كتاب الصلة فيقول :"سمعت الفقيه ابا مروان عبد الملك بن مسرة صاحبنا اكرمه الله ، ومكانه من العلم والفضل والثقة مكانه ، يقول : شاهدت شيخنا القاضي ابا الوليد،رحمه الله،يصوم يوم الجمعة دائما في الحضر والسفر" (١٤) .

---

(٧) العبر ، ج ٤ ، ص ٢٨٧ ، شذرات الذهب ، ج ٤ ، ص ٣٢٠ .

(٨) Encyclo . Vol. II , P. 410 - 413

(٩) المصدر نفسه .

(١٠) بغية الملتمس ، ص ١٥٦ .

(١١) المصدر نفسه .

(١٢) النباهي ، ص ٩٨ .

(١٣) الصلة ، ج ٢ ، ص ٥٧٦ ، من هامش الأصل ، قال عمر بن دحية : أصله من بلدة سرقسطة .

(١٤) الصلة ، ج ٢ ، ص ٥٧٦ : النباهي ، ص ٩٨ .

ولـــد ابو الوليد ابن رشد (الجـــد) في شوال سنة ٤٥٠ هـ. (١٥) . وقد روى عن ابـــي جعفر احمد بن رزق الفقيه ، وعـــن ابي مروان ابن سراج ، وابي عبد اللـــه بن خيرة ، وابي عبد اللـــه محمد بن فرج ، وابي علـــي الغساني ، واجاز لـــه ابو العباس العذري ما رواه (١٦) .

وتقلّد ابـــو الوليد القضاء بقرطبة ، وسار فيه على حـــدّ تمبير الروايـــة باحسن سيرة واقوم طريقة ، ثـــم استعفى عنه فاعفـــى ؛ ونشر كتبـــه وتواليفه ومسائله وتصانيفه (١٧) . ومـــن تواليفه كتاب المقدمـــات الأوائـــل كتب المدوّنـــة ، وكتاب البيان والتحصيل لمـــا في المستخرجة من التوجيـــه والتعليل ، واختصار المبسوطـــة ، واختصار مشكل الآثـــار للطحاوي الى غير ذلك من تواليفه . ويعقّـــب على ذلك صاحب كتاب الصلـــة بقوله : « سمعنا عليـــه بعضها ، واجاز لنـــا سائرهـــا » (١٨) .

ومن مؤلفاته ايضـــا ، « الفتاوى » (١٩) . فقد جمـــع ابن الفران، شيخ الجامع الكبير فـــي قرطبة، فتاوى ابي الوليد ابـــن رشد (الجدّ) ، في كتاب خَطّـــي (٢٠) . ولا شك ان هذه المكانـــة العلمية الرفيعة التي كان يشغلها الجـــد ، قد كان لها آثارهـــا العميقة وطوابعها الواضحة في شخصية ابـــن رشد (الحفيد) وتكوينه العلمـــيّ والثقافيّ . وتوفي ابو الوليد ابن رشد (الجـــد) ، ليلة الاحد ، ودفـــن عشي يوم الأحد الحادي عشر مـــن ذي القعدة سنة عشرين وخمسمائـــة ، ودفن بمقبرة العباس ، وصلّى عليه ابنه ابـــو القاسم ، وشهده جمـــع عظيم من الناس ؛ وكـــان الثناء عليه حسنا جميلا (٢١) . وهكذا فقد ولـــد ابو

---

(١٥) الصلـــة ، ج ٢ ، ص ٥٧٧ .

(١٦) المصـــدر نفســـه .

(١٧) النباهـــي ، ص ٩٩ ، الصلـــة ، ج ٢ ، ص ٥٧٧ .

(١٨) الصلـــة ، ج ٢ ، ص ٥٧٧ .

(١٩) الاعـــلام ، ج ٦ ، ص ٢١٠ .

(٢٠) يوجد هـــذا المخطوط ، على حـــد رواية الجامعة / فرح انطون ، ص ٨ في مكتبة باريس وقد نقـــل اليها من دير سان نيكتور فـــي اسبانيا .

(٢١) الصلـــة ، ج ٢ ، ص ٥٧٧ .

الوليد ابن رشـــد (الحفيد) سنة ٥٢٠ هـ. بقرطبة ونشـــأ فيها ، في بيت علـــم وفضل،ممّا كان له اكبر الأثر في تكوينـــه الفكري والثقافي .

مجريـات حياتـــه :

ولـــد ابن رشد بقرطبة سنة ٥٢٠ هـ. ، ونشأ فيهـــا حيث درس الفقه والطبّ وعلـــوم الأوائل ، وتتلمذ على مشاهير علمائهـــا ... وفي سنة ٥٤٨ هـ. نـــراه في مراكش ، حاضرة الدولـــة الموحّديّة التي بسطت سلطانها علـــى الاندلس والمغرب . وربما كان ابـــن طُفيل ، المفكّـــر المشهور ، وطبيب البـــلاط الموحّدي،هو الذي اشـــار عليه بالقدوم الى عدوة المغرب ؛ اذ قـــام ابن طُفيل بتقديم « ابن رشـــد » الشاب الى ابي يعقوب يوســـف سلطان الموحّدين ؛ وتروي لنـــا المصادر قصّة هذه المقابلة التي كـــان من نتائجها حثّ ابن رشـــد بوضع شروحٍ مُيَسَّرة لأرسطـــو ... (٢٢) .

وتعاقبت الأحداث في حياة ابن رشـــد ... ففي سنـــة ٥٦٥ هـ. تولّى القضاء باشبيلية ، وبعـــد ذلك بسنتين اصبح قاضي قرطبـــة . وبالرغم من مشاغله الكثيرة ، فقـــد ألَّف أهمّ كتبه في هـــذه الفترة ..

وفي سنة ٥٧٨ هـ. استدعاه يعقـــوب المنصور، الذي خلف أبـــاه يوسف،لكي يصبح طبيبـــه بمراكش ، فقد تقدمت السن كثيرا بابن طفيل . ولـــم يلبث ابن رشد طويلا في البـــلاط الموحّدي ، اذ نـــراه بعد فترة قصيرة يعود الـــى قرطبة ، لكي يشغل فيها منصـــب قاضي القضاة .

كان ابن رشـــد ذا حظوة عند خليفة الموحّدين ، يعقـــوب المنصور، في بداية الامر، ثـــم مالبث ان نقم عليه ، بعـــد ان اتُّهم بالزندقة . فأمر الخليفة باحراق كتـــب الفلسفة ، ما عدا كتب الطـــبّ والحساب ، وفرض على ابن رشـــد ان يقيم في « اليسانة » وهي بلـــد قريب من قرطبة ، كانت اولا لليهود ، وان لا يخـــرج عنها (٢٣) . وقد نقم السلطان أيضـــا

(٢٢) انظـــر : Encyclo . Vol. II , P. 410 - 413

(٢٣) انظـــر : ابن ابي اصيبعة ، ص ٥٣٢ .

على جماعة أخرى مــن الفضلاء الاعيان ، وامــر ان يكونوا في مواضع أخــر ، واظهر انه فعل لهم ذلك بسبب مــا يُدَّعَى فيهم انهــم مشتغلون بالحكمة وعلــوم الأوائل . وهم ابــو جعفر الذهبي،والفقيه ابو عبد الله محمــد بــن ابراهيم،قاضي بجاية،وابــو الربيع الكفيف ، وابو العباس الحافــظ الشاعــر القرابــي (٢٤) .

وفي الحديث عــن نهاية محنة ابن رشــد ورفاقه يقول ابن أبي اصيبعة : « وبقوا مدة،ثم ان جماعة من الأعيان باشبيلية شهدوا لابن رشد انــه على غير ما نسب اليه ، فرضي المنصور عنــه وعن سائر الجماعة، وذلك في سنــة خمس وتسعين وخمسمائة ، وجعل ابــا جعفر الذهبي مزوارا للطلبــة ومزوارا للأطباء (٢٥) .

وقد أورد « رينــان » قطعة من سيرة ابن رشــد للأنصاري (وفق مخطوط المكتبــة الامبراطورية ملحق عربــي سنة ٦٨٢ ، ص ٧) جاء فيها عن محنة ابــي الوليد :(٢٦)

« فكمدت ســوق السعايات ، وضرب عن كــل طالب ومطلوب ، والأعداء كانوا لا يسأمون مــن الانتظار ، ويرتقبون أوقــات الضرار ، فلما كان التلوُّم مــن المنصور بمدينة قرطبة ، وامتدَّ بها امــد الاقامة ، وانبسط النــاس لمجالس المذاكرة ، تجددت للطالبين آمالهــم ، وقوي تالبهم واسترسالهم ، فأدلوا بتلــك الالقيات،واوضحوا مــا ارتقبوا فيه من شنيع السوءات ، الماحيــة لأبي الوليد كثيرا من الحسنــات . فقُرِئت بالمجلس،وتُدوولَت اغراضهــا ومعانيها،وقواعدها ومبانيهــا،فخرجت بما دلَّت عليه اســوا مخرج . وربما ذيَّلها مكــر الطالبين ، فلم يكن عند اجتماع المــلا الا المدافعة عن شريعة الاسلام ؛ ثــم آثر الخليفة فضيلة الابقاء ، وأغمَد السيــف التماس جميل الجزاء ، وامــر طلبة مجلسه وفقهاء دولته بالحضور بجامــع المسلمين ، وتعريف المــلا بانه مُرَقٌ من الديــن ، وانه استوجب لعنة الضالين . واضيف اليــه القاضي ابو

---

(٢٤) المصــدر نفســه .
(٢٥) انظــر : ابن ابي اصيبعة ، ص ٥٣٢ .
(٢٦) انظــر : رينــان ، ص ٤٣٨ — ٤٤٤ .

عبد الله ابن ابراهيم الاصولي في هذا الازدحام ، ولُفَّ معه في حريق هذا الملام ، لاشياء ايضا نقمت عليه في مجالس المذاكرة ، وفي اثناء كلامه مع توالي الايام ... » ثم يستمر الانصاري في الحديث عن الاجتماع بالجامع الاعظم بقرطبة ، الى ان يقول : « فنالهم ما شاء الله من الجفاء ، وتفرّقوا على حكم من يعلم السرّ واخفى ؛ ثم امر ابو الوليد بسكنى اليسانة ، لقول من قال : انه ينسب في بني اسرائيل ، وانه لا يُعْرَف له نسبة في قبائل الاندلس ... » ثم يتابع الحديث عن ابن رشد وصاحبه الذي لفه الحريق معه فيقول الانصاري « وليس في زمانهما من بكمالهما ولا من نسج على منوالهما ، وتفرق تلاميذ ابي الوليد ايدي سباء » (٢٧)

ومن الواضح انَّ هنالك اسباباً خفيَّة قد دفعت الى نكبة ابن رشد : فالانصاري مثلا يواصل حديثه فيقول : « ويذكر ان من اسباب نكبته هذه اختصاصه بابي يحيى اخي المنصور والي قرطبة » . وقد اورد ابن ابي اصيبعة اسبابا اخرى . قال القاضي ابو مروان : « وممّا كان في قلب المنصور من ابن رشد انه كان متى حضر مجلس المنصور ، وتكلّم معه او بحث عنده في شيء من العلم يخاطب المنصور بان يقول : تسمع يا اخي . وايضا فان ابن رشد كان قد صَنَّف كتابا في الحيوان ، وذكر فيه انواع الحيوان ، ونعت كل واحد منها . فلما ذكر الزرافة وصفها ثم قال : « وقد رايت الزرافة عند ملك البربر » يعني المنصور . فلما بلغ ذلك المنصور صعب عليه ، وكان احد الاسباب الموجبة في انه نقم على ابن رشد وابعده ... (٢٨) .

وكانت هذه المحنة التي اصابت ابا الوليد ، مناسبة اغتنمها خصومه التشنيع عليه (٢٩) .

وبعد عودة الخليفة المنصور الى مراكش ، ما لبث أن عفا عن ابن رشد ورفاقه واستدعاه اليها . ولكنْ ما لبث ابن رشد ان

---

(٢٧) انظر : المصدر نفسه .

(٢٨) ابن ابي اصيبعة ، ص ٥٣٢ .

(٢٩) انظر : النباهي ، ص ١١١ ، رينان ، ص ٤٣٧ — ٤٤٤ .

توفي فيها ، بعد ذلك بقليل ؛ فكانت وفاته كما اوردها الأنصاري ، ليلة الخميس التاسعة من صفر سنة خمس وتسعين وخمسمائة بموافقة عاشر دجنبر . ودفن بجبانة باب تاغزوت . وبعد ثلاثة اشهر حمل الى قرطبة ، فدفن بها في روضة سلفه بمقبرة ابن عباس (٣٠) .

شخصية ابن رشد واثرها في ادبه :

كان لشخصية ابن رشد اثرها العميق في ادبه فقد طبعته بطابع العمق والجدية ، ونأت به عن الفنون الادبية التقليدية ؛ ولا عجب اذا رأينا العقلانية والواقعية تطبعان ادبه وانتاجه الفكري في جميع فنون المعرفة ، ولذا كانت الدراية اغلب عليه من الرواية (٣١) .

عُني أبو الوليد ابن رشد بالعلم من صغره الى كبره ، وكانت لهذه الحياة الجادّة آثارها في تكوين شخصيته . فكان على حد تعبير بعض الروايات ، على شرفه ، اشدَّ الناس تواضعا واخفضهم جناحا (٣٢) . ويورد ابن ابي اصيبعة حديثا للقاضي ابي مروان الباجي يقول : « كان القاضي ابو الوليد ابن رشد حسن الراي ، ذكيًّا ، رثّ البزّة ، قويّ النفس ، .. » (٣٣) .

كان لهذه المقومات الشخصية اثرها البعيد في حياة ابن رشد ، وما تركته من طوابع مميّزة في ادبه . فكان الى جانب السيرة الحميدة ، قد وهب ذاته للعلم والمعرفة ، وقَصَر حياته على خدمة وطنه .

فهذا صاحب التكملة يتحدث عن هذه الجوانب في شخصية ابن رشد فيقول : « وولي قضاء قرطبة بعد ابي محمد بن مغيث فحمدت سيرته ، وتأثلت له عند الملوك وجاهة عظيمة ، لم يصرفها في ترفيع حال ، ولا جمع مال ، انما قصرها على مصالح اهل بلده خاصة ، ومنافع اهل الأندلس عامة (٣٤) . وكان الى ذلك كلّه .

---

(٣٠) انظر : رينان ، ص ٤٤٢ .
(٣١) انظر : التكملة ، ج ٢ ، ص ٥٥٤ .
(٣٢) المصدر نفسه .
(٣٣) ابن ابي اصيبعة ، ص ٥٣١ .
(٣٤) التكملة ، ج ٢ ، ص ٥٥٤ .

سمحا كريم النفس،فكــان يبذل العطاء لقصّاده ، ويُلام احيانـــا على البذل لمــن لا يحبّونه ولا يُكفّون عــن اتّهامه فيقول : إنَّ اعطاء العدوّ هو الفضيلة ، امــا اعطاء الصديق ، فلا فضل فيــه . وقد اعطى مرة رجلا اهانه ، وحذّره من فعل ذلك بغيره لانـــه لا يأمن بوادر غضبه (٣٥) .

واذا كــان ابن رشد متسامحا في أمــر نفسه ، فانه لــم يكن متسامحا في امــر غيره ؛ ومن ذاك قصّته مع الشاعــر ابن خروف حين هجا ابــا جعفر الحميري العالم المؤدب ، فقــد اوجع الشاعر ضربا، وانذره ألاّ يعود لمثلهــا .

كانت شخصية ابن رشـــد مطبوعة على مزاج الفيلســـوف الحكيم ، تنأى بـــه عن الاتجاه الى تلك الفنون الادبيـــة والفنية ، في الظرف والنغم والايقاع ، كما كــان الشأن مع جلّة حكماء ذلك العصر واطبائه ، مثـــل ابن طفيل،وابن باجة،وابن زهــر،وغيرهم . وهكذا كان ابن رشـــد يحسن المساجلة ولا يحســـن المنادمة . ولا يبالي تزييف لغـــة « البلاط » في سبيل تحقيق لغـــة العلم،ورفع الكلفة مـــن مجالس الباحثين فيه (٣٦) . وربما كانت هـــذه الصفات من الأسباب الخفيّة التي ادّت الـــى التنكيل بهذا المفكر الاســـلامي العظيم .

لقد اجمع اكثــر الدارسين لابن رشـــد على وصفه بأنه « اكثر شُرّاح مؤلفات ارسطو عمقـــا » (٣٧) . كان ابن رشـــد معجبا الاعجاب كله بالمعلم الأول « ارسطـــو » .

ولكن يبقى الســـؤال الضخم امام دارس أدب ابـــن رشد ، وهو : الى اي حـــدّ تأثر ابن رشد شخصيا بآراء ارسطـــو وفلسفته في الأخلاق والسياسة والخطابة والشعـــر ؟ وبعبارة اخرى فنحن نتساءل الـــى أي حـــدّ نستطيع ان نعتبر هذه الآراء تمثّـــل فلسفة ابن رشد واتجاهاتـــه في فهـــم العلوم والآداب ؟

---

(٣٥) انظر : العقـــاد ، ص ١٩ .
(٣٦) انظر : العقـــاد ، ص ٢٦ .
(٣٧) انظر : بين الديـــن والفلسفة ، ص ٢٨ .

ومما لا شك فيه ان هنالك عاملين اساسيين أثَّرا في مفهومه المتميّز للأدب ، وهذان العاملان هما : شخصيّته الجادة ، وتكوينه الثقافي ، واشتغاله بعلوم الأوائل بانصرافه الى دراسة ارسطو والتعمّق بشرح فلسفته وآرائه .

وان نظرة شاملة في مؤلفات ابن رشد (٢٨) تظهر لنا الطابع العقلاني لأدب أبي الوليد : فمؤلفاته بصورة عامة يمكن تقسيمها الى اربعة اقسام : فهنالك شروح أو مصنّفات فلسفية وعلمية ، وشروح أو مصنفات طبية ؛ وكذلك هنالك مصنّفات كلامية وفقهية ، ومصنّفات ادبية ولغوية .

وكان مجال التأليف عند ابن رشد قد تأثر بطبيعة نظرته الفلسفية ؛ فقد حرص دائما على تأكيد ذلك المذهب الفلسفي الذي تميَّزت به الفلسفة العربية في الأندلس خاصة ، والفكر العربي بصورة عامة ؛ وفحواه تقسيم الأقيسة الى ثلاثة اصناف : برهانية وجدلية وخطابية . وبناء على ذلك يقسم الناس الى فئات أو طبقات ثلاث متقابلة : هم أهل البرهان ، فالجدليون ، فالخطابيون . وهو يعني بأهل البرهان الفلاسفة او الخاصة ، وبالخطابيين جمهور الناس الغالب أو العامة ، وبالجدليين طائفة من الناس هي دون الفلاسفة مرتبة ، الا انها مع ذلك تتميّز عن الجمهور ، هم المتكلمون (٣٩) .

وربما يَسْهُل على دارس مؤلفات ابن رشد ، بعد هذا ، ان يصنّفها وفق هذه الأقيسة . فنحن نعتقد مثلا ان كتابة « تهافت التهافت »

---

(٢٨) في مؤلفات ابن رشد انظر : ابن ابي اصيبعة ، ص ٥٣٢ ، ٥٣٣ ، التكملة ج ٢ ، ص ٥٤٤ — ص ٥٥٥ ، الذهبي ، ص ، رينان ، ص ٧٦ — ١٢ وهما من اكثر القوائم ضبطا وتفصيلا ؛ وهناك نشرة الأب « بونسيج » عن مخطوطات ابن رشد الموجودة في انحاء العالم . وقد اشارت المصادر ايضا الى تلك القائمة المهمة التي تحوي مؤلفات ابن رشد في المخطوطة رقم « ٨٨ » بمكتبة الاسكوريال باسبانيا .

(٣٩) انظر : فخري ، ص ٢٣ .

هو مساجلة ادبيـــة قام باثنائها بفحص دقيق،وتاويل عميق متبصّر لكتـــاب « تهافت الفلاسفة » للغزالي . فهـــو ينعي بحرارة على الغـــزالي حين يصرّح بانه لـــم يقصد من تهافته بيان الحقّ في نفســـه ، وانما قصد التشويش على الفلاسفـــة ، ونزع الثقة بهـــم ... (٤٠) . وكذلك نستطيع ان تدرج في إطـــار الادب ، وفق مفهوم ابن رشـــد ، كتابه الذي سمّاه « فصل المقـــال فيما بين الحكمة والشريعة مـــن الاتصال » وكتاب "مناهج الادلة في علـــم الأصول"... وغيرها ، دون أن نضـــع حـــدًّا فاصلا بين علم الكلام واثره فـــي الأدب .

امـــا في مجال اللغة ، فقد اشـــارت المصـــادر الـــى « كتابه في العربية الذي وسمـــه بالضروري » (٤١) . وكذلك كتابـــه في الكلام على الكلمة والاسم المشتق (٤٢) . وهكـــذا نستطيع القول إن مجالـــه الأدبي قد اتّسم بتلك الحركـــة الفكرية التي تركت اثـــرا عميقا في التفكير الاسلامي ؛ هذا مع العلـــم ان الفلسفة الادبية لم تشغل ســـوى حيّز صغير فـــي مذهب هـــذا الفيلسوف ، بازاء فلسفته المـــادية . فقد كان الخلاف ، بينه وبين المتكلمين في الفلسفة الأدبيـــة،شبيها بالخلاف بينه وبينهـــم في فلسفتـــه الطبيعية (٤٣) .

لقـــد كانت شخصية ابن رشـــد واضحة متميزة في ادبـــه،وفي اجتهاده الفكـــري،وفي فلسفته . وإنّ تصانيفـــه التي وسمها بالشروح ، كانت على مستويات مختلفـــة من حيث المنهج والغاية التـــي يرمي اليها . وهو في ذلك كلّـــه كان يميز احيانا ، حتى في هـــذه الشروح ، بين رايـــه وراي المتن الذي يشرحـــه .

وهكذا فان شخصية هـــذا القاضي الفيلسوف ، التـــي طُبِعت على الجـــدّ ، قد تركت آثارها العميقة فـــي مفهومه للأدب . فقد كان

---

(٤٠) انظر : بين الدين والفلسفة ، ص ١٦٧ .
(٤١) التكملـــة ، ج ٢ ، ص ٥٥٤ .
(٤٢) انظر : رينـــان ، ص ٩٠ .
(٤٣) انظر : فـــرح ، ص ٥٨ .

يتعفّف عن حضور مجالس اللهـو والطرب ، مما استباحه جملـة من علماء عصره وحكمائه . وقد بلـغ من تعفّفه عمّا لا يراه خليقا بعلمـه ومكانه من القضاء انـه ، « احرق شعره الذي نظمـه في الغزل ايام شبابه » . وبذلك ، مـع الأسف ، حُرِم الدارسون من مصدر مهـم من مصادر دراسة ادبـه وحياته .

وفي هـذا الاطار العقلاني لمفهوم الأدب ، وتغليبـه هذا الجانب على الجانب الفنـي ، نورد الرواية التاليـة :

قال ابـو الفضل التفاشي : جرت مناظرة بين يـدي ملك المغرب المنصور يعقوب بين الفقيـه ابي الوليد ابن رشد والرئيس ابي بكر ابن زهر ، فقال ابن رشـد لابن زهر في تفضيل قرطبـة : ما ادري ما تقول ، غير انـه اذا مات عالِمٌ باشبيلية ، فأُريدَ بَيْـعُ كتبه حُمِلَت الى قرطبة حتى تُبـاع فيها ، وإن مات مطرب بقرطبة فأُريدَ بَيْعُ آلاتـه حُمِلَت الـى اشبيلية (٤٤) .

ارتباط الأدب عنـد ابن رشد بالحقيقة والمعرفـة :

نظـر ابن رشد الى الأدب نظرة شاملـة وعميقة ، وقد فهـم رسالته الأدبية من خـلال اتجاهين اساسيين استغرقـا حياته الادبية كلّها . وهذان الاتجاهـان يتميزان بالبحث عن الحقيقة وواجـب الوجود ، من ناحية ، وعن المعرفـة التي هي عبادة للخالـق ؛ ويلتقي ابن رشد في ذلك مع الفارابي وغـيره من المفكرين الاسلاميين الذيـن يعتبرون البحث عن المعرفة عبادةً للـه، سبحانه وتعالى، وتسبيحا لـه في ملكوته . ولنستمع الى ابـن رشد في هذه العبارة التي حُذِفَت، على حـد تعبير « رينـان »، من شرح ما بعد الطبيعة في الطبعـات اللاتينية ، وقـد ترجمها مسيو « منـك » من العبرية .

قـال ، قال ابن رشد : « يقوم ديـن الفيلسوف الخاص على دراسة ما هو كائن ؛ وذلك لان ارفـع عبادة يمكن ان يعبد اللـه بها ، تقوم

---

(٤٤) النفح ، ج ١ ، ص ١٤٧ .

على معرفة ما صنع ، لما يؤدي اليه هذا من معرفتنا اياه على حقيقته كلها . وهذا هو اصلح الأعمال عند الله ... » (٤٥) .

اتجه ابن رشد الى البحث عن الحقيقة ، تاركا لنا في ذلك نتاجا خصبا وادبيا رفيعا يقع، على حد تعبير بعض الروايات، في حوالي عشرة آلاف ورقة .

وهو في بحثه عن الحقيقة ، كان له موقف متميّز عن المسائل الكبرى التي اثارت الجدل في عصره وفيما تلاه من القرون الوسطى . فقد ثار الجدل حول مسألة قِدَم العالم ، ومسألة علم الله بالجزئيات ، ومسألة النفس وبقائها ؛ هذا فضلا عن مسألتين أُخريين ، ثار حولهما الجدل واحتدم، وهما : مسألة الصفات الالهية، ومسألة الحقيقتين . والمسألة الاخيرة مؤداها ان حقيقة الشرع وحقيقة العلم والحكمة شيء واحد، يختلف في العبارة ولا يختلف في الجوهر . وقد شغلت هذه القضية اقلام الكتّاب والمفكرين في ذلك العصر . فوضع ابن طفيل قصّته المعروفة « حي بن يقظان »، ووضع ابن رشد كتابه الموسوم « فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال » . فالفكرة التي املت على ابن طفيل قصته ، هي ذاتها التي املت على ابن رشد كتابه . وان الفرق بين الأسلوبين يعود الى الفرق بين شخصيّتي الكاتبين .

فابن طفيل ، كما يبدو من أخباره وآثاره ، صاحب مزاج طريف ، يُحسن فنَّ المنادمة والمسامرة ، في حين ان شخصية ابن رشد الجادة ، ونظرته العقلانية الى الاشياء ، قد تردد اصداؤها في ادبه ، مما حدا بمن ترجموا له بوصفه بان الدراية كانت اغلب عليه من الرواية (٤٦) . وكان وصفه هذا في مجال الفقه ، ولكنه ينسحب بطبيعة الحال على حياته الثقافية والفكرية كلها . فقد تميز ابن رشد منذ وقت مبكر في

---

(٤٥) رينان ، ص ١٧٦ .

(٤٦) التكملة ، ج ٢ ، ص ٥٥٤ .

مجال الفقـــه ، بالنظرة العقلية والقياس في الأحكـــام . هذا مع العلم أن محصوله في الروايـــة كان واسعا . وان المصـــادر تُحدّثنا بأنه كان يحفظ الموطّـــا عن ظهر قلب (٤٧) .

وان نزعة التوفيق بـــين الشريعة والفلسفة تُعتَبر معقـــد الأصالة والطرافة في تفكيره . أمـــا في مجال المعرفة ، فـلم يَتوانَ ابن رشد في البحـــث والتنقيب عن جميـــــع المعارف الانسانية دراسة وتحقيقـــا وشرحا ، وفي مختلـــف الحقول ، في الطـــب والمنطق والفلك والرياضيات والفلسفة وغيرها مـــن صنوف المعارف الانسانيـــة

فالبحث وراء المعرفـــة ، في نظر ابن رشد يُقرّبُه الى فهـــم حقيقة الخالـــق ؟ فهو عبادة وتسبيح للّـــه في ملكوته وبالتالي فان هـــذا المسرى يؤدي بـــه الى فهم جوهر الدين وحقيقته، حيث يُتمّـــم « الوحي » ما عجز عنه العقـــل . وهكذا فان الأدب ونتاج الفكـــر الانساني يرتبط في نظر ابن رشـــد بالحقيقة والمعرفة من حيث الغايـــة والهدف .

الخطابة عند ابـــن رشد :

وفي هذا الموضوع لا بُـــدَّ لنا أن نقف عند كتـــاب « تلخيص الخطابة » ، حيث يبدأ ابن رشـــد الكلام فيه في كل فقرة بقوله : « قال » ثـــم يورد بضع كلمات من اوائـــل الفقرة،ويمضي بعد ذلك فـــي الشرح ، دون أن يتميز مـــا لأرسطو مما لـــه هو ذاته ، ويستطرد احيانا ويأتي بكثير من الأمثلة من عنـــده،ولكنه في هذا كلّه يتابع ترتيـــب النص الاصلي لأرسطو ويتقيّد بـــه . ويتوسع أحيانا ، فيزيد كثيرا عـــن حجم نص ارسطو (٤٨) . وقد فرغ ابن رشـــد من كتابه هذا يـــوم الجمعة الثالث من شعبان من عـــام سبعين وخمسمائة ، بقرطبـــة (٤٩) .

وقد تَوسَّع ابـــن رشد في ايضاح معاني ارسطـــو التي يذكرها النص ؛ وهو يعترف فـــي نهاية الكتاب ان ما سجّله لـــم يتعدَّ فهمه

(٤٧) انظر : رينـــان ، ص ٦٣ .
(٤٨) انظر : تلخيص الخطابـــة ، ص ر .
(٤٩) تلخيص الخطابة ، ص ٢٣٢ .

واستيعابه لهذه النصوص ، اذ يقول : « وقد لخصنا منها ما تأدى الينا فهمه، وغلب على ظننا انه مقصوده ؛ وعسى الله أن يَمُنَّ بالتفرغ التام ، التحص عن نص اقاويله في هذه الأشياء (٥٠) .

وان هذا الاتجاه يحملنا على الاعتقاد بطابع ابن رشد وشخصيته في هذه الشروح ، ولا سيما في « تلخيص الخطابة »؛فتراه مثلا يستبدل في كتابه هذا بالأمثلة اليونانية نظائرها في اللغة العربية ، متلائما مع البيئة العربية الاسلامية التي يكتب لها ويعيش فيها ؟ فيورد شواهد من الفقه والتاريخ الاسلامي واللغة العربية . وقد نجح ابن رشد نجاحا كبيرا في تطبيق القواعد والنماذج التي يذكرها أرسطو ، على اللغة العربية وتراثها ، ولا سيما في المقالة الثالثة : اقسام فن الخطابة ، في صفات الأسلوب ... الخ (٥١) .

فان ابن رشد يتبنّى مذهب « المعلم الأول » ارسطو في الخطابة، كما يتبناه في الشعر ، كما سنرى فيما بعد.« فصناعة الخطابة » تناسب صناعة الجدل ، وذلك ان كلتيهما تُؤُمَّان غاية واحدة وهي مخاطبة الغير ... ويوجد استعمالهما مشتركا للجميع ؛ اعني أن كلّ واحد من الناس يستعمل، بالطبع، الأقاويل الجدلية والاقاويل الخطابية ... (٥٢) . وفي موضع آخر يقول : « وكلّ واحد من الناس يوجد مستعملا لنحو ما من انحاء البلاغة ، ومنتهيا منها الى مقدار ما ، وذلك في صنفي الأقاويل اللذين احدهما المناظرة،والثاني التعليم والارشاد . واكثر ذلك في الموضوعات الخاصة بهذه الصناعة،وهي مثل الشكاية والاعتذار وسائر الاقاويل التي في الأمور الجزئية ... (٥٣) .

فالكلام عنده على مذهب ارسطو ، مركّب من ثلاثة : من قائل ، وهو الخطيب؛ومن مقول فيه ، وهو الذي يعمل فيه القول ؛ ومن

---

(٥٠) تلخيص الخطابة ، ص ٣٣٢ .
(٥١) أنظر : تلخيص الخطابة ، ص ٢٤٨ — ٣٣٢ .
(٥٢) تلخيص الخطابة ، ص ٣ .
(٥٣) تلخيص الخطابة ، ص ٤ .

الذين يوجه اليهم القول ، وهـم السامعون . والغايـة بالقول انما هي متوجهة نحو هؤلاء السامعـين . والسامعون لا مُحالة إمّـا مُناظر ، وإمّا حاكم ، وإمّا المقصود اقناعـه . . . والحاكم في الامور المستقبلـة ، هو الرئيس ، والحاكـم في الامور الكائنة هو الـذي يسميه الرئيس مثل القاضي في مدننا هذه وهي مـدن الاسلام . واما الناظر فانما يناظـر بقوة الملكـة الخطابية (٥٤) .

ولنستمع لابـن رشد كيف يطبِّق نظريات ارسطـو في تفصيل الاقاويل الخطابية علـى نصوص من اللغة العربية ، بـل يستشهد على ذلك بآيـات من القرآن الكريم . قـال : والمكرور والمعاطف في الاقاويل الخطابية ، هـو ان يكون اول القول وآخـره بلفظ واحد او قريب من الواحـد .وهذا مثل قولهم : « القتل انفـى للقتل » ، ومثل قوله تعالـى (الحاقة ما الحاقة ، ومـا ادراك ما الحاقة) . . (٥٥) .

وهنالك امثلـة كثيرة ؛ بل ان المقالة الثالثة كما اشرنـا سابقا ، هـي محاولة جادّة من ابن رشـد ، لكي يتمثّل نظريات ارسطـو في الخطابة ويطبقها على اللغـة العربية وآدابها . ولنستمع اليه يقـول :

« وامـا الاسماء المترادفة ، فصالحة جـدًّا لصناعة الشعر . وقد تصح ايضـا لصناعة الخطابة . والشـاعر يستعمل هذا الصنف لاسباب اخصّها بـه استعمالها لتصحيح الوزن والقافيـة ، مثل قوله :

« وهِنْـدٌ اتى مِن دونهـا النايُ والبُعدُ » (٥٦) .

فابن رشد يشير بهذا النص الى بيت للحطيئة من داليّته المشهورة التي يمدح بها بغيض بن عامـر ، ومطلعها :

« الا طَرَقَتْنا بَعدما هجعوا هِنـدُ ــ وقد سِرْنَ خَمساً واتلأبَّ بنا نَجـدُ » .

وتمام البيـت الذي استشهد بـه ابن رشد هو :

---

(٥٤) تلخيص الخطابـة ، ص ٢٨ ــ ٢٩ .
(٥٥) تلخيص الخطابـة ، ص ٢٨٨ .
(٥٦) تلخيص الخطابـة ، ص ٢٦٣ .

ألا حَبَّذا هِندٌ وأرضٌ بها هِندُ : وهِنْدٌ اتي مِن دونها النأى والبعد

وفي حديثه عن توابع الالفاظ يقول :

« وينبغي ان تعلم ان الاخذ بالوجوه (٥٧) ليس له غناء في الخُطَب الكثيرة وانما غناؤه في المَتْلُوَّة ؛ وان عادة العرب في استعمالها قليلة . واما من سلف من الامم ، فربما اقاموها في الاشعار مقام الالفاظ ، اعني التشكيلات ، ويحذفون اللفظ الدالّ على ذلك المعنى اما ارادة للاختصار ، وإما طلباً للوزن والالذاذ ؛ وهذا لم تجر به عادة العرب . ولهذا صار ما يقول ارسطو في كثير من هذه الاشياء ، كما يقول ابو نصر ، غير مفهوم عندنا ولا نافع . والاخذ بالوجوه انما هو نافع اكثر في الخطب التي تتلى على جهة المنازعة ، لانه انما يحتاج الى الاستعانة بجميع الاشياء المقنعة في موضع المنازعة لتحصل الغلبة .

وامثال هذه الخطب هي الخطب التي كانت بين علي ومعاوية . وامثال ذلك في الاشعار ، كالاشعار التي كانت بين جرير والفرزدق (٥٨) .

وهكذا فقد اضاف ابن رشد اضافات اصيلة في الشروح التي وضعها على مصنَّفات ارسطو . ولم يُكتفِ بالنقل ، بل ترك آثار عبقريته الفذّة على تلك النظريات والآراء ، التي قامت بدور مهمّ في النهضة الادبية فيما بعد .

ابن رشد والشعر :

لم يكن ابو الوليد ابن رشد شاعرا ولا ذا طبيعة شعرية ؛ فان اتجاهه الفكري ، وما جُبِل عليه من جدّية في التفكير والسلوك ، كانا ينأيان به عن حياة الفن والشعر .

ولم يكن ابن رشد في عالم الشعر، مع ذلك كله ، باقل من اولئك النجباء ، الابيناء من نظرائه من كبار الفلاسفة ، والاطباء والفقهاء ،

---

(٥٧) وقد عرّف « الاخذ بالوجوه » بقوله : « الامور المستعملة مع الالفاظ على جهة المعونة في جودة التفسير وايقاع التصديق وبلوغ الغرض المقصود » . انظر : تلخيص الخطابة ، ص ٢٥٠ .

(٥٨) تلخيص الخطابة ، ص ٢٥١ — ٢٥٢ .

كابن سيناء وابـــن حزم وغيرهما ، في المشرق ، كما هـــو في المغرب والأندلس ؛ وقد كان الشعر في الاندلس،على حـــد تعبير بعض الروايات ، سائرا على جميع الالسنـــة في الاندلس ؛ فالشعر يجري علـــى ألسنة الرجال كما يجري على ألسنـــة النساء ، ويجري على ألسنـــة الشعراء كما يجري على ألسنـــة الفقهاء والعلماء . ولكنَّ شعـــر هؤلاء العلماء لم يكن ليتجاوز النظـــم والتأليف المحكم بين المقاطع والالفاظ . ونحـــن اذا استثنينا بعض الامثلـــة القليلة ، فاننا نستطيع القـــول : إن جميع هؤلاء العلماء قـــد نظموا الشعر وانتحلوه ، دون أن يكونـــوا ذوي شان في مجال الغنائية او الفـــن ، ولكنه حلية يتَّصف بها كـــل نجيب . وكان ابن رشـــــد من كبار هؤلاء النجباء الالبّاء ، فلا بـــدّ من أن يضيف الشعر الى جملة علومـــه وكفاياته .

فهذا ابـــن الابار يصفه فيقـــول :

« وكان يُفزَع الـــى فتواه في الطب كما يُفزَع الـــى فتواه في الفقه ، مع الحظّ الوافر مـــن الاعراب والآداب . حَكَى عنـــه ابو القاسم بـــن الطيلسان انـــه كان يحفظ شعر حبيب والمتنبـــي ، ويُكثر التمثّل بهما في مجلسه ، ويورد ذلك احســـن ايراد » (٥٩) .

ويحدّثنا ابـــن سعيد ، صاحب المغرب ، وقد كـــان قريب عهد من الفترة التي عاش فيها ابـــن رشد ، فيقول : « ادركه والدي وقـــرأ عليه ، وقال في وصفـــه الشقندي : « فقيـــه الاندلس ، وفيلسوفها الـــذي لا يَحتاج في نباهته الى تنبيـــه » . وانشد من شعره قولـــه :

مـــا العِشـــقُ شاني ، ولكـــنْ لستُ أُنكِرُهُ
كـــم حَـلَّ معقـــدة سلوانـــي تَذَكُّـــرُهُ

مـــن لـــي بِغَضِّ جفوني عـــن مخبَّرة الـــ
اجفـــان قـــد اظهَرَتْ مـــا لســـتُ أُضْمِرُهُ

---

(٥٩) التكملـــة ، ج ٢ ، ص ٥٥٤ .

لولا التُّقى لأطَعْتُ اللَّحْظَ ثانيةً
فيمن يُرُدُّ سنا الألحاظ مُنْظَرُهُ

ما لابن ستينَ قادَتْهُ لِغايَتِهِ
عشريةٌ فنأى عنه تبصُّرُهُ

قد كان رضوى وقاراً فهو سافية
الحُسنُ يوردُه ، والهون يُصدِرُهُ (٦٠) .

وفي هذا الموضوع ، يتحدث الفيلسوف الفرنسي المشهور ، ارنست رينان،فيقول :

« ونعلم من ليون الافريقي ان ابن رشد كان قد نظم عدة قصائد خلقية وغزلية ، فاحرقها في مشيبه ؛ وينقل ليون الينا قطعة منها تجعلنا نفترض بالحقيقة ، كون الحكمة ، من بعض النواحي ، لم تأت ابن رشد الا مع السنين .. (٦١) . ومهما يكن من أمر ، فقد راض ابن رشد نفسه على التوقّر فبالغ في رياضتها ، وربّما دفعه ذلك الى حرق اشعار نظمها في صباه ؛ وبذلك،مع الاسف،فَقَدْنا لوناً مهمّاً من نتاج عبقريته ، يمكن ان يُلقي ضوءا على حياته الخاصة ونتاجه الأدبي .

لم يكن ابن رشد ممن نُظُم الشعر وانتحله ، على مذهب نظرائه من العلماء والفلاسفة،ولكنه كان له موقف من الشعر ، بصورة عامة ، يتداخل مع موقف ارسطو ونظريته في الشعر . والواقع أن تلخيصه « فن الشعر » لارسطو يشهد بعلوّ كعبه في الادب العربي ، ولا سيما شعر ما قبل الاسلام .

وتجد في كل صفحة من هذا الكتاب ، على حد تعبير المستشرق الفرنسي ارنست رينان ، استشهادا بعنترة وامرىء القيس والاعشى والنابغة وابي تمام والمتنبي وكتاب الاغاني ... (٦٢) .

---

(٦٠) المغرب ، ج ١ ، ص ١٠٤ — ١٠٥ .
(٦١) رينان ، ص ٦٢ — ٦٣ .
(٦٢) انظر : رينان ، ص ٦٣ .

ويربط ابن رشد بين الموسيقى والشعر ، كما هو الأمر عند ارسطو ؛ فالموسيقى بنظره تُعْنَى بتثقيف النفس وتمريسها على الفضائل الخلقية . وهو يعني بالموسيقى الأقاويل المحلية ذات اللحن ، على حد تعبيره . فكانت بهذا الفن خادمة لصناعة الشعر الذي يؤثر في الصِبْيَة والاحداث اكثر من الخطابة والبرهان — وهما ضربان من ضروب الاقناع — . فاذا رقوا عن هذا الطور استعملت معهم الأقاويل الخطابية والجدلية ، وفي الطور الأخير البرهانية التي يراد بها الفلاسفة او الحكماء خاصة (٦٣) .

فابن رشد ينظر الى الشعر ، وفق نظرة ارسطو ، وذلك من خلال وظيفته في التربية وتأثيره في الناشئة ؛ ومن ناحية اخرى فانه يرى فيه صنفا من صنوف الاقناع ؛ والاقناع احد سبيلين رئيسين لغرس الفضائل في نفوس سكان الدولة . فالاقاويل الخطابية والشعرية يخاطَبُ بها الجمهور ، وقد اعتمدها ايضا افلاطون في « الجمهورية » (٦٤) .

فابن رشد يقف من الشعر من خلال وظيفته التربوية موقفا هادفا : فمن القصص التي ، كما يقول ، ينبغي نبذها ما كان حاثا على طلب اللذة أو على ابتغاء المال ، لانها تحول دون التمرس بحياة الجندية . وهذه المفاسد ، كما يقول ابن رشد ، يكثر ذكرها في اشعار العرب ، « فلم يكن اضر من تلقينها للصبية منذ نعومة اظفارهم » ؛ وهو ما درج عليه معلموهم منذ القدم (٦٥) .

لا شك أن ابا الوليد يقف موقفا انتقائيا من الشعر العربي في مجال التربية . وهذا امر ينسجم والاهداف التربوية السامية ، التي رسمها منذ البداية ، من وجوب غرس الفضائل في نفوس ابناء المدينة الفاضلة . ولا يمكن ان يكون هذا الموقف مُرْها للشعر العربي

---

(٦٣) انظر : مخـري ، ص ١٢٣ .
(٦٤) انظر : مخـري ، ص ١٢٣ .
(٦٥) انظر : مخـري ، ص ١٢٦ .

بصورة عامة ، وهو الذي كـــان يحفظ شعر حبيب والمتنبـي ، ويُكْثِر التمثل بهمـــا في مجلســه .

كان لابن رشــــد باع في قول الشعر ، ولكنّه لــم يكن يمثل جوانب عبقريته المشرقة ؛ وكانت لـــه آراء ونظرات فنية ونقدية فيـــه امتزجت بآراء ارسطـــو ونظرته للشعر امتزاجا كلّيّـــا . ونحن نعتقد أن ابـــن رشد قد حالفه التوفيـــق في مجال الشعر كما حالفه في مجـــال الخطابة ، من حيث محاولتـــه لتطبيق نظريات ارسطـــو على نماذج اصيلة في اللغة العربية وآدابهـــا ، شعرا ونثرا ...

ادب ابـــن رشد ونزعته الانســـانية والاجتماعية :

لقـــد ذاع صيت ابن رشد بين « اللاتين » لأمريـــن ؛ لكونه طبيبا وكونه شارحا لأرسطو ؛ بيـــد ان فخره شارحا اعظم من فخـــره طبيبا بمراحل . فمهما يكـــن من شهرة نالتها « الكليات » لـــم تبلغ ما ناله « قانون » ابن سيناء مـــن اعتبار بالغ (٦٦) . وانما انتهـــى بشرحه الاكبر الى تكوين قطب ثبـــت في الفلسفة ، « فالطبيعة تفسر بارسطـــو، وارسطو يفسر بابـــن رشد » (٦٧) .

وألّف ابن رشد،عـــدا هذه الشروح ، عددا كبيرا مـــن الكتب يُعْسُر احصاؤها تماما . وقـــد شَمَلَت مؤلفاته مختلف مجـــالات المعرفة الانسانية : في الفلسفة ، وعلـــم الكلام ، والفقه ، والفلك ، والطـــب ، والنحـــو ، واللغـــة .

ونحن اذا تجاوزنـــا مفهوم الأدب من حيث هو نتاج فكري هدفـــه التسلية والموعظة الى مفهوم أعـــمّ ، وذلك من حيث هـــو نتاج فكري يؤثر الكاتب من خلاله فـــي القارىء ويحركه نحو الأفضـــل ، نكون قد اقتربنا كثيرا لكـــي نصنّف في هذا الاطار مجموعة مـــن مؤلفات ابن رشد الأدبيـــة ، وأهمّهـــا :

---

(٦٦) انظر : رينان ، ص ٧٣ .

(٦٧) المصـــدر ذاتـــه .

١ — كتاب « تهافت التهافت » ، وقد وضعه ابن رشد لكي يمضي به كتاب الغزالي الذي عنوانه « تهافت الفلاسفة » .

٢ — كتاب « فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال » ، وقد حاول فيه ابن رشد أن يوفّق بين الشريعة والفلسفة .

٣ — كتاب « الكشف عن مناهج الأدلّة » .

ولكي نستطيع أن نفهم اتجاهات ابن رشد في مستَفاده المتنامية ، لا بُدَّ لنا أن نتعرف على نظرة ابن رشد للكاتب ، من ناحية ، ولنوعية الجمهور الذي يكتب اليه من ناحية اخرى . فالناس في نظره متفاوتون حسب استعداداتهم وقدراتهم ، ومن هذا التفاوت في الفِطَر والعقول ، جعل الناس على حد تعبيره طوائف ثلاثا :

١ — الخطابيّون ، وهم الجمهور الغالب الذي يصدق بالأدلة الخطابية .

٢ — اهل الجدل ، ومنهم رجال علم الكلام ؛ وهم الذين ارتفعوا من العامة ولكنّهم لم يصلوا لأهل البرهان اليقيني .

٣ — البرهانيون ، بطبعهم وبالحكمة التي أخذوا انفسهم بها .

وبناء على ذلك يقول ابن رشد بانقسام الشريعة الى ظاهر له اهله ، وهم العامة واشباههم ، وباطن له اهله ، وهم ذوو البرهان (٦٨) .

وان نظرية ابن رشد في التعلُّم تقوم على هذه الفروق الفردية ، اذ كان ينادي دائما « بانَّ جَعْلَ الناس شرعا واحدا في التعلُّم خلاف المحسوس والمعقول » ؛ هذه النظرية التي كانت معروفة جيدا عند الكثير من الفلاسفة قبله ، مثل الفارابي وابن سيناء وغيرهما ...

كان ابن رشد يرى وجوب تقيد الكاتب بنوعية الجمهور الذي يكتب اليه . فقد حرم مثلا الحديث مع الجمهور في علم الله على النحو

---

(٦٨) انظر : بين الدين والفلسفة ، ص ٩٣ .

الفلسفي . وقد اخـذ على الغزالي اثباته التأويل في غـير كتب البرهان ، وتقديمه ذلك الـى جمهور الناس . وشجـب المتكلّمين ، وبخاصـة المعتزلة ، انهم بتأويلهم التي صَرَّحوا بهـا للجمهور ، اوقعـوا الناس في شنئات وتباغض وحروب ، ومزقـوا الشرع (٦٩) .

ولكننا نجـد ابن رشد يقع في مثل هـذا الطبع ، فيعتذر ، بأن الجمهور قد عرف مـن اولئك الذين يلومهم هذه التأويل . فكان لا بـدَّ لـه أن يتكلم فيها ، وذلك لبيان الحق من جهـة ، ولدفع الأذى عـن الجمهور من جهـة اخرى .

وان هـذا اللون من الكتابة التي خرج بها مـن اطار كتب الخاصة ، اهل البرهان ، الـى نطاق العامة ، اهـل الجدل والخطابة ، ليست في جوهرها سـوى مساجلات ومناظرات كتابية ، يحـاول الكاتب دحض آراء خصومه ، واصلاح ما افسدته ، على حد تعبيره ، لدى الجمهور . بل ينصّ احيانا ان بعض الافكار ، لا سبيل الى انشائها في هذا الكتاب ، مما يؤكد ان كتاب « تهافت التهافت » ، ليس من الكتب التي تُدَّخَر للخاصة،وانما هو كتاب للعامة،على حَـدّ مفهومه ؟ اذ يقول احيانا في مناقشـة بعض الموضوعات : ، « وهذا العلم لا سبيل الى انشائه في هذا الموضع » (٧٠) .

وان اسلوب ابن رشـد في « تهافت التهافت » ، يبتعد كثـيرا عن الاساليب البرهانية ، فقد خرج بـه من هذه الدائرة مـن حيث الهدف ، ولكنه يتلوّن احيانـا بانفعالية تُخرج الكاتب عن وقاره وموضوعيتـه الى السباب والتهكـم اللاذع .

فيشير الى ابـي حامد الغزالي فيقول : « فاتيانه بمثـل هذه الاقاويل السفسطائية قبيح ، فانه يُظَنُّ بـه انه ممن لا يذهب عليـه ذلك ، وانما اراد بذلـك مداهنة اهل زمانه » (٧١) وهـذه تهمة ، ولا شكَّ ، خطيرة يوجّها ابن رشـد الى ابي حامد . وفي موضع آخـر يقول :

---

(٦٩) انظر : بين الديـن والفلسفة ، ص ١٠١ .

(٧٠) تهافت التهافت ، ج ١ ، ص ٩٢ .

(٧١) تهافت التهافت ، ج ١ ، ص ٩٣ .

« قلت : هذا الكلام،الذي هو جواب عن الفلاسفة ، في نهاية السقوط » (٧٢) . وفي مكان آخر « قلت : هذا كله سفسطائي خبيث » (٧٣) . وكذلك : « هذا بَيِّن بنفسه ؛ وقائل هذا ، هو الملبس ، لا الفلاسفة ، فان الملبس هو الذي يقصد التغليط لا الحق . واذا اخطأ في الحق فليس يقال فيه : انه ملبس » (٧٤) . وفي تعليق له حول بعض الافكار يقول : « وهذا كله عند الفلاسفة هوس وتخليط » (٧٥) . وكثيرا ما يُتَّهم ابنُ رشد ابنَ سينا وشيعته فيقول : « فانظر هذا الغلط ، ما اكثره على الحكماء ! فعليك أن تتبين قولهم هذا : هل هو برهان ؟ ام لا ؟ اعني في كتب القدماء ، لا في كتب ابن سينا وغيره ، الذين غيَّروا مذهب القوم في العلم الالهي ، حتى صار ظنيا » (٧٦) .

ويتهم احيانا ابن سيناء،والفارابي احيانا ، بعدم فهم مذاهب قدماء الفلاسفة ، فيقول : « قلت : هذا كله تَخَرُّص على الفلاسفة من ابن سيناء وابي نصر ، وغيره ... (٧٧) . وقد يهاجم الغزالي بعنف ، مع دحضه لآراء ابن سينا اذ يقول : « واما الكلام فيما صدر منها (اي العقول) فانفرد ابن سينا بالقول الذي حكاه (اي الغزالي) من الفلاسفة وتَجَرَّد هو للرد عليهم ، ليوهم انه ردّ على جميعهم .

وهذا ، كما قال ،"تَعَمُّق مِمَّن قاله في الهوس » (٧٨) . وهو هو أيضا ينعي على الفارابي وابن سينا مقالهما ، اذ يصيح مندهشا : « والعجب كلّ العجب ، كيف خفي هذا على ابي نصر وابن سينا ، لأنهما أول من قال هذه الخرافات،فقلَّدهما الناس ، ونسبوا هذا القول الى الفلاسفة ... » (٧٩) .

---

(٧٢) تهافت التهافت ، ج ١ ، ص ١٦٠ .
(٧٣) تهافت التهافت ، ج ١ ، ص ٢٤٢ .
(٧٤) تهافت التهافت ، ج ١ ، ص ٢٥٣ .
(٧٥) تهافت التهافت ، ج ١ ، ص ٢٨٢ .
(٧٦) تهافت التهافت ، ج ١ ، ص ٣٠١ .
(٧٧) تهافت التهافت ، ج ١ ، ص ٣٠٦ .
(٧٨) تهافت التهافت ، ج ١ ، ص ٢٨٥ .
(٧٩) تهافت التهافت ، ج ١ ، ص ٢٩٧ .

وان مثل هـــذه الاشارات التي تنم من اسلوب انفعالـــي كثيرة جـــدا . وهو في اسلوبه هذا قد يَعْنُف الى حـــدّ السباب،ويهزأ الى حـــد السخرية اللاذعة . ففي مناقشته لبعض آراء ابـــي حامد يقول : « فهو صادق في ذلـــك ، اذ لم يبلغ الرجـــل المرتبة من العلـــم المحيطة بهذه المسألة . وهذا هـــو الظاهر من حاله فيما بعد .. » (٨٠) .

وقد وقع ابـــو حامد الغزالي في تيّار السباب والعنف ايضـــا ؛ ولنستمع الى الغزالي وقد جاوز حـــدّ الانفعال الى السباب تقريبا اذ يقول :

« قال ابـــو حامد رادًّا على الفلاسفـــة :

« قلنا : مـــا ذكرتموه تحكُّمات ، وهي علـــى التحقيق ظلمات فوق ظلمات ، لـــو حكاه الانسان عن منام رآه ، لاستدلَّ بـــــه على سوء مزاجـــه ، او اورد جنســـه في الفقهيات ، التي قصارى الطلب فيهـــا تخمينات ، لقيل : إنهـــا ترَّهات ، لا تفيـــد غلبة الظنون » .

فهي على حـــدّ تعبير ابي حامد ، تحكّمـــات ... وظلمـــات ... وترّهات ... الـــخ . وعندما يناقشه ابن رشد ، يقابله انفعالا بانفعال ، وانتقامـــا بانتقـــام .

يقول ابن رشـــد في الرد على الغزالي،بعد ان اورد مـــا حكاه سابقا : « قلـــت : « لا يبعد ان يعرض مثل هـــذا للجهال مع العلماء ، والجمهور مـــع الخواصّ ، كما يعرف ذلك لهـــم في المصنوعات ؛ فان الصُّنّاع ، اذا اوردوا صفـــات كثيرة من مصنوعاتهم على العوام،وتضمنوا الافعال العجيبة منهـــا ، هزىء بهم الجمهور ، وظنوا انهـــم مبرسمون ، وهـــم في الحقيقة الذين ينزلون منزلة المبرسمين مـــن العقلاء ، والجهال من العلماء . وامثال هـــذه الاقاويل لا ينبغي ان نتلقى بها آراء العلمـــاء واهـــل النظـــر » (٨١) .

---

(٨٠) تهافت التهافت ، ج ١ ، ص ٢٠٩ .

(٨١) تهافت التهافت ، ج ١ ، ص ٣٢٠ — ٣٢١ .

وهكذا فنحن نستطيع ان نصنّف كتب ابن رشد هذه خارج دائرة الخاصة ، وانها موجهة الى العامة من القراء،وهي بذلك تخرج من ميدان البحث الفلسفي الرصين ، الى ميدان المساجلات الادبية واساليبها ... لقد كتب ابن رشد مؤلفاته هذه وقد وجهها الى العامة ، وفق مفهومه ، يريد اصلاح ما افسدته اقوال السابقين . فهو يحاول اصلاح ما افسده سابقوه بالتصريح بآراء مُفسِدة ، وتأويل ضالة ، تلقفها غير اهلها ، فعمَّ بذلك ضررها ... (٨١) .

وفي هذه المساجلة الفكرية ، يقول العقاد : « فلم يحفظ لنا تاريخ الفكر مساجلة بين حكيمين في قوة المساجلة التي دارت بين ابن رشد والغزالي ، ومضاء سلاحهما،ونفاذ حججها وبراهينهما ... » (٨٢) .

ولم يكن ابن رشد في شروحه المشهورة وفي تصانيفه ، العلمية منها والفقهية والادبية ، سوى مفكّر عظيم يُوَجِّهُ جميع طاقاته وجهة انسانية رفيعة ، هَدَفُهَا الاسمى تنمية الفضائل لدى افراد الامة ، وخلقُ مجتمع اسلامي قويم .

ونحن نلمس هذه النزعة الواقعية في مختلف مصنفاته،الى جانب تلك النزعة الانسانية السامية .

ونحن،اذا استثنينا بعض الاشارات المقتضبة الى قضايا اخلاقية وسياسية ، نلمحها في بعض مؤلفاته ، كتهافت التهافت ، والكشف عن مناهج الادلة،وسواها ؛ فقد اقتصر ابن رشد في تآليفه في الاخلاق والسياسة ، على شرح الاخلاق الى نيقوماخس ، وجوامع سياسة افلاطون ... (٨٤) . وقد فَصَّل ابن رشد في شروحه هذه ما فعله في شرح الخطابة والشعر . فهو لا يكتفي بشرح الجمهورية ، بل يعمد الى تطبيق بعض مبادئها على الاوضاع السياسية والاجتماعية السائدة في البلاد الاسلامية آنذاك ، وخاصة الاندلس والمغرب .

---

(٨٢) انظر : بين الدين والفلسفة ، ص ١٠١ .
(٨٣) العقاد ، ص ٥٥ .
(٨٤) انظر : فخري ، ص ١١٨ .

صلاح المجتمع وسعادته ، هو الهدف الأسمى ، الذي كان يرمي اليه ابن رشد في جميع مصنفاته ، العلمية منها والفلسفية واللغوية ؛ فقد ختم كتابه المشهور في ميدان الفقه « بداية المجتهد ونهاية المقتصد » ، بقوله :

« وينبغي قبل هذا ان يُعْلَم ان السنن المشروعة العملية المقصود منها هو الفضائل النفسانية ، فمنها ما يرجع الى تعظيم من يجب تعظيمه ، وشكر من يجب شكره.و فيهذا الجنس تدخل العبادات ... ومنها ما يرجع الى الفضيلة التي نسميها « عفّة » ... ومنها ما يرجع الى طلب العدل والكفّ عن الجور ... ومنها السنن الواردة في الأعراض ، ومنها السنن الواردة في جمع الأموال وتقويمها ، وهي التي يُقصَد بها طلب الفضيلة التي تسمّى السخاء،وتجنُّب الرذيلة التي تسمى البخل ؛ والزكاة تدخل في هذا الباب من وجه، وتدخل في باب الاشتراك في الأموال ؛ وكذلك الأمر في الصدقات .

ومنها سنن واردة في الاجتماع الذي هو شرط في حياة الانسان وحفظ فضائله العلمية والعملية ... ومن السنن المهمّة في حيّز الاجتماع السنن الواردة في المحبّة والبغضة والتعاون على اقامة هذه السنن ؛ وهو الذي يسمّى النهي عن المنكر والأمر بالمعروف ... الخ .. » (٨٥) .

فمن الواضح ان ابن رشد يرى أن الدين يرمي بشعائره واوامره الى غايات انسانية واجتماعية رفيعة ، هَدَفُها صلاح المجتمع وسعادته . وكان لابن رشد ، من خلال ادبه،موقف واضح من اهم القضايا الاجتماعية والسياسية ؛ فقد كان له رأي واضح في السياسة، والاجتماع،والتربية،والمرأة،وحرية الانسان : ففي مجال السياسة ، فان نظريته كانت مبنية على فلسفة افلاطون ، وقد بسطها في شرحه « جمهورية » هذا الفيلسوف وجوهر تعاليمها ، انه يجب القاء

---

(٨٥) انظر : بداية المجتهد ، ج ٢ ، ص ٤٦٤ .

زمام الاحكام الـى الشيوخ والفلاسفة ليديروها بقبسط وعدل . ويجب حث الناس على الفضائل بتعليمهم البيان والعلوم التـي تثقف العقل (٨٦) .

ويتناول ابـو الوليد ثلاث قضايا هي بمثابـة المدخل الى علـم السياســة ، وهــي :

اولا ـــ مـا هي الشروط التي ينبغي ان تتوافر لكـي توجد هذه الفضائل المشار اليهـا . . . اذ ليس الغرض من هـذا العلم معرفة ماهية هذه الفضائل ، كمـا يقول ارسطو ، بـل العمل بها .

ثانيا ـــ كيف يمكنُ غرسُ هـذه الفضائل في نفوس الاحـداث ، بحيث تنمو تدريجيًّا ، وكيف تصان بعـد ان تبلغ مرتبة الكمال ؟ وكيف يمكن استئصالُ الشر مـن نفوس الاشرار .

ثالثا ـــ ما هي الصفات والفضائل التـي تشتدُّ اذا اقترنت بفضيلة ما ، وتضعف اذا اقترنت بفضيلة اخـرى ؟ اي كيف تؤثر هـذه الفضائل احداها في الاخـرى (٨٧) .

وكـان ابن رشـد يكـره الاستبداد العسكـري والاقطاعات العسكريـة ، ويـرى استغناء الدولة عـن القضاة والاطبـاء ، دليلا على انتظـام شؤونها . ويقوم مَثَل الدولة الاعلى على عـدم الاحتياج الى قـاض ، ولا الى طبيب ؛ وليس علـى الجيش واجب غير السهر على حرس الامـة . وما يحدث لو اكلت كلاب الراعي غنمـه ؟ وتُعَدُّ إقطاعات الجيش آفـة الدول (٨٨) .

وقد راى ابـن رشد أن الحاكم الظالم هـو ذلك الذي يحكم الشعب من اجل نفسه لا من اجـل الشعب . وأنَّ شرَّ الظلم ظلم الكهنة ؛ وان أحوال العـرب في عهد الخلفاء الراشديـن كانت على غاية من الصلاح ، « فكأنما وصف أفلاطون حكومتهم ، لمـا وصف في « جمهوريته » الحكومة الجمهورية الصحيحة التي يجب أن تكون مثالا لجميع الحكومات » .

---

(٨٦) انظر : رينـان ، ص ١٧٠ ، فـرح ، ص ٥٦ .
(٨٧) انظر : فخـري ، ص ١٢٢ .
(٨٨) رينـان ، ص ١٧٠ ، وهذا النص اورده عـن طبيعيات ص ٣١ ـــ

PROHERM

ولكـــنَّ معاوية هدم ذلك البناء الجليل القديم ، واقـــام مكانه دولة بني اميـــة وسلطانها الشديد ، ففتح بذلك بابا للفتن مـــا تزال الى الآن قائمة قاعدة حتـــى في بلادنا هذه (اي الأندلس) . » (٨٩) . امـــا موقفه من المـــراة فهو يساوي بين المـــراة والرجل من حيث الطبيعة فيقول : وتختلف النســـاء عن الرجال درجة لا طبيعة ، وهـــنَّ اهل لكل ما يفعل الرجال من حـــرب وفلسفة . الـــخ . . . ، ولكن على درجة دون درجتهم . وهـــنَّ يَفُقْنَهم احيانا، كما في الموسيقـــى ، وذلك مع كون كمال هـــذه الصناعة يقوم علـــى التلحين مِن قِبَل رجـــل والغناء مِن قِبَل امراة . ويدلُّ مثال بعض الـــدول الافريقية على استعدادهن الكبـــير للحرب ؛ ولا يُعَدُّ من الخوارق امكـــان انتهائهن الى الحكومة الجمهوريـــة . اولا يرى ، كما هـــو الواقع ، ان اناث الكلاب تحرسْ القطيـــع كما تحرس ذكورها ؟ والى هـــذا اضاف ابن رشد قولـــه :

« لا تَدَعُنا حالتنـــا الاجتماعية نبصر كل مـــا يوجد من امكانيات في المـــراة ؛ ويظهر انهن لم يخلقن لغـــير الولادة وارضـاع الأولاد" .

وقـــد قضت هذه الحال من العبودية فيهن علـــى قدرة القيام بجلائل الأعمال.ولـــذا فاننا لا نرى بيننا امـــراة مزيَّنة بفضائل خلقية . وتمرُّ حياتهن كما تمـــرُّ حياة النباتات ، وهـــن في كفالة ازواجهن انفسهم . ومن هنا ، ايضا ، اتـــى البؤس الذي يلتهم مدننـــا ؛ وذلك لأن عدد النســـاء فيها ضعف عـــدد الرجال ، ولا يستطعن كسب الحاجـــيّ بعملهـــن . » (٩٠) .

وتَطَرَّق ابن رشـــد الى حرية الانسان ، ووصل هـــذا المفهوم الانساني الرفيع بمـــا ورد عنه في آي القـــرآن الكريم . فالانسان غير مطلق الحريـــة تماما ولا مقيَّدُها تماما . وذلك انـــه اذا نُظِر اليه

---

(٨٩) انظر : رينـــان ، ص ١٧١ .

(٩٠) رينـــان ، ص ١٧٠ — ١٧١ وقد نقـــل النصوص عـــن « طبيعيـــات » ص ٣١ (PRIHERM) ، ص ٤٨ .

من جهة نفســه وباطنه ، فهو حُــرٌّ مطلق لان نفسه مطلقة الحرية في جسمه . ولكن اذا نُظِر اليــه من جهة حوادث الحيــاة الخارجية ، كان مقيَّدا بها ، لمــا لها من التاثير على اعماله . « وهو يقــول :"ان هذا هو السر في ان القــرآن يجعل الانسان تــارة مختارا وتارة مقيَّدا . » (٩١) .

ويسير ابن رشــد على منوال افلاطون في قضايــا التربية ، فيحذِّر في مجال تربيــة الصغار من التمثيل بالحكايات الكاذبــة « اي الاساطير » التي ترسخ في اذهانهــم فتُفسِد سريرتهم (٩٢) . وهو علــى مذهب افلاطون بالتربيــة الجماعية ، وحاجة الفــرد لاقرانه . فقد تبيَّن ان اكتساب المــرء لاي من هذه الفضائل دون معونــة الاقران مستحيل ، إذ . ان الانســـان يحتاج الى من عداه ، في اكتســاب الفضيلة ؛ فهــو كائن مدنــي بالطبــع (٩٣) .

وفي حديثه عــن الخصال المكتسبة التي ينبغــي على الحاكم او الرئيس ان يتصف بهــا ، يرسم ابن رشد منهاجا تربويــا واضحا ، فيما يتعلق بالرئيس ، مــن الطفولة الاولى حتى يبلغ ســن الخمسين ، لانه، على حُــدّ تعبيره،يجب تفويض الحكومة الــى الشيوخ .

فبعد ان يتحدث عــن الطفولة الاولى للحاكم او الرئيس ، يقــول : ومنها ، اي مــن الخصال المكتسبة ، الاقبال علــى العلوم النظرية والتوفُّر على دراستها . وتبدأ هذه الدراســة بعلــم الحساب ، فالهندسة ، فعلــم النجوم ، فالموسيقى ؛ وهي علـــوم لا تُطْلَب من اجــل الكمال الانساني ، شيمــة الطبيعيات والالهيات ، بــل من اجل إعداد الفكر للاقبال على هذيــن العلمين ... وحين يبلغ الحكّام ســنّ السادسة عشرة او السابعــة عشرة ينبغي ان يُقبلوا على تعلــم الفروسية حتى ســن العشرين ، وعندها يأخذون بتعلــم الفلسفة حتى ســنّ الثلاثين . فاذا بلغوا الخامســـة والثلاثين دُفِعت لهم رئاسة الجيش ، طــوال

(٩١) انظر : شــرح ، ص ٥٨ .
(٩٢) انظر : فخــري ، ص ١٢٤ .
(٩٣) فخــري ، ص ١٢٠ .

خمس عشرة سنــة ؛ فاذا بلغوا سن الخمســين ، باتوا قادرين على الاضطلاع بمهــام الرئاسة وادارة شؤون الدولــة ...

امــا التربيةُ الاخلاقيةُ لجميع المواطنــين ، فهي تقوم،في نظر ابن رشــد ، على تلقينهم الفضيلة بتعليمهــم الخطابة والشعر والجدل . ولا شكَّ ان فيلسوفنــا يقصد الانتقاء في مجــال الخطابة والشعــر والجدل ، فهــي وسائل من اجــل تربية الفضيلــة في نفوس جميع المواطنين . ومن هنــا نستطيع ان نفهم قولــه عندما يُعقّب على ذلك قائلا : « والشعر مفســد ، ولا سيما شعر العرب » (٩٤) . فــان ابن رشــد لا ينال من قيمة الشعر الفنية ، ولــم يهدف أن ينتقص من شعر العرب من حيث هــو ، ولكنه يرى ان يختار المربــي من هذه الاشعار ما يكفل بتلقين الفضيلــة ، وتربيتها في نفــوس المواطنين .

العلاقة بــين الشكل والمحتــوى :

يشغل الجدل ، بصورة عامــة،مكانة مهمة من مؤلفات ابــن رشد . وهو على حــد تعبير رينان : « يدخل اليــه من الرشاقة ما هو ممتع . ومهما كان يقع احيانــا ، ان يرتقي بحماسته العلمية ، وكَلَفِــه بالفلسفة الى ذروة من الخلقية ، بليغة الــى الغاية . ويسود الاسهاب شروحــه، ولكن بــلا جفاف . وتتجلى شخصية المؤلف فيمــا يعرف ان يسوقه الى المواضع المهمة مــن استطرادات وتأمــلات ... » (٩٥) .

والحقيقة ان هــذه الاشارات تُكَوِّن اهــم خصائص ابن رشد في اسلوب كتابته . امــا جفاف اسلوبه فلا بــد لنا ان نستذكر حقيقة مهمة ، حيث ان طبعات كتبــه في الحقيقة لا تعرض في نصوصهــا العربية سوى شرح قــائم على ترجمة عربية من ترجمة سريانية مــن اصل يوناني . اما في نصوصها باللغــات الاجنبية فهي تقوم على ترجمة لاتينية مــن ترجمة عبرية . هذا مــع العلم ان كثيرا من مصنفاته قــد فُقِدَت اصولها العربيــة .

---

(٩٤) انظر : رينــان ، ص ١٧٠ — ١٧١ .

(٩٥) رينــان ، ص ٦٧ .

وان الدارس لادب ابـــن رشـد ومصنّفاته يمكن ان يلمـس ركائز يمكن ان تُمَيِّز نظـــرة ابن رشـد في اسلوبه، من ناحية، وفي فــن التلقي من ناحية اخرى . فهنالـــك طبيعة الجمهور الذي يكتب اليـــه الكاتب ؛ وهذه النظرة رايناهـــا واضحة تماما في ابحاثنا السـابقة ؛ فهـــو ينادي بأن على الكاتب ان يكون علـــى بصيرة من نوعيـــة الجمهور الذي يكتب اليـــه ، وبالتالي بنوعية الأفكـــار وطبيعة الابحاث التي يقدمها الـــى قراءة ، والا وقع في خطيئة كبـــيرة، وأدّى جهده الى الافســـاد . « فليس كل صنف من اصناف النـــاس ينبغي أن يُسْتَعْمَل معهـــم البرهان ، في الاشياء النظرية التي يراد منهـــم اعتقادها . وذلك إمّـــا لأن الانسان قد نشأ على مشهورات تخالف الحـــقّ ، فاذا سلك بـــه نحو الاشياء التي نشأ عليها ، سَهُل اقناعـــه ، وإمّا لأن نظرته ليست مُعَدَّة لقبـــول البرهان أصلا ، وإمّـــا لأنه لا يمكن بيانه لـــه في ذلك الزمان اليسير الذي يراد منـــه وقوع التصديق فيـــه ... » (٩٦) .

فهو في ذلك يقـــول بوجود علاقة وثيقة بـــين طبيعة الجمهور وحقائق المعرفة التـــي يمكن ان تُعْرَض عليهم . هـــذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، يجعـــل للانفعالات النفسيـــة دورا مهمًّا نحو استمالة الحكام والناظرين ، حيـــث يقول : ... الاشياء المبينـــة في وقوع التصديق ، مثـــل التكلم في الخوف والرحمـــة والغضب، وما أشبه ذلك من الانفعالات النفسانية التـــي ليست مُعَدَّة نحو الامـــر المقصود تبيينه أولا وبالذات ، وانمـــا هي مُعَدَّة نحو استمالة الحكـــام والناظرين ، ولذلك كانت كانهـــا مُوَطِّئة للتصديق لا فاعلة لـــه ... (٦٧) .

ويجعل ابن رشـــد للالفاظ مكانتها في زيـــادة التصديق ؛ وإن هذه المكانة تختلـــف باختلاف طبيعة المعارف ، وذلك على حـــد تعبير ابن رشد، لأن للالفاظ في ذلـــك معونة في زيادة التصديق الحاصـــل عن

---

(٩٦) تلخيص الخطابـــة ، ص ١١ .

(٩٧) تلخيص الخطابـــة ، ص ٥ .

البرهان وقوته ، كالحال في الصنائع الاخرى ، فانها يلفى لها معونة في ايقاع التصديق المستعمل فيها وان كانت في ذلك تختلف .

فأقلّها حاجةً في ذلك صناعة الجدل ، ثم من بعدها صناعة السفسطة ، ثم من بعدها الخطابة ، ثم من بعدها صناعة الشعر . فهاتان الصناعتان اكثر حاجةً الى ذلك ...

وانما صارت الالفاظ والأصوات تفعل في هاتين الصناعتين هذا الفعل من اجل انها تخيل في المعنى رفعة او خسة ، وبالجملة امرا زائدا على مفهوم اللفظ ، مثل غرابة اللفظ ، فانها تخيل غرابة المعنى ، ولذلك فخامته تخيل فخامة المعنى . والنغم كذلك يفيد فيه هذا المعنى ... وليس يُقصد ذلك احد عندما يتكلم على طريق الهندسة ولا على طريق العدد (٩٨) .

فقد ادرك ابن رشد العلاقة الوثيقة بين الشكل والمحتوى ، وقد اقترب في مفهوم ذلك الى المدى الذي لا يرى منه الشكل منفصلا عن المحتوى ، بل ان الصورة مرتبطة ارتباطا عفويا مع المادة . فابن رشد يرى مع ارسطو ان الكون هو تغير في الجوهر ، وانه لا يتكوّن شيء من لا شيء ، بل من موضوع . وهذا على حدّ تعبير ابن رشد في تفسير ما بعد الطبيعة حيث يقول : «... المذهب الذي اخذناه عن ارسطو ، وهو ان الفاعل انما يفعل المركب من المادة والصورة ، وذلك بان يحرك المادة ويغيرها حتى يخرج ما فيها من القوة الى الفعل ... » .

ان هذه النظرة الفلسفية للعلاقة بين المادة والصورة قد انعكست تماما في موقف ابن رشد من الأدب بصورة عامة ، حيث يرى المادة متصلة اتصالا عفويا بالشكل،وليست منفصلة عنه . وهي النظرة التي يأخذ بها النقد الادبي في مناهجه الحديثة .

---

(٩٨) تلخيص الخطابة ، ص ٢٥٣ .

وربما كانت هــذه النظرة الى العلاقة بــين الشكل والمحتوى ، بين المــادة والصورة ، وتطبيقها علــى الادب ، وفق مفهومه العقلاني لــه ، اهمّ قضيّتين يمكن ان يطرحهما الدارس لأدب ابــن رشد . اما القضية الاخرى ، فقـد أشرنا اليها فيما سبق ، وهــي ارتباط الأدب بالحقيقــة والمعرفة ، في نظــر ابن رشد ...

ابن رشد في مجــال اللغة والبلاغة والنحــو :

كان للُغة اثــر كبير في تحديد فكر ابن رشــد ، ومواضيع نظرياته ارسطو وفلسفته الى واقــع الحضارة العربية الاسلامية بمفاهيمها وعقيدتها ، بــل الى لغتها وادبهــا .

فقد اعتذر ابن رشــد عن ذكر الأمثلة اليونانية لأنه رآهــا مجهولة تماما لدى القارىء العربــي الذي يتوجَّه اليه ، ولا تتــلاءم ايضا مع الجــوّ الاسلامي الذي يكتب لــه ويعيش فيه ؛ على انــه استبدل بهذه الأمثلة اليونانية نظائرهــا في الاسلام ، فاستشهد بشواهد من الفقه والتاريخ الاسلامي واللغــة العربية ... حيث اراد ان يطبّــق القواعد والنماذج التي يذكرها ارسطو على اللغة والأدب والخطب العربية . . (٩٩).

وكان ابن رشــد يقول منذ البداية ، بأن الشريعــة الاسلامية تحضّ من خلال الآيــات القرآنية والحديث على النظــر الفلسفي ، وهــي توجب استعمال البرهــان المنطقي ، على حــــد تعبيره ، لمعرفة اللــه تعالى وموجوداته . ويستشهد على ذلــك بآيات من القرآن الكريم ، فيورد مثلا الآية الكريمة : « فاعتبروا يــا أولي الأبصار » (١٠٠) . ويبيّن ان الاعتبار هنــا ليس الا استنباط المجهــول من المعلوم ، وهو القياس الفلسفي او المنطقــي المعروف (١٠١) .

وبنــاء على هذا الاتجاه ، فقــد استخدم ابن رشد امثلة عربية واسلامية كثيرة في كتــاب « تلخيص الخطابة » وفي كتــاب « الشعر »

---

(٩٩) انظر : مقدمــة تلخيص الخطابــة ، ص ي .

(١٠٠) ســورة الحشر ٢/٥٩ .

(١٠١) انظر : بين الديــن والفلسفة ، ص ٩١ .

ايضا . وبالرغم من انهـا شروح لكتب ارسطو ، غير ان ابـن رشد في التلخيص او التحليل يتكلّم باسمه الخاص دائما ، فيعرض مذهـب الفيلسوف مضيفا ، حاذفـا ، باحثا في الرسائل الأخرى ما تكمل بـه الفكرة، متّخِذًا ترتيبـا ومنهاجا من اختياره ؛ وهكذا على حـدّ تعبير الفيلسوف الفرنسي « رينـان » : « فان التخليصات رسـائل حقيقية كرسائل ارسطو » (١٠٢) . ففـي حديثه مثلا عن الأمور المستعملة مـع الالفاظ على جهـة المعونة في جودة التقسيم وايقاع التصديـق وبلوغ الغرض المقصود ، وهي على حـدّ تعبير ابن رشـد نفسه ، التي جرت عادة القدماء ان يُسمُّوها الاخـذ بالوجوه . فيقول : « وذلـك ان هذه الأشياء ، لـما كان من شأنها ان تميل السامعين الـى الاصغاء والاستماع والاقبال على المتكلم بالوجـه ، وتفريغ النفس لـما يورده ، أُستُعير لها هذا الاسم . وهذه الاشياء صنفان : إمّا اشكال ، وإمّا اصوات ونغم ...

والاشكال، بالجملة ، يقصد بها احـد امرين : إمّا تفهيم المعنـى وتخييله الموقع التصديـق ، كما روي عن النبي ، صلى اللـه عليه وسلم ، انـه قال في آخر خطبة : « بُعِثتُ انـا والساعة كهاتين » واشـار باصبعيـه يقرنهمـا ... (١٠٣) .

وتراه يخرج في شروح الـى دراسات مقارنـة ، فيتحدث عن موقع بعض النظرات البلاغيـة في اشعار الأمم ، ويقارنها بما هـو في لغـة العرب وآدابها . فنرى ابن رشـد يتحدث في موضع آخر مـن « تلخيص الخطابة » فيقـول : « وفيها ايضا انهـا تُسْتَعمَل بضرب من الوزن في الكلام الخطبـي ... وهذا الضرب من النغـم ضروري في اوزان اشعار من سلـف من الأمم ما عدا العرب ؛ فـان من سلف من الأمم كانوا يزنون ابياتهـم بالنغم والوقفات ، والعـرب تزنها بالوقفات فقط . ومنها ايضـا ان تُسْتَعْمَل اشعارا في افتتاح القـول وختمه ومواضع الوقـف ... » (١٠٤) .

---

(١٠٢) رينـان ، ص ٧٤ .

(١٠٣) انظر : تلخيص الخطابـة ، ص ٢٥٠ .

(١٠٤) تلخيص الخطابـة ، ص ٢٥١ .

وقد نَظَر الــى البلاغة بهذه النظرة المبدعــة ، حيث استطاع ان يتمثَّل نظريات ارسطــو من خلال نثر اللغة العربيــة وشعرها ... ويستخدم،بطبيعة الحــال ، الاصطلاحات البلاغية التي سبقــه اليها البلاغيون الأعلام قبلــه، اذ يقول مثلا : « والاستعارة التــي تكون من هذا النوع كثيرة موجودة فــي اشعار العرب وخطبهــا ، والأقاويل التي يخصّها اهــل لساننا من الناظرين في الشعــر والبلاغة بالاستعارة هي داخلة في هـــذا الجنس ، ولذلك يقولون : إن المجــاز استعارة وتشبيـــــه » (١٠٥) .

وكان لابن رشـــد مجال واسع في التعريب ، وكيفيــة استخدام الالفاظ للدلالة على معــان مستجدَّة ؛ وكذلك توليــد الكلمات عن طريق الاشتقاق وغيره . فقــد ذُكِرَتْ لنا المصادر المختلفة بــين قائمة تضم كلاما لــه على الكلمة والاســم المشتق (١٠٦) .

ففــي حديثه عن تأثير الالفاظ والأصوات فــي الاقاويل يقول : « والذين وقعــوا اولا على تأثير هذه الاحوال مــن الالفاظ والاصوات في الأقاويل هــم الشعراء ، وذلك ان هــذا المعنى اظهر ما يكون في الأقاويل الشعرية ، مــع ان الوقوف على الأقاويل الشعرية هــو متقدم بالزمان على الأقاويــل البلاغية ... » (١٠٧) .

ويُعَمِّق نظرته فــي استعمال الالفاظ في لغــات مختلفة ، فيقول : « واما اللغات فهــي صنفان،احدهما ... مثــل ان يستعمل الحجازي لغــة حِمْيَريّة ؛ والصنف الثاني ان يستعمل في مخاطبة امــة ما ، لفظا ليس من الفاظ اهــل لسانهم ، وانما هو من لسان امــة أخرى ، مثل ما يوجد في لســان العرب الفاظ كثيرة من الفــاظ الفرس والأمم المجاورة لهــا . وهذا يُستَعمل على وجهين : احدهما ان يأتــي بذلك اللفظ بعينه من غير ان يغيِّرّ بنيتــه وتركيبه : والوجه الثاني ان يُغــيِّره تغييرًا يقرب

---

(١٠٥) تلخيص الخطابــة ، ص ٢٩٤ .
(١٠٦) انظر : القائمة التي اوردها رينان ، ص ٤٥٦ — ٤٥٧ . وفي مخطوط الاسكوريال .
(١٠٧) تلخيص الخطابــة ، ص ٢٥٣ — ٢٥٤ .

من الابنيــة المستعملة في لسانهم ليسهل بذلــك عليهم النطق بـــه،مثل : السِّجّيل وغير ذاك مما هـــو موجود في كتب اللغـــة (١٠٨) .

فابن رشد يقف هنـــا موقفاً واضحاً ومتميزا ، تجـاه تضية التعريب ، سواء اكــان ذلك باحياء الفاظ ميتة ، مثــل استعمال الحجازي الفاظا حميرية ، ام استعمـــال اللفظة الاجنبية ، كما هي ، وادخالهـــا الى العربية من ناحيـــة،او ادخالها بعد اضفاء رونـــق العربية عليهـــا ... وقد اورد لفظـــة « السجّيل » وهي لفظة قـــرآنية ... وهنالك ايضا الفاظ موضوعة ، يحدّدها ابـــن رشد من خلال شرحه فيقـــول : « وهي الألفاظ المخترَعَة في لســـان جنس ما ، يُخترِعها اهل ذلك اللســـان ، على نحو التركيب الـــذي لحروفهم » (١٠٩) . ويبحث « تلخيص الخطابـــة » اللفظة من حيثُ اصـــوات الحروف وتناسقها او عدمــــه . وهنا ايضا ، تمتزج آراء ارسطـــو بآراء شارحه ابن رشـــد ، الى الحد الذي تَرى فيه شخصية الشـــارح واضحة بارزة ، وذلك من خـــلال تقصّياته وإيراده الامثلة في نطـــاق العربية وحروفها واصواتهـــا،اذ يقول :

« وامـــا المُفلّطة فهي الالفاظ التي يعسر النطق بهـــا ، وذلك يعرض لأسباب : منها أن تكون تلـــك الحروف حروفا يُعْسُر النطق بهـــا ، وإن كانت قايلة ؛ ومنها أن يكـــون سبب العسر فيهـــا كثرة الحروف التي رُكّبت منها ، والتـــي يعسر النطق بها ، إمّـــا ان يكون من اجل مخرج الحرف نفسه وان ينطق بـــه وحده ، مثل كثير من حروف الحلـــق ، وإمّا ان يكون العسر يحدث لـــه عند تركيبه مع غيره ؛ وذلك إمّـــا لتقارب مخارجها ، وهذا هـــو سبب الادغام في لســـان العرب ، وإما لتكرارها ، مثل قولهـــم : « قصصت اظفاري » . ولذلك بعض العـــرب يبدلون احدى الصادين « يـــاء » في مثل هذا . وربما كـــان السبب في ذلك تضادّ المخارج . ولذلك قَـــلَّ في لسان العرب اســـم يوجد على وزن

---

(١٠٨) تلخيص الخطابـــة ، ص ٢٥٧ .

(١٠٩) تلخيص الخطابـــة ، ص ٢٥٦ .

« فِعلى » الا مـــا حكوا من « الدِفلى » . واكثر الانقلابـات والتغيّرات التي يشنعها النحاة هـــذا هو سببها (١١٠) .

وهنـــا نستبين خصائص نظرة ابن رشـــد في النحو ، وقد كانت لـــه مساهمة فيه . ولا عجب من ذلك ، فالنحو عنـــد اهل الاندلس « على حـــد تعبير المقّري « في نهاية من علـــوّ الطبقة ، حتى انهم في هذا العصر فيـــه كأصحاب عصر الخليـــل وسيبويه ، لا يزداد مـــع مرور الزمان الا جِدَّة ؛ وهـــم كثيرو البحث فيه ، وحِفْظ مذاهبـــه كمذاهب الفقه . وكلُّ عالِم في ايّ علـــم لا يكون متمكنا من علـــم النحو ، بحيث لا تخفى عليـــه الدقائق، فليس عندهم بمستحقّ للتميُّز ، ولا سالـــم من الازدراء ... » (١١١) .

ولـــم يخرج ابن رشـد عن هـــذه القاعدة ، فقد اسهم في هذا المجال بكتاب سمـــاه « الضروريّ في النحو » (١١٢) . وان هذه التسمية لـ تذكّرنا بكتاب ابي بكـــر الزبيدي القرطبي الذي وضعه قبـــل ذلك بحوالي قرنين من الزمـــن واطلق عليه « الواضـــح » .

ذكرت اكثر المصـــادر التي اوردت مصنَّفات ابن رشـــد ، كتابه هذا في النحـــو ، ولكن مع الاسف لم يصل الينـــا ، ولا نعرف عنه شيئا ؛ فربما ما زال تائها فـــي بعض الاقبية او زوايا المكتبات ، وربما فُقِـــدَ الى الابد كمـــا فُقِدَت مصنَّفات كثيرة من هـــذا التراث الضخم ، نتيجةَ النكبات والحروب ومـــا حلَّ بالاندلس مـــن استئصال لجذور حضارة عربية اسلامية اصيلـــة . وإنَّ التسمية بحـــدّ ذاتها « الضروري في النحو » توحي لنـــا باتجاهه العملي ، في استخـــدام ما هو ضروري من قواعد النحـــو ؛ وهذا الاتجاه ينسجم تماما مع طبيعة فلسفـــة ابن رشد العقلانية والواقعيـــة ... وهو في ذلك استمرار لهـــذه المدرسة

---

(١١٠) تلخيص الخطابـــة ، ص ٢٥٨ .

(١١١) انظر : النفـــح ، ج ١ ، ص ٢٠٦ .

(١١٢) انظر : قائمة كتـــب ابن رشـد التي اوردهـــا رينان ، ص ٤٥٦ ـــ ٤٥٧ ، وفق مخطـــوط اسكوريـــال .

القرطبية ، التي اتّجهت اتّجاها عمليا مناهضة لتعقيدات النحــاة ، وانشغالهم بجزئيات لا فائدة منهـا .

وجملة القول،فقـد كانت لابن رشد جهود طيّبة فـي مجال البلاغة والنقد ، وفي مجال النحـو والاشتقاق،والترجمة والتعريـب والشرح ؛ وان هـذه المجالات لتستحقّ الدراسـة المتعمقة في مصنفات هـذا الفيلسوف الاسـلامي،الذي كان على حد تعبير ابن الابـار : « كان يُفْزَع الى فتواه في الطـب كما يُفْزَع الى فتواه في الفقـه،مع الحظ الوافر مـن الاعراب والآداب » ...

خاتمــة

ربمـا كان ابن رشد من المفكّريـن القلائل في الدنيا ، الذيـن اهملتهم امّتُهـم وغُنيت بهم امم اخرى ؛ لقـد تجاوزت مصنفات ابن رشد حدود الزمـان والمكان ، وكانت ركيزة اسـاسية في النهضة الأوروبية فيما بعـد .

عرفت اوروبـا القرون الوسطى ابن رشد باسم (Averroes) وطارت شهرته لديهـا بالطبّ،من ناحية،وبالفلسفة مـن ناحية اخرى . وربما كان مـن الطبيعي ان لا يُعْنَى الفرنـج بالجوانب الاخرى في فكر ابن رشد ، في مجال الفقـه واللغة والأدب . وقد بقيت جميع هـذه الجوانب ، مـع الأسف،في زوايا الاهمال والنسيان ... ولا شـكّ ان العصور المظلمـة التي توالت على الأمـة العربية والاسلامية ، كانت تقف وراء هـذا الاهمال .

لـم يكن ابن رشد فيلسوفا وطبيبـا فحسب ، بل كان فقيها مجتهدا ، كما ينـمّ عليه كتابه « بداية المجتهد » ؛ كما كـان اديبا كاتبا، يعالج اهـم القضايا السياسية والاجتماعيـة والاخلاقية التي تَمَسّ كيان امتـه . وقد سار على درب صديقـه « ابن طُفيل » وكثير من الفلاسفة المسلمين الذيـن سبقوه ، في محاولة التوفيـق بين الحكمة والشريعة ، وبين مـا يصل اليه من طريق الوحي والرسـل ...

ولـــذا فنحن نستطيع ان نعتبر بحـــقٍّ ما كتبه في « تهافت التهافت » وفي كتابه « فصل المقـــال » ... وكذلك في « كشف مناهج الأدلّـــة ... » وغيرها ، من الأدب العقلاني الرفيـــع الذي يحاول الكاتب فيـــه معالجة قضايا انسانيـــة واجتماعية واخلاقية وسياسيـــة ، يهدف من ورائها اصلاح ما فســـد في بنيان هذه الأمـــة .

ولم يقف ابن رشـــد عند هذه الحدود من الأدب ، بـــل تَعدَّاها الى قول الشعر ، والإسهـــام في البحوث اللغوية والبلاغية،ولا سيمـــا في مجال النحو والتعريـــب والاشتقاق والنقد ... الـــخ ... وإنَّ شروحه لمصنَّفات ارسطـــو لم تكنِ لتقعد بـــه عند حد النقل ، بل كانت تتعداه الى حـــد الابداع في فهم فكر « المعلم الاول » وتَمثُّلـــه ، وتطبيقه على بيئته العربية الاســـلامية،ولا ادل على ذلـــك من تعقيبه في خاتمة كتـــابه « تلخيص الخطابـــة » بقولـــه : « وهنا انقضت معاني هـــذه المقالة الثالثـــة ، وقد لخَّصنا منها مـــا تادى الينا فهمه،وغلب على ظنّنا انـــه مقصـــوده ... » (١١٣) .

---

(١١٣) انظر : تلخيص الخطابـــة ، ص ٣٣٢ .

المصادر والمراجع

ابـن الأبـار : ابن الآبار القضاعي البلنسي ، التكملة لكتاب الصلة ، ج ١ ـ ٢ ، القاهرة ، ١٣٧٥ هـ ـ ١٩٥٦ م .

ابن ابي اصيبعة : موفق الدين ابو العباس احمد بن القاسم بن خليفة بن يونس السعدي الخزرجي المعروف بابن ابي اصيبعة ، عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، بيروت ، ١٩٥٦ م .

ابـن الأثـير : عز الدين ابو الحسن علي ابن ابي الكرم محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني المعروف بابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، ج ١ ـ ١٢ ، بيروت ، ١٣٨٦ هـ ـ ١٩٦٦ م .

ابـن بشكـوال : ابـو القاسم خلف بن عبد الملك ، الصلة ، مصر ، ١٩٦٦ م .

ابن تغرى بردى : جمال الدين ابو المحاسن يوسف تغرى بردى الأتابكي ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، ج ١ ـ ١٢ ، القاهرة .

ابـن رشـد : ابـو الوليد محمد بن احمد بن محمد بن أحمد بن رشد القرطبي ، بداية المجتهد ونهاية المقتصد ، ج ١ ـ ٢ ، القاهرة .

= = : ابـو الوليد ابن رشد ، تلخيص الخطابة ، تحقيق عبد الرحمن بدوي ، القاهرة ، ١٩٦٠ م .

= = : ابـو الوليد ابن رشد ، تلخيص السفسطة ، تحقيق محمد سليم سالم ، القاهرة ، ١٩٧٢ م .

ابـــن رشـــد : ابـــو الوليد محمد بن رشـــد ، تهافت التهافت ، ج ١ — ٢ ، تحقيـــق الدكتـــور سليمان دنيا ، القاهـــرة ، ١٩٦٤ م .

ـ ـ : ابـــو الوليد محمد بن احمد بن محمـــد بن رشد القرطبي ، رســائــــل ابن رشد ، حيدر اباد الدكن ، ١٣٦٦ هـ — ١٩٤٧ م .

ابـــن سعيـــد : علي بن موسى ، المغرب في حلى المغرب ، ج ١ — ٢ ، مصـــر ، ١٩٦٤ م .

ابـــن طفيـــل : ابـــن طفيل الأندلسي ، حي بـــن يقظان (لابن سينا وابـــن طفيل والســهروردي) ، تحقيق احمـــد امين ، القاهـــرة ، ١٩٥٩ م .

ابـــن العمـــاد : ابـــو الفلاح عبد الحي بـــن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب في اخبار من ذهب ، ج ١ — ٨ ، مصر ، ١٣٥٠هـ

الأنصـــــــاري : ابو عبد اللـــه محمد الانصاري ، فهرست الرصّاع ، تـــونس ، ١٩٦٧ م .

الذهبـــــــي : الحافظ الذهبي ، العِبَر في خبـــر من غبر ، ج ١ — ٥ ، الكويـــت ، ١٩٦٣ م .

الضبـــــــي : احمـــد بن يحيى بن احمد بن عميرة ، بغيـــة الملتمس في تاريخ رجال اهـــل الأندلس ، القاهرة ، ١٩٦٧ م .

رينـــــــان : ارنست رينـــان ، ابن رشد ، والرشدية ، ترجمة عـــادل زعيتر ، القاهرة ، ١٩٥٧ م .

زيـــــــدان : جرجي زيـــدان ، تاريخ آداب اللغـــة العربية ، ج ١ — ٤ ، القاهـــرة .

الزركلـــــي : خـــير الدين الزركلي ، الاعـــلام ، ج ١ — ١١ .

العقـــــاد : عباس محمود العقاد ، ابن رشـــد ، القاهرة .

الغزالـــي : الامام الغزالــي ، تهافت الفلاسفة ، تحقيق الدكتور سليمان دنيا ، الطبعة الرابعة ، القاهرة ، ١٩٦٦ م .

فـــرح : فـرح انطون ، ابن رشد وفلسفته ، الاسكندرية ، ١٩٠٣ م .

فخـــري : ماجـد فخري ، ابن رشـد فيلسوف قرطبـة ، بـيروت ، ١٩٦٠ م .

المقّـــري : احمـد بن محمد التلمساني ، نفح الطيب مـن غصن الأندلس الرطيـب وذكر وزيرها لسان الدين بـن الخطيب ، ج ١ — ١٠ ، بيروت ، ١٣٦٧ هـ — ١٩٤٩ م

موســـى : محمـد يوسف موسى ، بين الديـن والفلسفة ، القاهـــرة .

النباهـــي : الشيخ أبو الحسن بن عبد اللـه بن الحسن النباهي المالقـي الأندلسي ، كتاب المرقبـة العليا فيمـن يستحـق القضاء والفتيـا ، بيروت .

— BROCKELMAN - Geschichte d. Arab. Literatur Ers. Sup. LEIDEN , 1937 .

— The Encyclopaedia of Islam , LEYDEN , 1927 .

— Encyclopaedia of Religion and Ethics , vol. I-VIII , NEW-YORK , 1962 .

نشأة الثقافة العربية الإسلامية

نظرة إلى العراق

للدكتور عبد العزيز الدوري

ان نشأة الثقافة العربية الاسلامية ظاهرة معقدة تتطلب دراسة بيئاتها والعناصر المكوّنة لها ، والاتجاهات والتطورات الخاصة . وفيما يلي محاولة اولية لرسم الخطوط العامة (١) .

أدّى التوسُّع العربي الاسلامي — الذي رافقه الشعور برسالة — الى فتح ابواب البلاد الخصيبة الى الشمال امام القبائل المندفعة باستمرار من الجزيرة العربية ، وشجّعت الخلافةُ الهجرةَ الى الأمصار واعتبرتها لازمة للانتماء الكلّي للأمة (٢) . واعتبرت العودة الى البادية ، بعد الهجرة ، امرا مكروها (٣) . وهذا ادى الى استقرارٍ متزايد للقبائل في البلاد المفتوحة .

واتجهت سياسة التمصير ابتداء الى وضع المقاتلة في مجموعات متماسكة في المراكز الجديدة ، في دُور هجرة مثل البصرة والكوفة ، وفي قرى أو مناطق قرب المدن القديمة (كما في الأجناد في الشام) ، او في اماكن استراتيجية (كما في انحاء من الجزيرة الفراتية) .

واستمرت القبيلة او العشيرة اساسا في تنظيم السكن والعلاقات الاجتماعية في الأمصار . وكانت القبيلة — عند خروجها من الجزيرة — تتوزع عادة بين اكثر من مركز او منطقة ، ثم نُظِّمت المجموعات القبلية ، لأغراض التعبئة العسكرية، في وحدات كبيرة ، على الاسباع (ثم الارباع) في الكوفة مثلا، وعلى الأخماس في البصرة .

وساعدت الاقامة في بلد واحد ، وظهور مصالح جديدة ، والمصاهرات بين القبائل ، اضافة الى تاثير المفاهيم الاسلامية، على ظهور ولاءات محلية ، واوجدت ظروفا ثقافية جديدة ، وساعدت

على قيام تكتّلات جديدة (٤) . وهـــذا يوضح كيف ان القبائــل الواحدة او القريبة ، والتي تعيش في امصار او اقطار مختلفة ، لم تتّخذ موقفا واحدا في القضايا العامـــة . وكل ذلك ساعد على ظهـــور اتجاه نحو الوحدة بين القبائل فـــي المصر الواحد .

وكان كـــلٌ من الكوفة والبصرة بابا للبادية الـــى السواد ؛ وهذا يوضح إطّراد مـــساء اطّراد الهجرة اليهما . واكّد هـــذه الهجرةَ استمرارُ الصلات بـــين عشائر المصرين وبين اقربائهـــا من القبائل الرحالة في البوادي المجاورة . هذا الى ان جماعات من المقاتلة (خاصة من ربيعة وتميم) استمرّت على العيش في الباديـــة مع استعدادها لتلبية النـــداء للمشاركة في الحملات حين استقـــر الآخرون في الكوفـــة والبصرة (٥) .

ولـــم تُشجَّع الاقامة بين السكان المحليين في البـــدء ، ونُظِر اليها بشيء من الإنكار (٦) . وهكذا فان عزلة المقاتلـــة ، وهي ضرورة عسكرية واجتماعية في البـــدء ، كان لها اثرها في توفير جـــوّ للوحدة والاستمرار الثقافي ، وساعدت علـــى جذب الآخرين الى اطار المجموعـــات العربية ـــ الى الاســـلام والعروبة .

ـ وكانت اللغة العربيـــة اساس الهُويَّة العربية ، فالنـــاس عرب او عجم بلغتهـــم . اما المفاهيم المتّصلة بالنسب والتـــي تنطوي على مفهوم الجذور البشريـــة عند القبائل ، فانها لـــم تَطمس هذا الاساس . فحين قال الحجّاج لأهـــل الكوفة : « لا يؤمنكم الا عربـــي » ، وثب بعضهم بالقارىء يحيى بـــن وثاب ، وهو مولى ، لعزلـــه عن الامامة ، فاعترض الحجاج قائلا : « وَيْحَكم،إنمـــا قلتُ عربي اللســـان » (٧) . وهكـــذا صارت اللغة ، لا الـــدم ، اساس العروبة (٨) .

ولـــما كانت العربية لغـــة القرآن ، فقد ارتبطت بالاسلام ، مما اكسبها حرمـــة وساعد على انتشارها . فكـــان دخول الاسلام يعني تَعلُّـــمَ العربية ، وربّما المشاركـــة في الثقافة العربية . وتكاد « العربية »

أن تكون مرادفة للاســلام في الفترات الاولى (٩) . فلمـا سأل أبو جعفر (المنصور) مولى لهشام بــن عبد الملك عن هويّته ، قــال : « ان كانت العربية لسانـا فقد نطقنا بها ، وان كانت دينـا فقد دخلنا فيه » (١٠) .

— كانت القبائل العربيــة تندفع باستمرار الى الاراضي الخصبة . وقد انتشرت في الجزيــرة الفراتية بين دجلة والفرات قبل الميلاد ، وكان بعضها متبديا والآخــر مستقرا (١١) . فكان مركز قضاعة في الحضر (١٢) ، وكانت ربيعة وتنوخ فــي الجزيرة (١٣) ، والنمر بــن قاسط في عين التمر (١٤) . وانتشرت تغلب من عــين التمر وعانات على الفرات شمـالا حتى جبل بشري،وكانــت من رعاة وفلاحين (١٥) . وكان فــي حاضر الرقة (ريفهـا) قوم من العرب (١٦) . وكانت ايـاد في الفرات الاوسط وأطراف الجزيرة الفراتية ، ثــم تحرّكت في فترة الفتوح الى الجزيرة (١٧) .

وكانت في الحيرة قبائل عربية — تنوخ والعباد وجماعات أخرى (الأحـلاف) ، وامتدَّ بعضها الــى الأنبار (١٨) . ويقول الهمداني : « الأنبار والحـيرة والقصر الابيض ... وسنداد والخورنق والسدير وبارق ، محاضر العــرب القديمة من حيز العــراق » (١٩) . وانتشرت بكر بــن وائل في البوادي المُطِلّة على الســواد بين القادسية والخليج العربــــي (٢٠) .

هكــذا وبنهاية القرن السابع للميـلاد كانت مناطق الفرات الأسفل والاوســط والجزيرة الفراتية قــد تَعَرَّبت لِحَدٍّ كبير .

وفي فترة الفتوح وبعدهـا جاءت قبائل وجماعات جديدة الى العراق ؛ فقــد ارتفع ديوان البصرة مثلا مــن ١٠,٠٠٠ الى ٢٠,٠٠٠ أيام عثمان ، ثــم الى ٤٠,٠٠٠ و (٨٠,٠٠٠ من العيالات) أيام علي ، ثــم الى ٨٠,٠٠٠ (و ١٢٠,٠٠٠ من العيالات) في ولاية زياد بن أبيه (٢١) ، ثــم الى ٩٠,٠٠٠ (١٤٠,٠٠٠ من العيالات) في ولايــة عبيد الله بن زياد (٢٢) . وفي الكوفــة ارتفع الديوان من ٢٠,٠٠٠ سنــة ١٧ هـ الى ٤٠,٠٠٠ سنــة ٢٥ هـ (٢٣) ، الى ٦٠,٠٠٠ فــي أواسط القرن الاول الهجــري (٢٤) .

ونزلت مجموعات قبليـة ، من تميم وبكر واليمن ـ خاصة خولان وهمدان والأزد ـ الموصل في خلافة عمـر . وتحوّلت الحديثة ، على الزاب الأعلى ، الـى قرية عربيّة بمن نزلها من العــرب (٢٥) . ونزلت قبائل عربيـة في سنجار وراس العين (٢٦) ، وجاءت جماعـات كبيرة من قيس الى الجزيرة . ثـم ان معاوية اتى بمجموعات مـن قيس واسد واوطنهم اماكـن ستراتيجية بين الرقة وسنجار ، كمـا ثبّت ربيعة في ديارها مـن الجزيرة (٢٧) . واستمرّت الهجـرة الى الجزيرة الفراتية، وادّت الى تكوين ديـار مضر وديار ربيعة (٢٨) . لـذا راى مروان بن محمـد ، آخر الأمويين ، انـه يستطيع الاستناد الى قيس في تكويـن قوّاته،وانتـدب منها عشرين الفـا (٢٩) .

ـ وكان للعوامـل الجغرافية والبشريـة اثرها في العراق ، فقد كان ملتقى الثقافات السـاميّة والآريّة،اضافة الى كونـه مهد الحضارة الساميّـة .

كـان سكان العراق (النبـط) ، وهم ساميّون يتكلمون الارامية . أما الفرس فكانوا فئة حاكمة في المدن الرئيسية (مثل طيسفون ونصيبين) ، وبينهم الملاكون الكبـار والجنود في الحاميات ، وجُلّهم طردوا اثنـاء الفتح او أسروا (٣٠) . ولكـنّ بعضهم بقي في المـدن،مثل الحيرة ونصيبين وسنجار،او علـى الحدود الشرقيّة للسهول ، بينما جـاء آخرون الى المراكز الجديدة (خاصّة الكوفـة والبصرة) . وبقي كثير مـن الدهاقين ، وبعضهم من اهـل البلاد (نبطا او عربـا)،واسلموا وحافظوا علـى اراضيهـم (٣١) .

وكانت لفظة « نبـط » ابتداءً ذاتَ دلالة بشرية (٣٢) ، ثـم صارت بعدئذ مرتبطة بالفلاحة والـريّ (٣٣) . وكان يشار للنبط عادة بـ « اهل السواد » او « العلـوج » تمييزا لهم عن العجـم (٣٤) . وتتباين الروايات عن وضعهم ، بين مـا يشير الى الشعور بالرابطـة والكيان (٣٥) وبين الادعاء بالأصـل الفارسي (٣٦) .

اعتبَــر المسلمون النبــط غير محاربين، ولم يتعرَّضــوا لهم اثناء الفتح (٣٧) . يذكر المدائنـــي ان عمر بن الخطاب « رفع الـــرقَّ عنهم ، ووضع عليهـــم الخراج في رقابهم، وجعلهم اكرة الارض » (٣٨) . وكان بامكانهم استغـــلال الارض وبيعها وتوريثها ورهنهـــا (٣٩) . واذا اسلموا أُعفوا من الجزيـــة عادة، ولكنهم يستمرّون على دفـــع الخَراج . ورأى عمر بن عبـــد العزيز ان لهم الحرية في تـــرك الارض عند اسلامهم ، ولكن ارضهم تؤول الـــى القرية، والاَّ صارت للدولـــة .

ومع ان النبـــط اعتُبروا احرارا من حيث المبـــدأ ، الا ان المفاهيم المحلّية الموروثة التـــي تربطهم بالارض والاعتبارات الاقتصاديـــة أثّرت على وضعهم . وكانـــت الهجرة من الريف الى المدينـــة امرًا مألوفا ، بـــل وواسعة احيانا ؛ وهي ظاهرة ســـاعدت على التعريب . ومما يُيسّر التعريب ان النبـــط ساميّون يتكلّمون لغـــة لها قرابة بالعربية . ولعلَّ هذا يفسِّر سكوت المصـــادر عن انتشار التعريب بينهـــم (٤٠) .

هناك اشاراتٌ قليلـــة الى موال من النبط مع انهـــم ــ عدديا ــ يكوّنون جمهرة الموالـــي ؛ ولعل ذلك يعود الـــى ارتباطهم بالعرب في الأصول والثقافـــة . فالحَجّاج ، وقد اغضبـــه اشتراك مجموعة من القراء في ثورة ابن الاشعث ، قال عنهم « انما الموالي علوج ، وانما أُتِيَ بهم من القرى » ، ونفاهم الى قراهم (٤١) . وتَميَّز بعض النبط في امور المال (٤٢)، مثل عميرة وحســـان النبطي (٤٣) ، وفي الحرب، مثل مقاتل بـــن حيان . وكان لهـــم اثرهم خاصة على العربية في الكوفـــة (٤٤) .

ولقـــي العربُ في الفرات الاوسط (٤٥) وتَغْلِبُ فـــي الجزيرة (٤٦) ، معاملةً مفردة ، ممـــا يُشعِر بالتوجيه الاســـلامي ، اذ كانوا احرارا في بيـــع اراضيهم ، وعند اسلامهـــم تصبح ارضهم عشرية .

كان اثر العرب في المـــدن والريف واسعـــا ؛ فقد اصبح التسجيل في الديوان محدودا زمـــن المروانيين ، ولم يعد مفتوحا للجميـــع ، فكان على الذين لا يسجلون فـــي الديوان (وبالتالي لا يأخذون العطـــاء) أن يبحثوا عـــن وسائل اخرى للمعيش ، في التجارة او الزراعـــة او

المهن . يذكر المبرد ان المهلّب دَسَّ الجواسيس الى عسكر الخوارج فاتوه باخبارهم « فاذا حشوة ما بين قصار وصباغ وداعر وحداد ... » (٤٧) . ويبدو ان هذه الظاهرة عامة لا تختصّ بالعراق ، ففي اخبار حملة ابن ابي بكرة على سجستان (٧٩/٦٩٩) قاتلت جماعة متطوّعة من مذحج وهمدان (٤٨) . كما ان بعض الأعراب القادمين الى المدن،مثل البصرة،صاروا في عداد « المساكين » على اطرافها (٤٩) . هذا الى ان بعض المقاتلة بقوا في البوادي المطلّة على السواد يرعون مواشيهم وابلهم (٥٠). وتَرِدُ اخبارُ شعراء يتنقّلون بين قبائلهم في البوادي وبين عشائرها الموجودة في المراكز الحضرية، وخاصّة تميم (٥١) . وهذه الجماعات اختلطت بِحُرّيّةٍ باهالي البلاد السابقين .

والتفت العرب ، وخاصة الاشراف واهل المدن، الى امتلاك الاراضي،وحصلوا عليها بطرق مختلفة ـ بالاقطاع من الصوافي ، وباحياء الأرض الموات (خاصة في منطقة البصرة) ، وبتجفيف المستنقعات (خاصة قرب الكوفة) ، وباستثمار الأراضي الخالية (٥٢) ، وبالشراء،وخاصة في منطقة الحيرة حيث كان بيع الأراضي مباحا (٥٣) . وكان جُلُّ الضياع في البصرة من الأرض الموات التي تم احياؤها بحفر القنوات وباستيراد الأيدي العاملة (من الزنج خاصة) . وشمل الشراء اراضي الخراج على نطاق واسع،حتى ان منع بيع الأرض الخراجية من قبل عمر بن عبد العزيز وأخلافه لم يوقف هذا النشاط . وساعد الاحياء على توسيع الملكيات .

ادى هذا الاقبال على الأرض الى ظهور ملكيات كبيرة ، بعضها يشمل قرى بكاملها . وقد ادَّت هذه التطورات الى خلخلة المجتمعات القرويّة المتماسكة والى فتحها للمؤثرات الخارجية .

واعتاد العرب ان يستخدموا « وكلاء » للإشراف على ضياعهم ، وكان على الوكلاء ان يجلبوا الفلاحين الى الأرض،او ان يشغلوا فلاحين من القرى المجاورة . ومما يُسّر مهمة الوكلاء ضرب الاقطاع القديم

وحالة الفراغ الناشئة عن ذلك، مما دفع الفلاحين للتحرك الى مواطن العمل الجديدة . وقد ادّى هذا الوضع ، اضافة الى الصلات المتزايدة بين القرى والمراكز العربية — وهي الاسواق الرئيسية للريف — ، والصلات بين القرى والقبائل في البوادي المجاورة للكوفة والبصرة ، الى انتشار العربية تدريجيا وبصورة متزايدة في الأرياف (٥٤) .

وفي مطلع القرن الثاني للهجرة بدأ العرب بالاستقرار في القرى ، وساعدت السياسة العباسية على ذلك ؛ فقد اتخذ العباسيون موقفا سلبيًّا من بعض القبائل (المضرية) منذ بداية عهدهم ، ثم انتهوا الى اسقاط العرب من الديوان ايام المأمون والمعتصم ، وهذا دفع العرب الى التوسع في الاستقرار على الارض (في الريف) ، والى اتخاذ مِهَن اخرى . فانتشر العرب في سواد الكوفة (٥٥) ، وانتقل الكثيرون من البوادي المجاورة الى الأرياف (٥٦) ؛ وهكذا ترد اشارات الى قرى عربية (٥٧) . وفي الجزيرة الفراتية تزايد عدد الجماعات العربية التي استقرت في القرى وانتشرت في الريف (٥٨) . ويشير ديونيس التلمحري البيّنات على وجود عدد كبير من القرى العربية في الجزيرة (٥٩) ، ويُشعِر بوقوفهم الى جانب اهل القرى المحليين في وجه الادارة العباسية (٦٠) ، ويشير الى حصول مصاهرات بين الطرفين (٦١) . وهذا يشير الى تغيُّر العلاقات بين العرب والآخرين، والى توسّع التعريب ؛ وهو تطوّر بلغ مدى بعيدا في القرن الثالث الهجري،وجعل التعريب شاملا .

ويُنتَظَر ان تكون العربية الدارجة في الريف ضعيفة ، كما يُتوقَّع ان لا تنجو عربية القرويين من اللحن (٦٢) ، وهذا لا يمنع ان تكون لغة البعض حسنة ؛ فقد اشار الجاحظ الى ان بعض اهالي سواد الكوفة يتكلّمون عربية حسنة بالفاظ متميزة،ومع ذلك يُحِسّ السامع بأنهم نبط (٦٣) .

وكان انتشار الاسلام ، وحركة العرب ، ونظام الولاء ، عوامل في نجاح العربية وفي التعريب . .

ترجع جذور الولاء الـى الجزيرة العربية قبل الاسـلام . وقد يكون أثـر عرب الجنوب مُهِمًّا في تطوُّر الولاء ، ولكـن تراثهم لا يزال ينتظر الدراسة . فهناك اشـارات في النقوش الجنوبية الـى أن قبائل (سيدة) كانت تربـط مجموعات اضعف بها عـن طريق الحلف بسبب المصلحة لا النسـب . وقد تَطَلَّب استغلال الأرض ربـط جماعات خارجية بالقبيلة،وأدّى الى نـوع من الطبقية الاجتماعية،فهنـاك جماعات تستثمر الأرض (العائدة لقبيلـة) لقاء جزء من الحاصل ، وهنـاك طبقة أدنى محميَّة تعمل لقبيلة فـي فلاحة الأرض (٦٤) .

أمـا بين عرب الشمال فان الولاء بالعتق او الحلـف او الحماية كان مألوفا . وكـان بامكان جماعـات أن ترتبط بقبائل قويـة بالحلف، فيكونون موالـي موالاة (٦٥) . والحلف لا يعنـي بالضرورة المساواة في المنزلة،مـع انه قد يعني مساواة في بعـض المسؤوليات (٦٦) .

هذه المفاهيم استمرت فـي صدر الاسلام : ففي ديوان عمـر بـن الخطاب جُعِلَت القبيلة ومواليها فـي سجل (ديوان) واحد وبعطاء واحد (٦٧) ، وفي الكوفـة والبصرة حالفت الكتائب الفارسية (حمراء ديلم والأساورة) ، اضافـة الى الاندغان والسيابجـة ، قبيلة تميم (٦٨) . وانتقل بنو العم مـن الأهواز الى البصرة وحالفـوا بني تميم (٦٩) .

وكـان الموالي ابتداءً من أرقّاء (أسرى حـرب) اعتقوا (موالي عتاقة) (٧٠) ، ولكنَّ جُـلَّ الموالي كانوا من احـرار اسلموا وانتقلوا الى المراكز العربية ، واكثرهم نبط (٧١) . وبعد أن أوقف عمر بـن الخطاب سبي العرب (٧٢) ، صارت كلمة « مولى » تشير الـى غير العرب ، بينما تشير كلمة « حليـف » عادة الى العـرب (٧٣) .

واستمر الولاء بهـذه المفاهيم ايام الأمويين : فقد صَنَّف عمر بن عبد العزيز الموالي الى : موالي عقد (اتفاق) وموالي رحم،وموالي عتاقة .

وكان ارتبـاط البعض بأمير أو قائد سببا لظهور « مولي التباعة » ؛ وهي اتجاه يفسر مـا فعله العباسيون بعدئـذ (٧٤) .

وكان الولاء يعنـــي « الاسلام » « والعربيـــة » في وقت واحد (٧٥) ؛ فالأعاجم (من غـــير المسلمين) كانوا يَرَون انَّ مَـــن دخل الاسلام صار عربيا (٧٦) . وكـــان الموالي يتعلمون العربيـــة ويتخذونها لغتهم ؛ وهكذا اعتبر الحَجَّاج القـــراء من الموالي عربـــا (٧٧) . ويلاحظ ان بعض الموالي سُمُّوا بـــ « المستعربة » (٧٨) ، وهو تعبير يطلق عادة على عرب الشمال ، جاء في اللسان« والعرب المستعربة هم الذين دخلوا فيها بعد فاستعربوا . قـــال الازهري : المستعربة عندي قـــوم من العجم دخلوا في العرب، فتكلموا بلسانهم،وحكـــوا هيئاتهم،وليسـوا بصرحاء فيهـــم » (٧٩) . ويبدو ان المصاهرات ، وكانت مالوفـــة قبل فترة الحجاج ورائجة في الكوفة ايـــام عمر بن عبد العزيز (٨٠) ، ساعدت علـــى توسيع التعريب ، وهكذا اخترق الولاء اطـــار النسب القبلي،ووسَّـــع الاطار العربي،وساعد على انتشـــار العربيـــة .

ظهر الاسلام في بيئـــة مدنية ، وأكَّد على طلب العلـــم ، ومنه نشـــأت اتجاهات الدراســـة الاولى في المجتمع الاسلامي . وهذه الدراسات ، مع اهتمامات العـــرب الثقافية الموروثـــة ، كَوَّنت الخطوط الأولية للثقافـــة العربية الاسلامية . واستمـــرّ الحال كذلك لدرجة ان النظر الى الثقافات القديمة كـــان عرضيًّا خلال فترة تتجاوز القرن ، وفي حين ان العربيـــة اضطُرَّت لمواجهة المفاهيم القبليـــة المتقاتلة والضيقة، بما فيها من عصبيّـــة،قبل ان تستطيع تحقيق قاعـــدة ثقافية واسعة ، فان الاسلام كان قـــوة دافعة متوسعة ، وكـــان بشكل ملحوظ موطدا للعربيـــة .

تركَّزت الفعاليات الثقافيـــة في صدر الاسلام في دور الهجرة ــ البصرة والكوفـــة خاصة ــ ، واقتصرت في الاســـاس على الموضوعات الاسلامية والدراسات العربيـــة . كان هشام بن عبد الملك (ت ١٢٥ هـ) يرى ان اسس الثقافة هـــي القرآن ، والآثار ، واحاديث العرب، واشعارها،وايامهـــا ، وأنساب قريش وسائر بنـــي نزار (٨١) .

وبدأت الفعاليات الثقافية بـــين العرب ، وبدرجة متواضعـــة ،

بين الموالي الذيـــن اتقنوا العربية (٨٢) . وتأثرت هـــذه الفعاليات بتيارين اساسيين : الأوّل ــ الاســـلامي ، ممثلا في الدراسات القـــرآنية والحديث والفقــه والمغازي ، والثاني ــ العربـــي (القبليّ) وهو استمرار لميـــول سابقة ، في الشعر والايـــام والاخبار والانســـاب واللغة .

ويسترعي الانتباه ان التطورات الثقافية ســـارت في خطوط متوازية ومتدرجة : روايـــات فردية ومحدودة ابتداءً ، ثـــم حلقات من الطلبة يأخذون عن شيـــخ ويضيفون ابحاثهم الى علمه (٨٣) ، ثـــم تراكُم للمعرفة والدراسات يؤدي الـــى ظهور مدارس محلّيّـــة ، واخيرا تبادُل المعرفة والتاثير بين المراكـــز او المدارس المحلّية عن طريـــق الرحلات،مما ادى الى ظهور علمـــاء متميزين رسموا خطوط التطور المقبـــل . ويتضح هذا التطور في دراســـة الحديث والفقه والتاريخ وفي الدراسات اللغوية .

واجهت الامـــة الاسلامية الناشئة مشـــاكل وحاجات مباشرة ــ منها انشاء الخلافـــة ومشاكلها ، ومعاملة المغلوبين والاراضي المفتوحة ، وتطبيق المبادىء الاسلاميـــة في الامصار لمواجهة الحاجات الجديـــدة . وكانت هـــذه النواحي بالغةَ الاهميّـــة للتطور الثقافي .

لقد شهد القرن الاول للهجرة رسمَ الخطوط الاساسية لمؤسسة الخلافة، مع ما رافقها من تباينٍ واختلاف في الاتجـــاه ؛ ونشأت الاحزاب السياسية وطُوِّرت آراءهـــا التي كان لها بعض الاثـــر في الفقه (٨٤) . وظهرت آراء في الجبر والاختيار ومســـؤولية البشر عن اعمالهم ، وبـــدا التنظيم الاداري والمـــالي من التراث المحلّي بعد تعديله بضـــوء مفاهيم اسلامية ، وكان يختلف في واقعـــه بين قُطر وآخر ، ثـــم عُرِّب وطُوِّر بالتدريج لينتهي الى إطار موحَّد فـــي بلاد الخلافة في أواخـــر الفترة الاموية .

وفي حين ان الفعاليـــات الثقافية بدات عربية اســـلامية ولم تأخذ من الثقافات القديمـــة الا في فترة تالية ، فـــان الموقف من التراث الاداري والمـــالي المحلّي المتباين في الاقطار اتخـــذ اتجاها معاكسا ، اذ عُـــرِّب وطُوِّر لينسجم مع المفاهيـــم الاسلامية بصورة تدريجية،حتـــى ادخل اخيرا في النطاق الاســـلامي الثقافي والحضاري .

ارتبطت الفعاليات الثقافية بالحاجات الناشئة ؛ فالدراسات الاسلامية الاولى تتصل بالقرآن ، اذ حاول القراء ان يعلّموا الناس القراءة الصحيحة،وان يُبَصِّروهم بالمفاهيم الاسلامية (٨٥) . بَعَثَ عمر بن الخطاب بعض الصحابة الى الأمصار (مثل ابن مسعود في الكوفة وأبي موسى الاشعري في البصرة) ليعلّموا الناس القرآن والسنة (٨٦) . قال اهل الكوفة لابن مسعود : « جُزِيتَ خيرا فقد علّمتَ جاهلنا،وثقّفتَ عالمنا،وأقرأتنا القرآن،وفقّهتنا في الدين » (٨٧) . ويُرْوَى الكثير عن عدد تلاميذ ابن مسعود وعن نشاطهم في الكوفة ، اذ كانوا « سُرُج هذه القرية (الكوفة) » كما قال سعيد بن جبير (٨٨) . وقد نالوا منزلة اجتماعية عالية بسبب تقواهم وحرصهم على رسالتهم (٨٩) . وشاركوا في الحياة العامة وفي الاحداث الكبرى من ايام عثمان الى ثورة ابن الاشعث (٩٠) . وكانوا يدافعون عن المبادىء الاسلامية،وعن العدالة الاجتماعية . وانضمَّ اليهم بعض الاشراف ، وتزايد عدد الموالي بينهم (٩١) ، ولعلّ هذا يوضح سبب الارتباك في بداية ظهورهم . وتُشْعِرُ فعالياتهم بالصلة الوثيقة بين النشاط الثقافي وبين الحياة العامة .

وشهد جيل التابعين بين القراء قضاة ، وأصحاب فتيا (٩٢) ، وعلماء (٩٣) ، وفقهاء (٩٤) . يقول ابن سعد،« ثم كان التابعون بعد اصحاب رسول الله من ابناء المهاجرين ؛ والانصار وغيرهم فيهم فقهاء وعلماء،وعندهم رواية الحديث والآثار والفقه والفتوى » (٩٥) . وشملت دراساتهم الحديث والنحو والتفسير والفقه (٩٦) .

وكان دور القراء والعلماء والقضاة مُهِمًّا لتطوّر الفقه ويجنب الاعتماد على القرآن رجعوا الى السنة ؛ ويشار الى سنّة الرسول في فترة مبكرة . ثم ان المشاكل الجديدة في الامصار ادت الى الاجتهاد بالراي منذ زمن الراشدين (٩٧)، وواضح ان قيام الخلافة ومعاملة البلاد المغلوبة تطلّبت الاجتهاد والراي . وبالاضافة الى ذلك كان هناك الاتجاه الى اعتماد المفاهيم والقيم الاسلامية في مختلف نواحي الحياة،والى تطويع العرف المحلي ليلائم الاسلام .

وقد لجأ الصحابة الى الاجتهاد بصورة فردية او بالشورى ، وصارت اقوالهم جزءا من الآثار ، كما كان للتابعين رايهم واجتهادهم . وادى الوضع في الحديث الى تحديد استعماله من قِبَل البعض ، بينما لجأ آخرون — مع التشدّد في النقد — الى الآثار . وكان الراي يعطي بالقياس،او وفق متطلبات المصلحة . ونشأ خُطّان في الفقه : فقه الراي وفقه الاثر ، وذلك بضوء التوسّع في استعمال الراي او تقييده . ولم يكن التقسيم يستند الى قاعدة جغرافية (الكوفة — المدينة) بل الى الوجهة الخاصة بالفقيه (٩٨) .

وأدّى التباينُ في الظروف المحلية ومدى الاخذ بالراي او الاستناد الى الحديث والآثار، الى ان تظهر بصورة تدريجية سنن محلية او طرق « عمل » . وتطورت هذه البدايات المحلية بعد فترة،ليخلفها الاجماع بمفهومه العامّ،وليكون اصلا آخر من اصول الفقه .

وقد ادت الجهود الجماعية والمتكاملة للعلماء الى قيام مدارس فقهية في العقود الاولى من القرن الثاني للهجرة . ويسترعي الانتباه انه لا توجد خلافات اساسية بين هذه المدارس في المبادىء او الطريقة . وعلى العموم فان الرجوع للراي كان اوسع في العراق ، بينما كان التأكيد على الحديث اقوى في المدينة . وتَمَيَّز بعض العلماء بدراساتهم الواسعة وبعلمهم في المدارس (المراكز العلمية)،مثل ابراهيم النخعي (٩٦/٧١٥) وحماد بن ابي سليمان (١٢٠/٧٣٨) في الكوفة ، والزهري (١٢٤/٧٤١) وربيعة الراي (١٣٦/٧٥٣) في المدينة ، وكان دورهم بداية التطور الذي ادى الى ظهور ائمة المذاهب (ابو حنيفة ، مالك ، الشافعي ، احمد بن حنبل) . وهذا التطور من الدراسات المشتركة المتكاملة (في المدارس) الى قيام ائمة (في الفقه) — وهو اتجاه يظهر ايضا في حقول ثقافية اخرى — يُشْعِر بنضج المدارس الفقهية ، مما ادى الى ظهور المذاهب بطلوع القرن الثالث للهجرة (٩٩) .

وبدات دراسة حديث الرسول (ص) في فترة مبكرة بين الصحابة ،

ثم شملت الدراسة آثار وسنن الصحابة . وكانت التطورات والحاجات الجديدة سببا لذلك ، كما ادت هذه الى الوضع في الحديث ، فالمصالح السياسية والحزبية والمحلية والمذهبية وجدت مجالا في وضع الاحاديث ، وادى الوضع بدوره الى التدقيق في نقد الحديث ؛ وهو تدقيق بدأ في المتن،وتركز تدريجيا وبمرور الزمن على الاسناد ، وجاء علم الجرح والتعديل مثلا رائعا للتدقيق والحيطة والتوثيق .

وكان الاهتمام بجمع الحديث مبكّرا زمن الصحابة والتابعين في صحف وأجزاء،وتلا ذلك « تقييد » الاحاديث في الصحف والروايات في أواخر القرن الاول وأوائل القرن الثاني للهجرة ، ثم بدأ « التصنيف » أو جَمعُ الاحاديث حسب الموضوعات لفائدة المشتغلين بالفقه وذلك في الربع الثاني للقرن الثاني للهجرة . وادّى حرص المحدثين على احاديث الرسول (ص) الى عمل مجموعات للحديث مرتّبة حسب رواتها من الصحابة من أواخر القرن الثاني للهجرة،ورافق ذلك تأكيدٌ خاصّ على الاسانيد . ومما يلاحَظ انَّ كُتُب الطبقات الأُولى جاءت من نفس الفترة . واخيرا ، وخلال القرن الثالث للهجرة،وُضِعت الجامع الاكثر شمولا وتدقيقا ، وهي كتب الصحاح ، ونُظِّمت على فصول الفقه (١٠٠) .

وأُستُخدِمَت الكتابة لحفظ الحديث جنبَ الرواية الشفوية ؛ وقد عرف الزهري بكتابة الحديث (١٠١) . وجاءت المجموعات الاولى للحديث من الثلث الثاني للقرن الثاني للهجرة ؛ وهي نفس الفترة التي جاءت منها المؤلفات الاولى في التاريخ (١٠٢) .

بدأ التفسير مبكرا في قراءة القرآن وكان على صلة وثيقة بعلم الحديث . وكانت المحاولات الاولى في الاساس شروحا لغوية للنصوص، واشارات الى ظروف نزول الآيات . وقد افيد من الشعر (الجاهلي) لتوضيح بعض الكلمات ، كما استند التفسير الى المأثور من حديث الرسول (ص) واقوال الصحابة (١٠٣) .

وتطوّر التفسير بسرعــة في عصر التابعين ، وأخـذ بعضهم بالراي اضافة الى الآثــار والشروح اللغوية ، ورجع البعض الى اهـل الكتاب لتوضيح بعض الاشارات القــرآنية ، فتسربت الاسرائيليات، واثــارت شيئا من الشـك والتحفّظ (١٠٤) . وهكــذا بدت بوادر اتجاهين في التفسير : التاكيد علـى المأثور ، والرجوع الـى الراي .

وقد أهتمّ بالدراسات القــرآنية جماعاتٌ لهم اتجاهات دراسية مختلفة ؛ اذ نـرى القراء واللغويين والمحدّثين يشتغلون بالتفســير . وقد أسهم بعض القــراء، مثل نصر بن عاصم (٨٩ هـ/٧٠٧ م .) ويحيى بـن يعمر (١٢٩ /٧٤٦) وبعضُ اللغويين، مثـل عيسى بن عمر الثقفي (٧٧٦/١٤٦) وابي عمرو بـن العلاء (٧٧٠/١٥٢) فـي التفسير .

واستُعمِلَت الكتابة في التفســير زمن التابعين ، وَوُضِعَـت تفاسير من أواخر القــرن الاول (مجاهد ٧٢٢/١٠٤ ، قتادة ٧٣٦/١١٨ ، عطاء الخراسانـي ٧٥١/١٣٣) .

واتسمت التفاســير من اواخر القرن الثاني بصورة عامّــة بطابع الجمع ، واحتوت علـى مــوادّ تاريخية وفقهية ولغوية . كمــا وُضِعَت في هذا القرن تفاســير لغوية لها اهمية خاصة، مثل مجاز القــرآن لابي عبيدة معمر بن المثنـى (٨٢٥/٢١٠) ومعاني القــرآن للفراء (٨٢٢/٢٠٧) .

ولجـأ المعتزلة الى الراي في التفسير (منـذ القرن الثاني) مستفيدين من المـواد اللغوية . ووضـع المحدّثون ــ الذين تحوي مجموعاتهـم في الحديث عادة على قســم في التفسير ــ تفاسير منذ النصف الاول مـن القرن الثالث الهجـري، معتمدين على الآثــار بالدرجة الاولى .

وهكذا ظهــر خطّان واضحان في التفسير : التفســير بالآثار ، وهذا بلغ قمتــه في تفسير الطبري (٩٢٣/٣١٠) ، والتفســير بالراي، الذي بلــغ درجة عالية في الكشـــاف للزمخشري (١١٤٣/٥٣٨) (١٠٥) .

ـ ازدهر الشعـــر خلال القرن الاول الهجري ، وتاثــر بالاوضاع السياسية والاجتماعية الجديــدة في المراكز الجديدة ، كمــا تاثر بالمفاهيم والقيم الاسلامية . ومـــع أن الكثير من الشعر ينطوي علـى استمرار للشعر القديم في الاسلــوب والاخيلة ، فان موضوعات جديـدة ظهرت بالاضافة الــى النظرات والمنطلقات الجديدة (مثل الشعــر الاسلامي ، شعر النقائض ، الشعـــر السياسي ، شعر الغزل) ؛ هــذا الى وجود الشعر الحضري جنـب شعر البادية ؛ كما ان تطـورات جديدة حصلت في الاسلوب . وجــاءت حركة التجديد الشعريـــة في العصر العباسي الاول بشعر اكثر رقـــة واعلى ثقافة ، واكـدت على موضوعات جديدة . ومع هـــذا بقي للشعر القديم منزلة رفيعـــة في عالم النظم (١٠٦) .

خرج العـــرب من الجزيرة بِلُغَـــةٍ راقية وشعر رائع وتراث حضري جنوبي . وكانت للقبائـــل لهجاتها (لغاتها) ولكـــنَّ سكناها مجتمعةً في المراكز الجديدة ادت الـــى ظهور عربية مشتركة فـــي التفاهم . يقول الجاحظ : « واهـــل الامصار انما يتكلمون على لغـــة النازلة فيهم من العرب ، ولذلك تجـــد الاختلاف في الفاظ من الفاظ اهـــل الكوفة والبصرة والشام ومصر » (١٠٧) . ولكنَّ القـــرآن الكريم اعطى المثـــال للعربية في الكتابة ، واعطاها وحـــدةً واستمرارًا عبـــر العصور .

وبدأت الدراســات اللغويـــة في فترة مبكِّرة ، وهي تُشِيـــر بالحرص على قراءة القـــرآن بصورةٍ صحيحة،والحماس لنقاء اللغة العربيـــة . لقـــد أستَعْمَلَت العربيةَ اعدادٌ متزايدة من الموالـــي،وتعرَّضت لِلَّحـــن . واختلط العـــــرب بالاعاجم في الامصـــــار ، كما مُتحـــت بيوتهم للسبايا ، مما اثَّر في لغـــة الكثيرين (١٠٨) . ويُتَّخذ اللحـــن خطورة واضحة في قراءة المصحـــف ؛ وهي مشكلة تعرَّض لهـــا حتى البعض من الاعراب . جــاء في رسالة لعثمان تخوُّفه مـــن الابتداع « بعد اجتماع ثلاث فيكم : تكامُل النعمـــة،وبلوغ اولادكم من السبايـــا،وقراءة الأعراب والاعاجـــم القـــرآن » (١٠٩) .

بـدأ اللحن في اواسط القرن الاول للهجـرة وانتشر في فترة التابعين ، وادى الى رَدِّ فِعْـلٍ قويّ في الدوائر العربية وبين بعض الموالـي المتعربين، لحماية العربية وللحفاظ علـى صفائها . يُبيِّن الزبيدي ان ظهـور الاسلام ودخول الناس فيـه وكثرة من وُجـد تحت لوائه ادّى الى ان « اجتمعت فيه الالسنة المتفرقـة واللغات المختلفة،ففشا الفساد فـي العربية . فَعَظُم الاشفاق من فُشُـوِّ ذلك وغَلَبَتِه ، حتى دعاهم الحذر مـن ذهاب لغتهم وفساد كلامهـم الى ان سَبَّبوا الاسباب في تقييدها لـمن ضاعت عليه،وتثقيفها لـمن زاغت عنه » (١١٠) . كـل ذلك اوجد دافعا قويـا الدراسـات العربيـة (١١١) .

وترتبط بداياتُ النحـو اولاً بقراءة القـرآن ؛ فقد أُحدِثَت نُقَط لتمييز حركات الاعجام في القـرآن مِن قِبَل ابي الاسود الدؤلي (٦٩هـ/ ٦٨٨م.) ، ولـذا يُنْسَب اليه وضع النحـو . ويعود الى الفترة ذاتها وَضْعُ النقاط لتمييز الحـروف المتماثلة،لضمان القـراءة السليمة (١١٢) .

وكان رُوّاد علـم النحو،من يحيى بن يعمر (١٢٩/٧٤٧) وعبد اللـه بن ابي اسحـق الحضرمي (١١٧/٧٣٥) الى الكسائي (١٨٩/٨٠٥) قُرّاء (١١٣) ؛ فَفَهْمُ القـرآن يُعني معرفة جيدة بلغتـه وباعراب نصوصه . يقول الذهبي عـن الكسائي : « وكان من اهـل القراءة،وهي كانت علمـه وصناعتـه » (١١٤) .

ونظر البعض الـى اللغة على انها في الاسـاس تواضُـعٌ واصطلاح ، بينما ذهب البعض الآخـر الى انها توقيف ؛ وهمـا وجهتان متدرجتان، تمثّران عـن نظرتين في النحو ؛ فقد كـان السماع من اسس الدراسات االغوية ، كمـا أُعتُبِر القياس مع التعليل قاعـدةً اخرى في النحو . وكان لكلٍّ مـن الاتجاهين مؤيدون في البصرة (١١٥) . ثـم ساد القياس في البصرة (بعد النحـو) والسماع في الكوفة . ويبـدو ان بيئة الكوفة العربيةالسـامية في الاساس اقرب الـى الاتجاه الى السماع والسليقة ، امـا بيئة البصرة التجارية المختلطة فانهـا تطلَّبت قواعد اكثر تحديدا لفهـم اللغة . اكدت البصرة على القياس لوضع قواعـد

عامة،أمـــا الشواذّ فانها سُجّلت وأُهملت ؛ وأمـــا الكوفة فانها رأت في ان يُسارَ وفـــق السماع،وتجوّزت في وضع القواعد الى حدّ الاستناد الى النوادر عنـــد الحاجة (١١٦) . وقد ورثت بغـــداد المدرستين ، وانتهوا كانت أميل الى الاتجاه الكوفي . واخيراً تفوّق الاتجاه الى السماع على وجهة القياس،وانتصرت بذلـــك المحافَظة . وهذا يثير الســـؤال عن مدى تأثير القراءات المقبولـــة في تفوّق السماع (١١٧) .

وسارت الدراســـات اللغوية الى جنب دراسة النحـــو ؛ فالحاجة الى فهم القـــرآن ، والحديث احيانا ، دعت الـــى الرجوع للشعر والى عربية البادية . ذهـــب اللغويون الى البادية، الى الاعراب الفصحـــاء، (وجاء بعض هـــؤلاء الاعراب الى المـــدن) للأخذ عنهم (١١٨) . وكانوا ــ وخاصة البصريون ــ حذرين في بحثهـــم عن العربية الصافية ، ولـــذا تجنّبوا في الغالب القبائـــل التي تاثرت بأهل الحواضر القريبـــة . ومع ان تأكيد الروايات علـــى الأخذ من الاعراب البادين لا يخلـــو من مبالغة ، فان هذا الأخـــذ في عامّته ادى الى تسجيل مـــا يتّصل اساسا بالحياة البدويـــــة .

كان أبـــو عمرو بن العلاء (١٥٤/٧٧٠) شيخ الدراســـات اللغوية في عصره ، يُعرَف بانـــه اعلم الناس بالعرب وبلغتهـــم، وبالشعر والايام، وبالقـــرآن . وكانت « عامة اخباره عـــن أعراب قد ادركوا الجاهلية » . وكان اثره كبيرا في إعداد طلبة نابهين من الجيل التالي (١١٩) . وقامت ابحاث واسعة ومركزة على يـــد الجيل التالي في البصرة ، وتميّز بينهم ثلاثـــة من تلاميذ ابـــي عمرو بن العلاء : ابو عبيدة معمر بن المثنـــى (٢١١/٨٢٦) وابو زيـــد الانصاري (٢١٥/٨٣٠) والاصمـــعي (٢١٧/٨٣١) ، وهؤلاء افادوا في بحوثهـــم من اساتذة آخرين ومـــن ثقات الأعراب ، حتى قيل فيهم : « عنهم أُخِـــذ ما في ايدي الناس من هـــذا العلم، بل كلّه » (١٢٠) . وكان اعلام المدرســـة اللغوية في الكوفة الكسائي (١٨٩/٨٠٥) والفـــراء (٢٠٧/٨٢٢) والمفضل الضبي (١٧٠/٧٨٦) وابن الاعرابي (٢٣١/٨٤٤). وهكذا نضج هذا الاتجاه في الدراسات في اوائل القرن الثالث للهجرة (١٢١) .

وكانت المجموعات الاولــى للكلمات عفوية دون خطَّة ، ثــم تلتها مجموعات تدور حــول موضوع او مادة . واخيرا جاء الخليل بن احمــد الفراهيدي (١٧٥/٧٩١) بفكــرة اول مُعجم (العــين) ، وتحققت فكرته على يــد تلميذ له،وربما بمشاركة آخريــن . وسار علماء اللغة بعده على خطته،الى ان وضــع الجوهري (٣٠٨/١٠٠٧) خطــة اخرى (١٢٢) .

جاءت القبائل بلهجاتهــا (لغاتها) الى المراكــز الجديدة (١٢٣) ؛ وهذا اكسب العربيــة حيوية وغنى . ثــم ان استعمال العربية على نطاق واسع بين غير العــرب ، والاختلاط في البيئات الجديدة،وتطوُّر الحيــاة في المــدن،ترك آثاره وأدَّى بالتدريج وبــين الطبقات الدنيا الى ظهور عربية التخاطب تتَّصف بالبســاطــة،ولا تلتزم بقواعد النحو (١٢٤) ؛ وبــدا ذلك بوضوح في اواخــر القرن الأول . ومع ذلك فــان الحَجَّاج كان يرى ان دُور الهجرة (الكوفــة ، البصرة) هي « موضع الفصاحــة والاعراب » . واثنى بحشل على اهــل واسط لفصاحتهم ، وَعَلَّلَ ذلــك بأن الحجاج « كان لا يدع احــدا من اهل الســواد يسكن واسطا » (١٢٥) .

وفي القرن الثالــث الهجري ، والعربيّة لغــة الثقافة ، كانــت الفصاحة مــا تزال تُقْرَن بعربية الاعــراب الأقحاح . وبجنب هذه اللغة يشير الجاحظ الى لغــة المولدين والبلديين بتركيبها واعرابهــا (١٢٦) . وعلى كــلٍّ،فبالاضافة الى لغــة التخاطب اليومية ، التي لا تخلو من لــون محلي ، صارت العربية لغــة الحضارة،وفيها المرونة التي تتطلّبها الحاجات الثقافية والحضريــة . ومع ذلك استمرّت الجهود للحفــاظ على صفاء اللغــة،وعلى جعل النحو اداة فعالة تُمَكِّــنُ الجميعَ من اتقانها عن طريــق التعلم (١٢٧) .

وبدات دراسة التاريــخ وكتابته في خَطَّين ــ اســلامي وقَبَلي ؛ ففي المدينــة اتجهت الدراسات التاريخية الــى المغازي والجماعــة الاسلامية الاولى،ثم شملت تاريخ الأمــة . وفي الكوفة (ثم البصرة) اتجهت الدراسات الــى نشاط الخلافة،والى فعاليات القبائل وشــؤون الامصار .

وكان المحدّثون روّاد المغازي، في حين نهض الأُخباريون بالدراسات التاريخية في الكوفة ، وشارك فيها لِحَدٍّ ما بعض النسّابين واللغويين .

تناول الأخباريّون في دراساتهم كلَّ جوانب التاريخ الاسلامي في كتب يتعلق كلٌّ منها بموضوع او بفترة . وبينما يلاحظ اسلوب المحدّثين في التدقيق والاسناد في كتابة المغازي فان الاخباريين يشعرون باستمرار نواحي الاهتمام القبلية، وباثر اسلوب قصص الايام . وكان عروة بن الزبير (٧١٢/٩٤) رائد مدرسة المغازي، واستقرّ شكل السيرة على يد تلميذه الزهري (٧٤٢/١٢٤) بينما كَتَب الاخباريون في الجيل التالي له .

وهكذا نشأت الدراسات التاريخية في الاسلام، وتطورت في نطاق الثقافة العربية الاسلامية . اما الترجمات لِسِيَر الملوك من الفهلوية ، والأُخذ من الاسرائيليات، فانها أُدخِلَت مادة ضعيفة الى الدراسات التاريخية، ولكنها لم تأت بفكرة او بمنهج .

وشهد القرن الثالث الهجري تبادل التأثير بين مدرستي التاريخ في المدينة والكوفة، في الاسلوب والافق والمفاهيم التاريخية ، وتلى ذلك ظهور المؤرخين الكبار بعد منتصف هذا القرن ، وهم يمثّلون قمة التطور في الدراسات التاريخية في فترة التكوين (١٢٨) .

وكانت الصلات بالثقافات الاخرى شفوية ومحدودة : فهناك الاسرائيليات ، وبعض اللاهوت المسيحي ، وبعض الاقوال الغنوصية التي تسرَّبت عن طريق الداخلين في الاسلام ، اضافة الى قليل من الهلنية . واثيرت اسئلة عن حرية الراي، والصفات الالهية، وخَلْق القرآن . ولا يخفى ان مسالة حرية الارادة والاختيار – كما في كثير من القضايا الاساسية – بدات كمشكلة سياسية في العصر الاموي ، ولكن الاتصال قد يترك بعض الاثر . ويلاحَظ تَسَلُّل بعض الآراء الدينية الفارسية في بيئة الكوفة عن طريق بعض المسلمين الجدد ، وهذا يلحظ عند الغلاة . ولكن هذه الصلات كانت اولية، ولا يوجد ما يدل على اقتباس متعمَّد الا في الحاجات المادية .

وأدّى تعريب الدواوين زمــن الأمويين (من ايــام عبد الملك بن مروان الى ايــام هشام بن عبد الملك) الــى إغناء العربية ، وساعَدَ على أن تصبح لغــة الثقافة للمسلمين وغيرهم . وقــد فتح التعريب الباب للشعوب الاخــرى في المجتمع الاسلامي للمساهمــة في الثقافة وتاكد ذلك بعــد الثورة العباسيــة .

وكان للتراث المحلّــي ، الاداري والمــالي خاصة ، اثره ؛ وكان للمسلمين ان يأخــذوا ما يرون ما دام لا يتعارض والمفاهيــم الاسلامية . وقد ادخل المسلمــون عليه ابتداءً تعديلاتٍ بضوء المبــادىء الاسلامية ، ثــم طوّروه وعرّبوه،واخيرا تمثّلوه في مجرى الحضارة العربية الاسلامية .

وان وُجدت اشــارات الى بدايات أوليــة وفردية للترجمة زمن الامويين ، فــان العباسيين نظّموا الترجمــة وشجّعوها في العلوم والطب والفلك،واخيرا ــ من اواخر القرن الثاني ــ في الفلسفة . وهذه الترجمات لم تُدخل عنصرا غريبا غــير مؤتلف في الثقافة،عــدا الفلسفة التي تضمّنت احيانا آراء ومفاهيم لا تنسجــم والمبادىء الاسلاميــة . وحاول العلماء المسلمون أن يفيدوا مــن المنطق اليوناني،وان يوفقوا بــين الفلسفة والاسلام في الشكــل والمضمون .

وهناك خــطٌ آخر للترجمة ــ عن الفهلوية بالدرجة الاولــى ــ تبنّاه الكُتّاب وبعضُ رجــال الأدب ، وشمل مؤلفــاتٍ ادبيةً وتاريخيةً ودينيــة . وكان لهذه الترجمات بعض الاثــر في الآراء وفي بعض الحركات الدينية السياسية الخارجــة ، وكانت تُتّصل بالصراع الثقافي مــع الشعوبية . وربما كــان للاحتكاك والصراع الثقافي اثــرٌ في تجديد الاهتمام بالتراث الادبــي العربي،وفي تاكيد جديــد على العربية وصلتها بالاسلام،وفي تجديــد التاكيد على العربية اساســا للعروبة .

وفي هذه الفترة لــم تُعد الرسالةُ الدينيــة التي حملها العرب ابتداءً قاصرةً عليهم،بــل شاركهم فيها المسلمون من مختلــف الشعوب ، واصبحت رسالــة العرب ثقافية حضاريــة .

(١) انظـــر :

N. Pollak - L'Arabisation de L'Orient Sémitique, R. E. I. 1938, pp. 35-63
W. Marcais - Comment L'Afrique du nord a été Arabisee, Articles e Conférences (Paris 1961) pp. 171 - 192 ;

R. Blachere - Regards sur L'acculturation des Arabo - Musulmanes, Arabica, III, pp. 247 - 65.

(٢) الشيباني ــ السير ، ج ١ ، ص ٨٨ ، ص ٦٤ ــ ٦٥ .

(٣) الطبري ــ تاريـــخ ، س ١ ، ص ٢٨٦٠ . البلاذري ــ أنساب الاشراف ، ج ٥ ، ق ١ ، ص ١١٤ . قـــال الاحنف بن قيس اثناء الفتنـــة في البصرة سنة (٦٤هـ) رداً على اقتراح الغضبان القبعثري بـأن تترك تميم البصرة « اننا خروجنا من المصر لا ندع مهاجرنا ومركزنا وفيئه اللـــه علينا فنتعرب بعـــد الفتنة » . وجاء في لسان العرب : « وكان من يرجع بعـــد الهجرة الى موضعه ، مـــن غير عذر ، يعدونه كالمرتـــد » ، مـــادة « عـــرب » .

(٤) المبـــرد ــ الكامل (باعتناء أبي الفضل ابراهيم وشحاتـــه ، القاهرة ١٩٥٦) ج ١ ، ص ١٤١ .

(٥) يقول ابن ســـعـــد عن الزبرقان بن بدر ، الـــذي ثبت على الاسلام خلال الردة : « وكان ينزل ارض بنـــي تميم ببادية البصرة ، وكان ينزل البصرة كثيرا » . ويقـــول عن الاقرع ابـــن حابس « وكان ينزل أرض بنـــي تميم ببادية البصرة » . الطبقات ، ج ٧ ، ق ١ ، ص ٢٤ .

(٦) في ابن ســـعـــد ، ج ٧ ، ق ١ ، ص ٣٦ : « سمعت أبـــي يقول : لقاني رســـول اللـــه ، أو سمعت رسول اللـــه (ص) ينهى عن التنادة ، فمـــن اقام ببلاد الفراغ فقد تنـــا ، فانا اكره أن اتيـــم » .

وجاء في اللســـان : « من تنا في ارض العجم فعمل نيروزهم ومهرجانهم حشر معهـــم » ، مادة « تنا » . وانظـــر : حلية الاولياء .

(٧) البلاذري ــ أنساب ، (خـــط) ق ٢ ، ص ٧٥٠ ، ص ١٢٢٥ .

(٨) انظر : رســـائـــل الجاحظ (تحقيق عبـــد السلام هارون) ، ج ١ ، ص ١٠ ــ ١١ .

(٩) الطبري ، س ٢ ، ص ١٥٠٥ ــ ٦ .

(١٠) البلاذري ــ أنساب (خـــط) ق ٢ ، ص ٧٥٠ .

(١١) في طور عابدين وآمـــد ورأس العين وسنجار والرهـــا .

(١٢) انظـــر : Dillemann - Haute Mesopotamie Orientale (Paris 1962) P.P. 34 - 5, 88 - 9 .

الطبري ، س ١ ، ص ٨٢٧ ؛ الاغاني ، ج ٢ ، ص ١٤٠ ــ ١ .

البكري ــ معجـــم ما استعجم (باعتناء السقـــا ، القاهرة ١٩٥٤) ج ١ ، ص ٢٢ .

(١٣) الطبري ، س ١ ، ص ٢٤٨٩ ، ص ٢٥٠٥ . البكري ــ معجم ، ج ١ ، ص ٢٣ ــ ٤ . ابـــن أعثم ــ فتوح ، ج ١ ، ص ٨٨ ــ ٨٩ ،

Musil - Middle Euphrates (New york 1927), p. 285

(١٤) البلاذري — فتوح ، ص ٢٢٨ ، وانظر : ص ٢٤٩ .

(١٥) الهمداني — صفة جزيرة العرب (باعتناء الاكوع ، دار اليمامة) ، ص ٧٠ ، ص ٢٧٥ ، ص ٣١٩ . البكري — معجم ، ج ١ ، ص ٢٣ — ٢٤ . البلاذري — فتوح ، ص ١٨٢ ، Musil, op. cit., p. 312.

(١٦) البلاذري — فتوح ، ص ١٧٧ .

(١٧) البكري — معجم ، ج ١ ، ص ٦٩ — ٧١ ، E. I. (2) Bakr b. Wail

(١٨) الطبري ، س ١ ، ص ٨٢١ — ٨٢٢ ، ص ٢٤٩ . وانظر : س ١ ، ص ٧٢٤ ، ص ٧٤٧ عن قدم العرب في العراق . البكري — معجم ، ج ١ ، ص ٥٢ — ٥٣ . هذا الحادثة السيجماعة من بكر بن وائل . المبرد — الكامل ، ج ٢ ، ص ٤٢٦ .

(١٩) الهمداني ، ص ١٤٩ .

(٢٠) البكري — معجم ، ج ١ ، ص ٨٥ — ٨٦ . ابن اعثم الكوفي — فتوح ، ج ١ ، ص ٨٨ — ٨٩ . ويذكر الهمداني انها تمتد من الابلة الى هيت ، ص ١٦٩ . وكان امارة مسيحية (ميسان) منذ مصب دجلة يحكمها عرب والدون من عمان وذلك قبل قيام الحيرة . كرستنسن — ايران زمن الساسانيين ، ص ٧٥ . وانظر : Bakr Ibn Wail E. I (2) Musil, op. cit., p. 285.

(٢١) الجاحظ — البيان والتبيين (باعتناء ، عبد السلام هارون ، القاهرة ١٩٦٠ — ١) ، ج ٢ ، ص ١٣٠ . البلاذري — فتوح ، ص ٤٨٨ ، انساب ، ج ٤ ق ١ ، ص ١٩٠ ، ص ٢٠٢ . الطبري ، س ٢ ، ص ٤٣٣ .

(٢٢) الطبري ، س ٢ ، ص ٤٣٤ . البلاذري — انساب ، ج ٤ ، ق ٢ ، ص ١١٦ .

(٢٣) الطبري ، س ١ ، ص ٢٨٠٤ .

(٢٤) ن. م. ، س ١ ، ص ٢٨٠٥ . البلاذري — فتوح ، ص ٣٥٠ . ياقوت — معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٤٩٢ .

(٢٥) البلاذري — فتوح ، ص ٣٣٤ . الازدي — تاريخ الموصل (باعتناء علي حبيبة ، القاهرة ١٩٧٦) ج ٢ ، ص ١٨٣ ، ص ٣١٢ — ٣١٥ ، ص ٣٣٢ ، ص ٣٥٠ . ياقوت — بلدان ، ج ١ ، ص ٤٩٢ .

(٢٦) البلاذري — فتوح ، ص ١٧٧ .

(٢٧) ن. م. ص ١٧٨ . ياقوت — بلدان ، ج ٤ ، ص ٢٩١ .

(٢٨) الهمداني ، ص ٢٧٥ — ٢٧٦ . الازدي — تاريخ ، ج ٢ ، ص ٣٢٢ — ٣٢٣ ، ص ٣١٤ — ٣١٥ .

(٢٩) الطبري ، س ٢ ، ص ١٨٧٤ .

(٣٠) يشير البلاذري مثلا الى مسالح او حاميات في الابلة والخريبة والعذيب وعين التمر وعلى اطراف الفرات الاوسط ، فتوح ، ص ٣٤٢ — ٣ ، ص ٣٤٦ ، ص ٢٥٤ — ٥ ، ص ٢٥٠ ، ص ٢٧٦ — ٧ ، ص ٣٤١ . وانظر : ابن سعد ،

ج ٧ ، ق ١ ، ص ٧٧ ، ص ١٢١ . أبـو يوسف ــ الخراج (بولاق ١٣٠٢) ، ص ٨٣ ــ ٤ . المسعودي ــ مروج ، ج ٢ ، ص ٢٤٠ ــ ١ .

(٣١) الصولي ــ ادب الكتّاب ، ص ٧٥ . البلاذري ــ فتوح ، ص ٢٦٥ . يحيى بن آدم ــ الخراج ، ص ٤ ، ابـو يوسف ــ الخراج ، ص ٨٥ .

(٣٢) المسعودي ــ التنبيه والاشراف ، ص ٣٨ . ابـو يوسف ــ الخراج ، ص ٢٢ .

(٣٣) تاج العروس ، ج ٢ ، ص ٢٧٠ ــ ١ (نبط) ، ويسمون أيضا الكلدانية . ياقوت ــ بلدان ، ج١ ، ص ٢٤٧ ــ ٨ ، ج ٢ ، ص ١٧٥ . المسعودي ــ مروج ، ج ٢ ، ص ٩٥ وما بعدها .

(٣٤) انظر : يحيى بن آدم ــ الخراج ، ص ٥٧ ــ ٩ .

(٣٥) ن. م. ص ٢٢ ــ ٢٣ . ابـن وحشية ــ الفلاحة النبطية (خط ــ مكتبة احمد الثالث ، رقم ١٩٨٦/١) ، ص ١ ــ ٢ .

(٣٦) المسعودي ــ التنبيه ، ص ٣٩ .

(٣٧) يحيى بن آدم ــ الخراج ، ص ٢٢ ، ص ٤٨ . بحشل ــ تاريخ واسط (باعتناء : كوركيس عواد ، بغداد ، ١٩٦٧) ، ص ٣٦ ــ ٤٠ . الطبري ، س ١ ، ص ٢٠٢٦ ، ص ٢٠٢٨ ــ ٩ ، ص ٢٠٣١ ، ص ٢٠٣٦ .

(٣٨) العسكري ــ الاوائل ، ص ١٣٦ . البلاذري ــ فتوح ، ص ٢٢٦ وبعدها . وانظر : ابـو عبيد ــ الاموال ، ص ١١٣ وما بعدها . الطبري ، س ١ ، ص ١٢٧٠ .

(٣٩) يحيى بن آدم ، ص ٤٥ ، ص ٥١ . البلاذري ــ فتوح ، ص ٢٤٢ ــ ٣ . ابـو عبيد ، ص ٨٢ ــ ٨٣ . قدامة بن جعفر ــ كتاب الخراج (باعتناء : دي خويه) ، ص ١٤٥ .

(٤٠) ذكر وكيع أن داود الطائي تكلم امام الحجاج فقال لـه الحجاج : « الكلام كلام عربي ، والوجه وجه نبطي » مما يشعر بسأن تمييز من يسلم من النبط لم يكن مألوفا . اخبار القضاة ، ج ٢ ، ص ١٧٩ .

(٤١) انظر : المبـرد ــ الكامل ، ج ٢ ، ص ٤٣٦ ــ ٤٤٠ .

(٤٢) انظر : تاج العروس ، ج ٢ ، ص ٢٢١ ، والبلاذري ــ فتوح ، ص ١٧٦ . ويصف سعد بن ابي وقاص بانه « نبطي في جبايته » .

(٤٣) كان عميرة كاتب أشرس بن عبد الله أمير خراسان سنة ١١٠ هـ نبطيا . انظر : البلاذري ــ انساب (خط) ق ٢ ، ص ٢٥٢ .

(٤٤) انظر : رسائل الجاحظ (تحقيق عبد السلام هارون) ج ١ ، ص ٦٦ .

(٤٥) اعتبرت أراضي الحيرة وبانقيا واليس ارض صلح ، وكان اهل هذه القرى يدفعون جزية مشتركة فقط . انظر : البلاذري ــ فتوح ، ص ٢٤٢ ــ ٤ . ابو عبيد ــ الاموال ، ص ٣٩ ــ ٤٢ ، ص ١١٦ ــ ١١٨ . يحيى بن آدم ، ص ٥ . واتبع نفس الاجراء مع عين التمر ، البلاذري ــ فتوح ، ص ٢٤٨ .

(٤٦) كانت تغلب تدفع ضعف الصدقة ، ابو عبيد ، ص ٣٩ — ٤٢ .

(٤٧) المبرد — الكامل ، ج ٣ ، ص ١٠٦٢ — ٣ . ويشير البلاذري الى نساج من بني سابم في الكوفة قال : « وان ما شهدت عسكرا قط ولا اثبت اسي اسم قط في ديوان ، وانما انا نساج » انساب (خط) ، ق ٢ ، ص ٣ .

(٤٨) البلاذري — انساب (خط) ق ٢ ، ص ١٦ . وانظر : يحيى بن آدم — الخراج ، ص ٢٠ .

(٤٩) البلاذري — انساب (خط) ق ٢ ، ص ٣ ، ص ٨٢٢ . الطبري ، س ٢ ، ص ١٦٨٣ — ٤ . ديونيسيوس التلمحري (الترجمة الفرنسية) ، ص ٩٣ .

(٥٠) يقول ابن سعد عن العباس بن مرداس بن ابي عامر : « وكان ينزل بوادي البصرة ، وكان يأتي البصرة ، وروى عنه البصريون ، وبقية ولده ببادية البصرة ، وقد نزل منهم قوم البصرة » ابن سعد ، ج ٧ ، ق ١ ، ص ٢١ .

(٥١) Blachere - Histoire de la Literature, t. 3, pp. 276 - 7.

(٥٢) ابو عبيد — الاموال ، ص ٢٧٦ . ابو يوسف ، ص ١٥ . ابن سعد ، ج ٧ ، ق ١ ، ص ١١٧ — ٨ . الطبري ، س ١ ، ص ٢٣٧٦ ، البلاذري — فتوح ، ص ٢٦٨ — ٢٦٩ ، ص ٣٨٢ ، ص ٤١٩ ، ص ٤٨٠ .

(٥٣) البلاذري — فتوح ، ص ٢٤٣ — ٤ . ابو عبيد — الاموال ١١٦ . يحيى بن آدم ، ص ٥١ . وأكد عمر بن عبد العزيز على أن أهل الحيرة من يهود ونصارى ومجوس لا يدعون الا الصدقة بعد اسلامهم ، « فمن أسلم ... فعليه في مال الصدقة » . الصولي — ادب الكتاب ، ص ٧٥ .

(٥٤) انظر : المبرد — الكامل ، ج ١ ، ص ٤٣٩ — ٤٠ .

(٥٥) الطبري ، س ٢ ، ص ١٦٤٨ .

(٥٦) ن. م. س ٢ ، ص ٩٧٧ .

(٥٧) ن. م. س ٢ ، ص ١٠١٨ قرية الاعراب .

(٥٨) الازدي — تاريخ الموصل ، ج ٢ ، ص ١٣٩ ، ص ٢٨٧ .

(٥٩) ديونيسيوس التلمحري — تاريخ ، ص ٤٧ ، ص ٨٩ ، ص ١١٤ ، ص ١٢٩ .

(٦٠) ن. م. ص ٤٧ .

(٦١) ن. م. ص ٩٤ .

(٦٢) انظر : الجاحظ — بيان ، ج ٢ ، ص ٧١ . يقول الجاحظ : « وزعم ابو العاص انه لم ير قرويا قط لا يلحن في حديثه ، وفيما يجري بينه وبين الناس » بيان ، ج ٣ ، ص ١٠٦ .

(٦٣) يقول الجاحظ : « وقد يتكلم المغلاق الذي نشأ في سواد الكوفة بالعربية المعروفة ويكون لفظه متخيرا فاخرا، ومعناه شريفا كريما، ويعلم مع ذلك السامع

لكلامه في مخارج حروفه انــه نبطي » رسائل الجاحظ (هارون) ج ۱ ، ص ٦٦ .

(٦٤) انظــر : Ryckmans - Arabie Meridionale, p. 67, pp. 71 - 2

(٦٥) ابــو عبيدة ــ النقائض (تحقيق بيفان) ص ٤٢٤ . تــاج العروس ، مادة (ولاء) ، وانظر : البلاذري ــ انساب ، ج ۱ ، ص ۱٥٧ ، ص ۱۸٦ ، ۱٦٢ .

(٦٦) انظر : ابــن هشام ــ السيرة ، ج ٢ ، ص ١٤٩ .

(٦٧) البلاذري ــ انســـاب ، ج ۱ ، ص ۱٦٢ ــ ٣ من عطاء خثعم والاصابة .

(٦٨) الطبــري ، س ۱ ، ص ٢٥٢٨ ، ص ٢٥٦٢ . البلاذري ــ فتوح ، ص ۱۸۰ . الانســـاب ، ج ٤ ، ت ٢ ، ص ۱۰۷ ، ص ١١٢ . الانساب (خــط) ق ۱ ، ص ۸۸۳ ــ٤ .

(٦٩) الطبري ، س ۱ ، ص ٢٥٢٨ . انظــر : السرخسي ــ المبسوط (القاهرة ١٩٢١) ، ج ۸ ، ص ۸۱٥ .

(٧٠) الطبري ، س ۱ ، ص ٢٠٢٨ ــ ٩ ، ص ٢٠٣١ ، ص ٢١٢٢ ، ص ٢١٦٧ ، ص ٢١٧٠ .

(٧١) انظر : الطبري ، س ٢ ، ص ٧٤٨ ، ص ٧٥٠ .

(٧٢) اليعقوبي ، ج ٢ (ط . هوتسما) ص ١٠٥٨ . صالح العلي ــ التنظيمات الاجتماعية في البصرة ، ص ٦٥ .

(٧٣) البلاذري ــ الانســـاب ، ج ٤ ، ق ٢ ، ص ۱۸۰ ، ص ۱۸٥ . ابــن سعد ، ج ٣ ، ق ۱ ، ص ٢٦٠ . يقــول الشيرازي عن عبد اللــه بن ابي اسحق انــه « مولى آل الحضرمي وهــم حلفاء بني عبد شمس بن عبــد مناف ، والحليف عند العرب مولى » . طبقــات الفقهاء ، ص ٣٧ .

(٧٤) الطبري ، س ٢ ، ص ٨٣٤ ــ ٥ . كون البعض مثــل عباد بن زياد ، والمختار وسليمان بــن هشام بن عبد الملك كتائب من الموالي . انظــر الطبري س ٢ ، ص ٥٢٣ ــ ٤ . البلاذري ــ انســـاب ، ج ٥ ، ص ۱٣٦ ، فتوح ، ص ٤٢٦ . انساب (خــط) ق ٢ ، ص ٤٣ ، ص ٢٦ . ابن سعد ، ج ٥ ، ص ١٥٠ .

(٧٥) انظر : البلاذري ــ انساب (خــط) ق ۱ ، ص ٥٩٦ .

(٧٦) حينما وعــد اشرس امير خراسان (١١٠ هـ) اعفاء مــن يسلم من الجزية واقبل الناس علــى دخول الاسلام « فجاء دهاقين بخارى الــى اشرس فقالوا . ممن ناخذ الخراج وقد صار الناس كلهم عربــا ! » الطبري س ٢ ، ص ١٥٠٥ ــ ٦ .

(٧٧) البلاذري ــ انساب (خــط) ق ٢ ، ص ٧٥٠ .

ولـمـا تمنى العريان صاحب شرطة خالد القسري عليه منع الموالــي من استعمال العربية ، اجاب مولى بلهجة ساخــرة « اما الكلام فلــن يتكلم الا بالزنجية ! » البلاذري ــ أنساب (خــط) ق ٢ ، ص ٢٨٤ .

(٧٨) الخصائص لابن جني ، ج ١ ، ص ٢٣٩ — ٢٤٠ ، ابو الطيب — مراتب ، ص ٥ (المصريين) . أنظر : الاغاني (دار الكتب) ج ١٤ ، ص ٢٨٨ .

(٧٩) لسان العرب ، مادة « عرب » .

(٨٠) البلاذري — انساب (خط) ق ٢ ، ص ١٢٥٨ ، ص ١٧٧ .

ومع أن الولاء لا يساوي النسب تماما ، فانه قد يؤدي الى الاندماج في الجماعة العربية « الاسلامية » . انظر ، الخلاف حول نسب ابراهيم النخعي في المبرد ، ج ٣ ، ص ١١٨٤ . وجاء في ابن سعد على لسان سعيد بن جبير — « وقال لي ابن عباس : ممن انت ؟ قلت من بني أسد ، قال : أمن عربهم أو مواليهم ؟ قلت : لا ، بل من مواليهم ، قال : فقل انا ممن أنعم الله عليه من بني أسد » . الطبقات ، ج ٦ ، ص ١٩٨ .

(٨١) جاء في البلاذري ، أن هشام بن عبد الملك سأل رجلا من بني مخزوم (اخواله) : « يا خال ! اتقرأ كتاب الله ؟ قال : اقرأ منه ما اقيم به صلاتي ، قال : اتروي من الاشعار شيئا ؟ قال : لا ، قال : اتعرف من احاديث العرب واشعارها وأيامها ما يعرفه مثلك ؟ قال : لا ، قال : أفتنسب قريشا وسائر بني نزار ؟ قال : لا احسن من النسب شيئا . قال : يا غلام ... فليس من خالنا حشمة » . انساب (خط) ق ٢ ، ص ٢٤٠ . وانظر : الجاحظ — البيان ، ج ٢ ، ص ١٨٠ .

(٨٢) ان استقراء اسماء من ترجم لهم (من فترة صدر الاسلام) في مؤلفات مثل طبقات ابن سعد ، واخبار القضاة لوكيع ، وطبقات الفقهاء للشيرازي ، وتذكرة الحفاظ الذهبي ، ونزهة الالباء في طبقات الادباء للانباري ، يبين أن الموالي كانوا اقلية — حوالي ٢٥ — ٣٠٪ .

(٨٣) يروي الاعمش عن هلال بن يسار « قال : قدمت البصرة فدخلت المسجد فاذا انا بشيخ أبيض الراس واللحية ، مستند الى اسطوانة في حلقة يحدثهم ، فسألت من هذا ؟ فقالوا عمر بن الحصين » (ت سنة ٥٣ هـ) ابن سعد ، ج ٧ ، ق ١ ، ص ٥ .

(٨٤) انظر : ابن سعد ، ج ٦ ، ص ٥١ — ٥٢ ، ص ٥٤ ، ص ٥٥ ، ص ١٧٣ ، ص ١٩٢ ، ص ٢١٩ ، ص ٢٣٦ . الطبري س ٢ ، ص ١٦٦٦ .

(٨٥) في الذهبي — معرفة القراء الكبار (القاهرة ١٩٦٧) ج ١ ، ص ٤٦ « فكنا نتعلم القرآن والعمل به » . وانظر : ص ٤٨ ، ص ٧٣ — ٧٤ . وأنظر الشيرازي — طبقات الفقهاء (باعتناء احسان عباس ، بيروت ١٩٧٠) ص ٤٣ ، ص ٤٤ ، ص ٤٦ ، ص ٥١ .

(٨٦) البلاذري — انساب (خط) ق ٢ ، ص ٧٥٥ ، ص ٧٦١ . وأنظر : ابن سعد ، ج ٤ ، ق ٢ ، ص ٢٧ . الذهبي — القراء الكبار ، ص ٣٤ ، ص ٣٧ — ٩ .

(٨٧) البلاذري — انساب ، ج ٥ ، ص ٣٦ .

(٨٨) الشيرازي — طبقات الفقهاء ، ص ٨١ ، وانظر : البلاذري — انساب (خط) ق ٢ ، ص ٧٥٥ ، ج ٥ ، ص ٣٦ . ابن سعد ، ج ٦ ، ص ٤ ، ص ٥ ، ص ٧ ، ص ٨ ، ص ٦٣ ، ج ٧ ، ق ١ ، ص ١٦٣ . السجستاني — المصاحف ، تحقيق

جعفري) ، ص ١٣ — ١٥ . الاصبهاني — حلية ، ج ١١ ، ص ٦٤ . الذهبي —
القراء الكبار ، ج ١ ، ص ٣٤ ، ص ٣٨ — ٩ .

(٨٩) وقد رشحهم أبو موسى لشرف العطاء ، ابن سعد ، ج ٧ ، ق ١ ، ص [illegible] .
واقترح سعد بن ابي وقاص جعلهم في الفين ، البلاذري — فتوح ، ص ٤٥١ .
جاء رسول مصعب بن الزبير الى عمرو بن النعمان بن مقرن (في الشرطة)
بمال فقال له : الامير يقرئك السلام ويقول : انا لم ندع بالكوفة قارئا الا وصله
فاله معروفنا فاستعن على نفقة شهر رمضان بهذا . فقال : وعلى الامير السلام ،
قل له انا والله ما قرانا القرآن لنطلب به الدنيا ، ورده عليه » . البلاذري —
انساب ، ج ٥ ، ص ٢٨٦ .

(٩٠) انظر مثلا : الطبري ، س ١ ، ص ٢٢٧٣ ، ص ٢٢٨٣ ، س ٢ ، ص ١٠٠٦ ،
ص ١٠٧٢ ، ص ١٠٧٦ — ٧ . ابن سعد ، ج ٦ ، ص ٤٦ ، ص ١٢٧ ، ص ١٠٤ ،
ص ٢١٦ ، ص ٥٣ ، ج ٧ ، ق ١ ، ص ٦٥ . البلاذري — انساب (مخطوط) ،
ق ٢ ، ص ٣٠ — ٣١ ، ص ٥٤ . المبرد — الكامل ، ج ٢ ، ص ١١٢٧ ، الذهبي —
القراء الكبار ، ج ١ ، ص ٦٢ — ٦٣ ، ص ٧٦ .

(٩١) الطبري ، س ١ ، ص ٢٠٩٢ . البلاذري — انساب (مخطوط) ، ق ٢ ، ص ٣٢٥ .
ابن سعد ، ج٧، ق ١ ، ص ١١٤ ، ص ١٤٠ ، ج ٧ ، ق ٢ ، ص ٢١ ، ص ١٧١ .
وانظر : الذهبي — القراء الكبار ، ص ٦٨ .

(٩٢) ابن سعد ، ج ٦ ، ص ٢٢٣ — ٢٢٤ . الذهبي — القراء الكبار ، ج ١ ،
ص ٤٤ — ٥ .

(٩٣) ابن سعد ، ج ٦ ، ص ٤ ، ص ٧٤ ، ج ٧ ، ق ١ ، ص ١١٤ . الاصبهاني —
حلية ، ج ٢ ، ص ٩٨ — ٩٩ . الذهبي — القراء الكبار ، ج ١ ، ص ٥٦ ،
ص ٦٢ — ٣ ، ص ٧٥ ، ص ٧٩ .

(٩٤) ابن سعد ، ج ٦ ، ص ٥ ، ص ٦٣ . الذهبي — تذكرة الحفاظ (دار المعارف
العثمانية ١٣٣٣ — ٣٤) ج ٨ ، ص ١٠٦ . وانظر : الشيرازي — طبقات
الفقهاء ، ص ٨٠ ، ص ٨١ ، ص ٨٢ — ٨٣ ، ص ٧٩ . الذهبي — القراء الكبار ،
ص ٥٤ .

(٩٥) ابن سعد ، ج ٢ ، ق ٢ ، ص ١٢٨ ، ١٢٩ .

(٩٦) انظر : الذهبي — القراء الكبار ، ج ١ ، ص ٥٣ ، ص ٥٤ ، ص ٥٦ ، ص ٦٢ —
٦٢ ، ص ٩٣ .

(٩٧) انظر : الطبري ، س ١ ، ص ٢٢١٢ ،

Bravamann - Spiritual Background of Early Islam, pp.169 off, pp. 176off.

(٩٨) ابو زهرة — المذاهب الفقهية ، ص ٢٧ وما بعدها ، ص ٢٦ وما بعدها . وانظر :

Schacht - Origins of Muhammadan Jurisprudence (Oxford 1959),
pp. 25 off., pp. 82 off.

(٩٩) Schacht - Introduction to Law, pp. 16 off. P. 233 , P. 237 , P. 247

(١٠٠) انظر : فؤاد سزكين — تاريخ التراث العربي ، ج ١ ، ص ٢٢٦ وما بعدها ، ص ٢٥٤ ، ص ٢٦٠ ، ص ٢٧١ وما بعدها .

(١٠١) انظر : ابن حجر — تهذيب ، ج ١٢ ، ص ٩٩ ، طلب عمر بن عبد العزيز من ابي بكر بن حزم كتابة « ما كان من حديث رسول الله او سنة ماضية او حديث عمرة » . اليافعي — مرآة الجنان ، ج ١ ، ص ٢٦١ . الدوري — علم التاريخ عند العرب ، ص ١٠٠ — ١٠١ . الرامهرمزي — المحدث الفاضل (بعناية محمد عجاج الخطيب) ص ٤٢٣ ، ص ٤٣٠ .

(١٠٢) سزكين ، ج ١ ، ص ٢٢٩ — ٢٣٠ .

(١٠٣) انظر : ابن سعد ، ج ٢ ، ق ٢ ، ص ١٢٤ . الطبري — تفسير ، ج ٧ ، ص ١٢٩ . ابن حجر — الاصابة (القاهرة ١٩٣٩) ، ج ٢ ، ص ١٤٠ . الف ابن عباس كتاب لغات القرآن (نشر باعتناء المنجد ، القاهرة ١٩٤٦) .

(١٠٤) انظر : الجاحظ — الحيوان ، ج ١ ، ص ٣٤٣ . وعرف مجاهد (ت ١٠٤/٧٢٢) باستعمال الرأي . سزكين ، ج ١ ، ص ١٧٦ وما بعدها . جولد تسيهر — المذاهب الاسلامية في تفسير القرآن ، ص ٧٥ وما بعدها ، ص ٦٨ — ٨٨ .

(١٠٥) سزكين ، ج ١ ، ص ١٩٧ وما بعدها ، بروكلمان — تاريخ الادب العربي ، ج ٤ ، ص ١٧٣ وما بعدها .

(١٠٦) انظر : بلاشير — تاريخ الادب العربي . شوقي ضيف — التطور والتجديد في الشعر الاموي (ط ٥ ، ١٩٧٣) .

(١٠٧) الجاحظ — البيان ، ج ١ ، ص ١٩ . انظر : السيوطي — المزهر ، ج ٢ ، ص ٣٧٦. الزبيدي — طبقات النحويين (باعتناء ابي الفضل ابراهيم ، القاهرة ١٩٥٤) ، ص ١٤ . الانساب ، ج ٤ ، ق ١ ، ص ١٨١ . ابو الطيب — مراتب ، ص ٥ .

(١٠٨) يقول ابو الطيب : « ان اول ما اختل من كلام العرب فاحوج الى التعليم الاعراب ، لان اللحن ظهر في كلام المولدين والمتعربين بعد عهد النبي » . مراتب النحويين (ابو الفضل ابراهيم ، القاهرة ١٩٥٧) ، ص ٥ . وانظر : السيوطي — المزهر ، ج ٢ ، ص ٣٧٦ . والزبيدي — طبقات النحويين (باعتناء ابي الفضل ابراهيم ، القاهرة ١٩٥٤) ، ص ١٤ .

ويروي السيرافي ان ابا الاسود قال لزياد : « اني رايت العرب قد خالطت الاعاجم وتغيرت السنتهم .. » انظر : اخبار النحويين البصريين (باعتناء كرنكو) ص ١٧ — ١٨ . وانظر : البلاذري — انساب ، ج ٤ ، ق ١ ، ص ١٨٩ عن اللحن أيام زياد . ويشير بحشل ، تاريخ واسط ، ص ٤٦ الى الاختلاط في الكوفة والبصرة . ويتحدث المبرد من عدد من العرب البارزين ممن عرفوا بلكنتهم الاعجمية (مثل عبيد الله بن زياد ، وزياد الاعجم) الكامل ، ج ٢ ، ص ٥٨٥ — ٦ . وانظر : الزبيدي — طبقات ، ص ١٤ . وكان زياد يقول : « اذا لم يجد احدكم سعة لتزوج من يرغب فيه لموضعة فليتزوج سبية » . البلاذري — انساب ، ج ٤ ، ق ١ ، ص ١٨١ .

(١٠٩) الطبري ، س ١ ، ص ٢٨٠٣ — ٤ .

(١١٠) الزبيدي — طبقــات النحويين ، ص ١ — ٢ .

(١١١) أنظر : فوك — العربيــة ، ص ٢٩ — ٣٠ .

(١١٢) أنظر : عبــد العال سالم مكرم — القــرآن الكريم واثره في الدراسات النحوية ، ص ٤٨ ومــا بعدها . ابن النديم — الفهرســت ، ص ٥ ،

Haywood - Arab Lexicography, p. 25 off.

الزبيدي — طبقــات ، ص ١٢ — ١٤ ، السيوطي — المزهــر ، ج ٢ ، ص ٣٩٨ . الداني : نقط المصاحف (دمشق ١٩٦٠) ص ١٢٢ — ٣ . وينسب البعض نقط الاعجام الى نصر بن عاصم (٧٠٧/٨٩) ، انظر : المصاحف للسجستاني ، ص ١١٨ . الذهبي — معرفة القراء الكبار ، ج ١ ، ص ٤٩ ، ص ٥٨ . وجاء في الذهبي « قال خلف بن هشام كنت احضر بين يدي الكسائي وهو يقرأ على الناس وينقطون مصاحفهم بقراءته عليهــم » . معرفة القراء الكبار ، ج ١ ، ص ١٠١ ، وانظــر ص ١٠٢ . ابــو الطيب — مراتب ، ص ٨ .

(١١٣) السيرافي — اخبــار ، ص ٢١ وما بعدها ، السيوطي — المزهــر ، ج ٢ ، ص ٤٠٠ . الذهبي — القراء الكبــار ، ج ١ ، ص ٧٣ — ٥ ، ص ٨٤ ، ص ١٠١ ، ص ١٠٦ . شوقي ضيف — المدارس النحويــة ، ص ١٨ .

(١١٤) معرفة القــراء الكبار ، ص ١٠١ . وانظــر : الزبيدي — طبقات ، ص ٢ . ابــو الطيب — مراتب ، ص ٢٤ ، ص ٢٥ ، ص ٢٦ ، ص ١٢٧ ، ص ١٦٥ . السيوطي — المزهــر ، ج٢ ، ص ٣٠٢ .

(١١٥) وهكــذا وقف ابو عمرو بن العــلاء وتلميذه يونس بــن حبيب الى جانب السماع . وانظر : السيرافي — اخبــار ، ص ٢٥ ، ص ٣٣ — ٤ . شوقي ضيف — المدارس النحويــة ، ص ١٩ — ٢٠ .

(١١٦) تتمثل نظرة الكوفــة في القول : « كل مــا كان لقبيلة قيس عليه » ، السيوطــي — المزهــر ، ج ١ ، ص ٧٥٨ . انظر : احمــد امين — ضحى الاسلام (ط ٧ ، القاهرة ١٩٣٥) ، ج ٢ ، ص ٢٨٣ وما بعدها . شوقي ضيف ، ص ١٥٧ — ١٦١ .

(١١٧) قــال عاصم بن ابي النجود الاســدي (القارىء) : « من لم يحسن من العربية الا وجها واحدا لــم يحسن شيئا » . الذهبي — معرفة القراء الكبــار ، ص ٧٥ . انظر : شوقي ضيف — المــدارس النحوية ، ص ١٩ ، ص ١٥٧ — ١٥٨ .

(١١٨) انظر البلاذري — انساب (خــط) ق ٢ ، ص ٨٣٦ — ٣٧ ، ص العقل الغربي .

(١١٩) الجاحظ — بيــان ، ج ١ ، ص ٢١١ ، والمرزباني — مختصر ، ص ٢٦ — ٢٧ ، ص ٢٥ . بلاشــير — تاريخ الادب العربي ، ج ١ ، ص ١٢٢ ، وانظــر : نهاد الموسى — ابــو عبيدة معمر بن المثنى (رســالة دكتوراة خطية) ، ص ٨٢ ، ومــا بعدهــا .

(١٢٠) ابــو الطيب — مراتب ، ص ٣٩ — ٤٠ . الذهبي — القراء الكبــار ، ج ١ ، ص ٨٣ ومــا بعدها . السيوطي — المزهــر ، ج ٢ ، ص ٤٠١ . يقول السيرافي عن يونس بــن حبيب : « وقد سمع من العرب كما سمع من قبلــه ... وكانت

حلقاته والبصرة وبتاتها أهل العلم وطلاب الادب وفصحاء الاعراب والبادية » .
أخبار النحويين البصريين ، ص ٢٣ — ٢٤ .

(١٢١) انظر : المخزومي — مدرسة الكوفة ، ص ٧٩ وما بعدها . شوقي ضيف المدارس النحوية ، ص ١٥٥ وما بعدها . بروكلمان — تاريخ الادب ، ج ٢ ، ص ١٢٨ ، ص ١٧٩ وما بعدها .

(١٢٢) أبو الطيب — مراتبه ، ص ٢٠ — ١ .

Haywood, op. cit. p. 24 off., p. 68 off.

(١٢٣) ذكر المبرد : « قال معاوية يوما : من أفصح الناس ؟ فقام رجل فقال : قوم تباعدوا عن فراتية العراق وتيامنوا من كشكشة تميم وتياسروا عن كشكشة بكر ، ليس فيهم غمغمة قضاعة ولا طمطمانية حمير » ، الكامل ، ج ٢ ، ص ٥٨١ .

(١٢٤) الجاحظ — البيان ، ج ٢ ، ص ٢٠٦ . وانظر : ج ١ ، ص ٣٦٨ .

(١٢٥) بحشل — تاريخ واسط ، ص ٢٦ .

(١٢٦) يقول الجاحظ : « ولم أجد في خطب السلف الطيب والاعراب الاقحاح الفاظا مسخوطة ولا معاني مدخولة ولا قولا مستكرها ، واكثر ما تجد ذلك في خطب المولدين وفي خطب البلديين المتكلفين ، ومن اهل الصنعة المتأدبين » ، البيان والتبيين ، ج ٢ ، ص ٨ — ٩ .

(١٢٧) انظر : Fuck - Arabiya (Paris 1955), p. 9 off.

(١٢٨) انظر : الدوري — بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب . روز نتال — علم التاريخ عند المسلمين . جسب — دراسات في حضارة الاسلام ، مقال : التاريخ .

الأندلس في المغرب

عيسى الناعوري

في عـام ١٩٦٧ ، وفي مؤتمر الدراسـات الاسبانية / الاسلامية في قرطبة ، التقيتُ بالاستـاذ المؤرخ والاديب المغربي عبد اللـه كنّون ، وكـان بيننا حديث علـى الاندلس ، وعلى روائـع الفنون المعمارية والزخرفية فيه . وكنت اظن ان هذه الفنون قـد جمدت على ما خلّفه عرب الاندلس في اسبانيـا . غير ان الاستاذ كنّون اكّد لـي ان هذه الفنون لم تَجمُـد ، بل هي تعيش الآن وتتطوّر في المغـرب بازهى واحدث مما هي في الاندلس . ودهشتُ لذلك ، وحَسِبتُ انـه من قبيل المفاخرة الوطنية .

ثـم اتيح لي ان ازور المغرب عـام ١٩٧٤ بحثًا عن اثـر الفنون الاندلسية هناك : من طـراز معماري ، ومن زخرفة ونقش ، ومـن غناء وموسيقى ورقص . وقـد قضيتُ في تلك الزيارة واحـدًا وعشرين يوما ، وتجوّلتُ في المـدن الرئيسية : من طنجة غربًا ، الـى وَجْدة شرقًا ، والى مراكش جنوبًا ، وبينهـا زرتُ كذلك الرباط ، ومكناس ، وفـاس ، وتطوان . وفي كـل مدينة قضيتُ يومين او اكثـر ، ازور القصور ، والمسـاجد ، والزوايا ، والمقابر ، والمـدارس القديمة ، والاسـوار والقصبات . وذهلتُ فعلا وانا اعيش جـوَّ الاندلس من جديـد ، ولكنْ بشكل احدث واكثـر تطوّرًا واشـدّ روعة .

كنت قبل زيـارة المغرب أحسَبُ ان فنـون الزخرفة الاندلسيّة قد دخلت الى الاندلس من المغـرب ، مع الفتح الاسـلامي الذي دخل من المغرب ، ولكنني تيقّنتُ بعـد زيارة المغرب من ان هـذه الفنون المدهشة انما دخلت الـى الاندلس مع الأمويين ، الذين حملوهـا معهم من دمشق ، بعـد ان كانت دمشق قـد اخذتها عن القاشاني الفارسي ، ومـن

البيزنطيين ، وطبعتها بطابَـع دمشقيّ خاص . ثـم تطوَّرتْ في إسبانيا مع الأيام ، ولـم تدخل الى المغرب الا في عهـد المرابطين ، في القرن الحادي عشر الميـلادي ، الخامس الهجري ، بعـد ان ضَمَّ يوسف بـن تاشفين الاندلس الـى المغرب ، فاصبح البُلدان بلـدًا واحدًا . وبذلك احتضن المغربُ الفنـونَ الاندلسيَّة منذ ذلك الحـين . وحين خرج العرب من الاندلس في القـرن الخامس عشر الميلادي هاربين الى بُلدان المغرب ، حملوا معهم فنونهـم ، وظلّوا يمارسونها هناك . ومـذ ذاك راحت تتطوَّر مـع الزمن الى يومنا هـذا .

والواقع ان الذي يريـد دراسة الفنون الاندلسيـة كلها ، ومنها الغناء ، والرقص ، والموسيقى ، لا بُـدَّ له من زيارة المغـرب ، والتجوّل في مختلف مُدنـه ؛ فالاندلس تعيش هنـاك باجمل ما في فنونهـا الرفيعـة الخالـدة .

وفي مـا يلي اُدوِّن ما شاهدتُه واُعجِبْتُ بـه في عدد من اهمّ المـدن المغربيـة مع شيء مما لا بـدّ منه من الربط التاريخي :

— ١ —
سَبْتَة وطَنجة

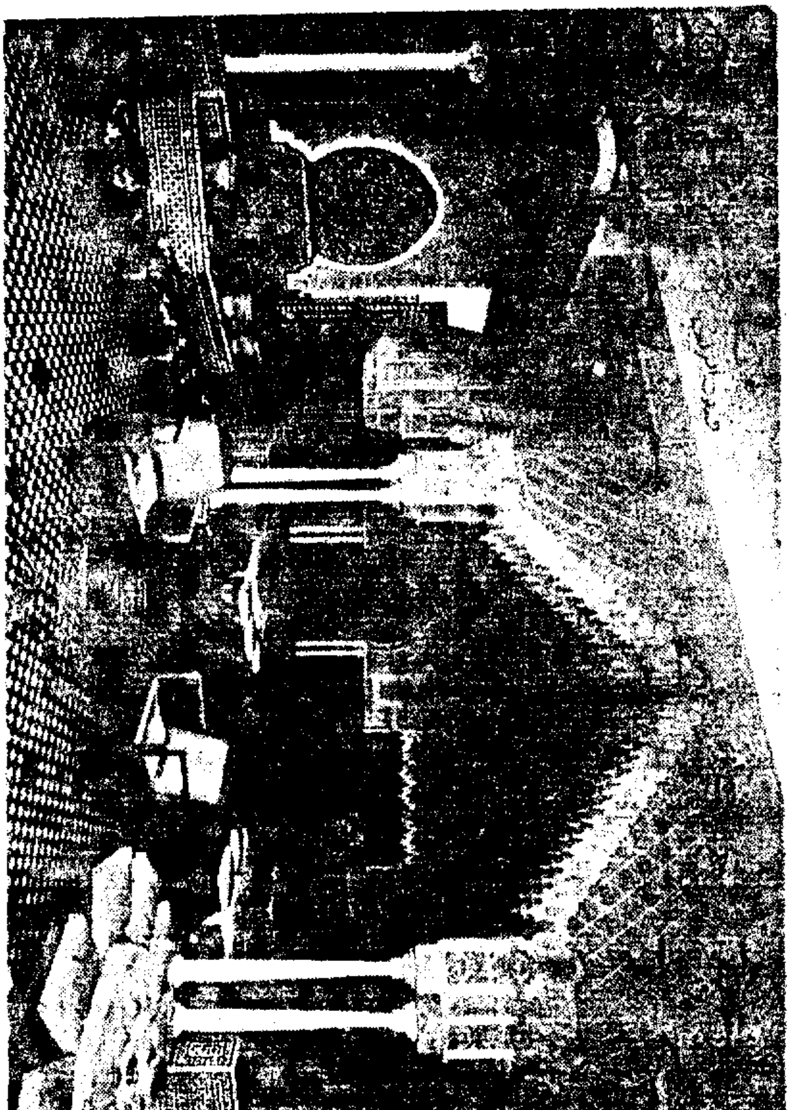
في الزاوية الشمالية الغربية من المملكة المغربية ومن القارة الافريقية ، وعلى شاطيء البحر المحيط والبحر المتوسط معا ، تقوم مدينة طنجة ، وعلى مسافة قريبة منها الى الشرق تقع مدينة سَبْتَة ايضا . وبين المدينتين العريقتين ينتصب شامخًا جبل موسى ــ نسبةً الى موسى بن نصير ــ ويقابله على العُدْوة الاسبانية ، شامخًا متغطرسا ، جبل طارق . وكان هٰذان الجبلان والجبالُ العالية المتقابلة بينهما ، ومن حولهما ، تُدعى باسم (اعمدة هرقل) . وهي تتقابل متمرِّدَةً على جانبَي ما كان يُدعى مِن قَبْلُ (بحر الزقاق) او (بحر المجاز) ، ويُدعَى اليوم (مضيق جبل طارق) . وانما كانت تسميته بالزقاق او المجاز لضيقه ، فهو ضَيِّقٌ صغير ، لا تزيد ابعدُ مسافة فيه بين العدوتين عن ثلاثة عشر كيلو مترا .

اما تسمية الجبال المتقابلة الجبّارة باسم (اعمدة هرقل) فلها اسطورة قديمة،تقول إنَّ الارض كانت مُتَّصلة بين المغرب واسبانيا ، وكانت تَفصِل بين مياه الاطلنطي والمتوسّط . ثم تَزَوَّجَ هرقل ، وجاء بزوجته الى طنجة . ولئلاّ يتمكّن احدٌ من الوصول اليها وسَلْبه اياها ، شَقَّ الارض بين القارّتين ، وانشا بينهما الزقاق المائي ، واسلمَ الماءَ بالماء ، واقام الجبال الشاهقة حارسة على طرفي الماء ، فدُعيت هذه الجبالُ المارِدة باسم (اعمدة هرقل) .

وفي طنجة مغارة هائلة على البحر تُدعى (مغارة هرقل) حَفَرتْها امواجُ البحر القويّة التي ظلَّت تضرب اطراف الجبال قرونا لا حصر لها .

ويقف المرء على شاطيء طنجة وسبتة ، فيرى البواخر والقوارب تَمخَر البحر غاديةً رائحة بين هاتين المدينتين ومُدُن (قادس ، وطريفة ، والجزيرة الخضراء ، وجبل طارق ، ومالقة) على العُدْوة الاسبانية . وحين يقف على سفح جبل موسى ، بين سبتة وطنجة ، وينظر الى

الشمال عبر بحـــر الزقاق ، يُروعُه شموخ صخرة جبـــل طارق ، كأنما أنشقَّ عنها البحـــر ، فتمرَّدت شامخةً فـــوق تيجانِ الغيوم المتصاعدة مـــن البحـــر .



داخل فندق الريف في طنجة

من هذه البقعـــة انطلقت جيوش الفتح العربـــي الاسلامي لفتح بـــلاد اسبانيا ، مبتدئةً عـــام ٩١ هـ. ، ٧٠٩ م. وكانت هذه البقعة قبـــل الفتح الاســـلامي للمغرب وخلال مُـــدَّةٍ من بدايته ، ذاتُ صلة متينة باسبانيا ، فقد كانـــت سبتة في عهد عقبة بـــن نافع ، ثم موسى بـــن

نصير من بعده ، في ايــدي الاسبان ، وكان يحكمها بوليان ، الــذي تعاون مع العرب على غـــزو اسبانيا لانقاذها من حكــم عَدُوّه لذريق ، ومهَّــدَ لهم السبيل لفتحها ؛ وسبتةُ اليــوم يحكمها الاسبان ، وكانوا الى عـــام ١٩٥٦ يحكمون الشمال المغربـــيّ كلّه ، وجزءًا من الشاملي، المغربي ، في حين كـــان الفرنسيون يحكمون بقيَّة المغـــرب .

وظلَّت سبتـــة وطنجة مُعْبَرًا طبيعيًّا بـــين المغرب والاندلس ، مثاما هما اليوم المَعْبَرُ بـــين البلدين : منهما عَبَرت سرايـــا طريف بن مالك ، للاستكشاف أولا ، عـــام ٩١ هـ. وعادت بالغنائم الوفـــيرة ، وببشائر سهولة الفتح . ثـــم عَبَرت بعدها جيوش طارق بـــن زياد سنة ٩٢ هـ. وتوغّلت في الجنـــوب الاسباني والغرب ؛ ثـــم تلتها جيوش موسى بن نصير سنـــة ٩٣ هـ. لاستكمال فتح اسبانيـــا والبرتغال وجنوب فرنسا .

ومن هذه البقعة ايضا كـــان الأمويّون يدخلون احيانـــا من الاندلس الى المغرب ، لمنـــع المغاربة من التدخُّلِ في شـــؤون الأندلس . ثُمَّ من هذه البقعة عينهـــا دخَلَتْ فيما بعد جيوش المرابطـــين ، بقيادة يوسف بـــن تاشفين ، مَرَّتين : مرةً لانقاذ إمارات الطوائف مـــن غارات الجيوش الاسبانية ، والمرّةَ الثانية لاحتلال الاندلس برمّتها وضَمِّها الى المغرب . ومن هناك عادت الصلة التامّـــة بين المغرب والأندلس ، واصبحت هـــذه جُزءًا من المغـــرب ، ودخَلَت فنونُ الاندلس الى المغـــرب ، واتّصلت الحضارة بين البلديـــن فصارت واحدة . واستفـــاد المغرب من ذلك فائدة عظيمة ، فقد كانت الأندلس متقدّمةً عليه مـــن حيث العلم والثقافة ، وكان هو متقدِّمًا عليها في القـــوة والسلاح ، « فكـــان هو يبذل للأندلس حمايته ــ كما يقول الاستاذ عبد اللـــه كنّون في الجزء الاول مـــن كتابه (النبوغ المغربي) ــ والاندلس تبذل لـــه ثقافتها ومعارفها » (١) . وحين استولى يوسف بـــن تاشفين على الاندلس ، حمـــلَ ملكَ إشبيلية ، المعتمدَ بـــن عبّاد ، اسيرا مكبّلاً بالقيود الـــى طنجة ، ومنها الى فاس ، ثـــم الى اغمات ــ في الجنوب المغربي ، قرب مراكش ــ حيث مـــات سجينـــا ذليـــلا .

---

(١) النبوغ المغربي ، لعبد اللـــه كنون ، ص ٧١ ، الجزء الاول ــ الطبعة الثانية .

لقـد تأثَّرت طنجة ، مثلما تأثَّـر المغرب كلّه ، بحضارة الاندلس ، وظلَّ هـذا الاثر الى يومنا هذا بارزا في العنايـة البالغة بالهندسة المعماريـة ، والزخارف والنقوش الاندلسيـة ، والمُقرْبَصات الرائعة البارزة في الجبص وفي الخشـب ــ والمقربصات تعني (النقوش المجسَّمة النافرة) وهـي ماخوذة من الكلمـة اللاتينية (CORPUS) التي تُعني (الجسـم) ؛ ويُخطىءُ من يدعوها (المقرنسـات) او (المقرنصات) ، فهي كلّهـا مُجسَّمات نافـرة .

وتعتمد الزخارف الاندلسيـة على قطع الزِّلّيج الخزفية الصغيرة ، ذات الالوان الجميلـة الزاهية ، ولا سيما اللـون الازرق واللون الاخضر ، وذات الاشكال البارعـة الصناعة ، كاوراق الشجـر حينًا ، او باشكال مربَّعة او مثلَّثة احيانـا اخرى . وهي تُلْصَق إلصاقـًا على الجدران ، وتُصْنَع منها صُوَرٌ واشكالٌ فنّيـة غاية في الجمال والرهافة والدقّـة . وقد تُغطَّى بهـا الجدران باكملها ، او قـد يُغطَّى جزءٌ من الجدران الى عُلُوّ معيـن .

وحين تجتمع هـذه الزخارف الخزفيّة الـى المُقْرْبَصات البارزة في السقوف الجبصيّة ، او فـي الخشب ، ورفوف الابواب الدقيقة الصناعة ، تبدو فتنـةً للنظر وبهجةً للقلـب .

هـذا الطراز من الزخارف الزِّلّيجيـة والمقربصات الجميلة ما يزال الاسبانُ الى اليـوم يحافظون عليه في متاحفهـم ، وقصورهم ، وبيوتهم ؛ غير ان الحفاظ عليـه في المغرب اشدُّ واعظم ، واكثـرُ اتّساعا : فقصورُ المغرب كلُّها ، ومَسـاجدُهُ ، وفنادقه ، والكثيرُ من بيوتـه ، هي قطع روائع من الفـنّ الاندلسي الساحر .

في طنجة ذهبتُ لزيـارة الصديق عبد اللـه كنّون في منزله في القصبة ــ وهي مدينـة طنجة التاريخية القديمة ــ فراعني ما شاهدتُ في المنزل من جمـال النقوش والزخارف الأندلسيـة : من مدخل الدار ، الى بَهْوها السفلي ، الـى السُلَّم الصاعدة الى الطابـق الثاني ، الى ما رايته من غـرف المنزل ، وطراز اثاثها . كـلُّ شيء فيه اندلسي ،

حتى طراز الفـــراش ، والستائر ، والمقاعـــد الممدودة على الارض ، او المرتفعة علـــى مساطب مفروشــــة .

ومثل منزل عبد اللـــه كنّون ، بل اكثر زخرفة ، كـــان كذلك الفندق المعروف باســـم (فندق الريف) ، ففي قاعاته آيـــاتٌ باهراتٌ من هذه النقوش والزخـــارف الاندلسية .

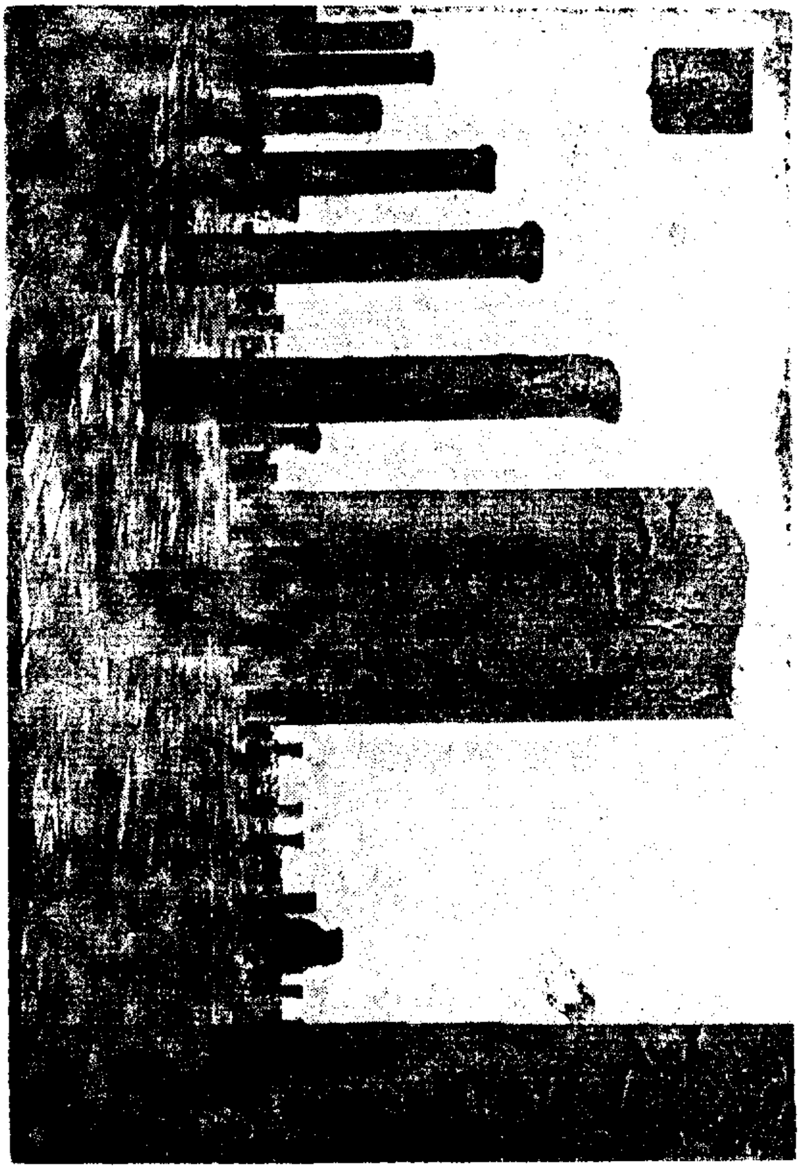
وتنتقل من هنـــاك لتتجوَّلَ في (القصبة) المطِلّـــةِ على البحر ، والمحاطةِ بالاســـوار العالية ، فتتخيَّلُ انك في احـــدى قصبات الاندلس ؛ والقصبةُ كانت مِن قبلُ مَقَـــرَّ الحاكم ، وفيها دوائر الدولـــة ، وثكنات الجيش . وفي طنجة مـــا تزال القصبة يبدو عليها القـــدم ، في البيوت ، والشوارع ، الا مـــن بعض الأبنية الحديثة التي تكـــاد لا تبدو فيها . واسوارُها شبيهة باســـوارٍ كثيرة ما تزالُ قائمة في العديد من المـــدن الاندلسية . الطراز واحـــد ، والنتوآت المدبَّبَة في اعلـــى الاسوار والأبراج واحدة . ولا عجب فـــي ذلك ، فقد تعاقب على حُكْـــم الاندلس من المغاربة ــ من القـــرن الحادي عشر الميلادي الـــى اواخر القرن الخامس عشر ــ المرابطون ، والموحِّدون ، والمَرينيُّون ، الذيـــن في اواخر عهدهم خرج العرب نهائيـًّا من الاندلس . وكلٌّ هؤلاء تركوا آثـــارا متشابهة في الأندلس والمغـــرب معًا ، وكلُّهم شيَّدوا القلاع والحصـــون والقصبات والقصور ، وبنـــوا المساجد والاسوار ، واسّســـوا المدارس في عُدْوَتي بحـــر الزقاق . وكثيرٌ من هذه الآثار مـــا يزال قائما الى اليوم علـــى الأرض المغربيّـــة والأرض الاسبانيّـــة .

واما الغناء الاندلســـي والموسيقى فما يزالان يعيشـــان كذلك في طنجة ، وفي المغرب برمّتـــه.والمغاربة يدعونه باسمـــه الحقيقي : (الغناء الاندلسي) ، في حـــين يدعوه التونسيون والليبيون باســـم آخر ، هو (المـــالوف) . والمغاربة يقيمون حفلات الغنـــاء الأندلسي باستمرار في كلّ مكان من الارض المغربيـــة ، باعتباره فنـّـا لهم فيه حِصَّة ، ولهم في بقائه نصيب ؛ فهـــو لذلك بعضٌ من التراث الشعبي المغربـــي .

— ٢ —

الربـــاط

من طنجة ننحدر — مع الخريطـــة الجغرافية ، لا مـــع التاريخ — جنوبا ، لنصل الى مدينة الربـــاط ، عاصمة المملكة المغربيـــة اليوم ، وجارة مدينة (ســـلا) على شاطىء الاطلنطي ، لا يفصـــل بينهما غير نهر



مئذنـة حسـان فـي الرباط

ضحل الميـــاه ، قليل العرض ، هو نهـــر (بورقراق) . وفي (سلا) تُوفِّيَ الملك عبـــد المؤمن ، اول ملوك الموحّديـــن .

وقبل ان ابـدا الحديث على الرباط ، ارى ان اذكـر ان جارتها (سـلا) مدينةٌ اندلسية،بمعنى انَّ سُكّانهـا من اصل اندلسي ، نزحوا من الاندلس فعمروها ، واقامـوا يمارسون فيها اساليب حياتهـم ، وعاداتهم وتقاليدهم ، وصناعاتهـم الاندلسية ، مثلما فعـل إخوانٌ لهم خرجوا من الاندلس ، وانشـأوا مدينة تطوان ، وبعض المـدن المغربية الاخرى ؛ وكانت سـلا من قبل مدينة رومانية عريقة . فهي من المـدن المغربيـة القديمـة .

ولكنّني لـن اقفَ طويلا عند مدينة سـلا ، وقد زُرْتُها وتجوَّلْتُ فيها ، فلم اجـد فيها من مظاهر الفنـون الأُندلسية الا القليل الذي لا يستحقّ الوقوف عنده،بالنسبة الى ما شاهَدْتُه في المـدن الاخرى الكبيرة.

وامـا مدينة الرباط ، او « رباط الفتح » ، كما كـان اسمها ، فتزخر بالكثير جـدًّا من مظاهر الفنون الأندلسية بشكـل يسترعي النظـر ، ويستوقف الزائـر للتامل والاعجاب .

هذه المدينة بناهـا سلطان الموحّدين الأشهـر يعقوب المنصور ، سنة ١١٩٨ م. ٥٩٣ هـ. وانشا فيها مسجد حَسَّان وصومَعَته ـ مئذنته ـ اخت مئذنة (الكُتُبِيَّة) فـي مراكش ، ومئذنةِ (الخيرالـدا) في اشبيلية ، بالاندلس ، وكلُّها مـن اعماله الخالدة . وامـا مسجد حسّان فقد دُرِسَ ، ولم يبق منه اليـوم غير انصافِ اعمدةٍ مزروعة فـي الارض ، يقوم بينها جزءٌ من المئذنـة يَستدعي الاشفاق حين يتذكَّرُ المـرءُ ان شقيقتَيْها في مراكش واشبيلية لا تـزالان قائمتين تتحدّيان الزمان . ويُقـال ان المئذنة لم تكمل ، مثلمـا كملت شقيقتاهـا .

وفي الطرف الغربي مـن المدينة تقوم (قصبـة الاوداية) ، وهي اخـتٌ لقصبات عديدة مثلها في الطراز ، باقيـةٍ الى اليوم في الأندلس ، تشابهها في البنـاء الداخلي ، وفي الأسوار ، وفي كـلّ شيء . وكان قد انشأها ملك الموحّديـن الأوّل عبد المؤمن بـن علي سنة ١١٥٠ م. وهي اصل مدينـة الرباط .

وفي جهة اخرى من المدينة تقوم بقايا مدينة رومانية تُدعى (شيلا) ، وقد اتّخذها ملوك المَرينيّين مَقبرةً لهم ، واحاطوها باسوار عالية ، واقاموا فيها مسجدا ومئذنة . وكلّها ما تزال قائمة هناك الى اليوم .

ولم تصبح الرباط عاصمة للمغرب الاّ في عهد الاسرة العَلويّة التي تحكم المغرب منذ زمن مولاي رشيد ، في القرن السابع عشر الميلادي — وكانت في اول عهدهم مَقرًّا مؤقتا لملوكهم ، ثم تحوّلت الى عاصمة رسمية لهم في زمن الملك يوسف ، والد الملك محمد الخامس ، وجَدِّ الملك الحسن الثاني . وكانت عاصمتُهم من قَبلُ هي مدينة فاس ، او مدينة مراكش . وقبل ذلك كانت مدنٌ اخرى عواصم للمغرب ، فالعاصمة هي (ولِيلي) مَرّة ، وحينًا مراكش ، وحينًا آخر مكناس ، او فاس . واحيانا كانت المدينة الواحدة تتحوّل مِرارًا الى عاصمة ، مثل مدينة فاس ، ومدينة مراكش .

ولقد تَقلَّبَتْ على المغرب كلِّه حكوماتٌ متعددة : مِن عهد إدريس الأوّل ، حفيد الرسول ، الذي لجأ الى المغرب في القرن الثامن الميلادي ، هربًا من بطش هرون الرشيد ووزيره جعفر البرمكي ، وانشأ هناك الدولة الادريسيّة ، اول مملكة مغربية اسلامية ، وقد استمر حكمها نحو قرنين من الزمن . ثم قامت الدولة الفاطمية ، فدولة المرابطين ، فالموحدين ، فالمَرينيين ، فالوَطّاسيين ، فالسعديين ، واخيرا الدولة العلوية الحاكمة الى اليوم . وعَرَفَ المغربُ الحكم الاجنبي فترة من تاريخه الحديث ، وكان حُكمًا استعماريًّا مزدوجا : فهو اسبانيّ في الشمال والغرب ، وفرنسيّ في الوسط كلّه ، الى ان جلا الاستعمار المزدوج في عهد الملك محمد الخامس ، ثم في عهد ابنه الحسن الثاني ، ملك المغرب اليوم . ولم يبقَ من المغرب في أيدي الاسبان غير مدينتي سبتة ومليليا ، في الشمال المغربي ، على ساحل البحر المتوسط ، وذلك بعد ان خرج الاسبان اخيرا من الصحراء المغربية ، على الساحل الجنوبي الغربي .

وكان المرابطون ، ومِــن بَعْدهم الموحِّدون ، ثــم المرينيّون قد حكموا الاندلس ، وجعلوا منها جــزءاً من دولة المغرب . وفي اواخــر العهد المرينيّ وبدايةِ العهــد الوطّاسي خَرَجَ العرب مــن الاندلس ، فكان من الطَبَعيّ جــدًّا ان يلجأوا الى الشمال الافريقــي ، ويُنشئوا فيه مُدنًا وقرى ، كان منها فــي الشمال تِلمسان وتَطوان ، وفي الوسط سلا ــ وتلمسان اليوم مــن الجزائر ــ .

هــذا من الجانب التاريخي الذي يربط بين المغــرب والأندلس ، ومن حيث الآثــار العديدة الباقية اليوم في مدينــة الرباط ، ممّا له اشباهٌ كثيرة فــي الاندلس .

امّــا الطراز الاندلسي في البنــاء والزخرفة ، فان في الرباط منه الكثير ممّا يُدهش النظــر ويُبهج النفس . وانــت حين تصل الى مئذنة حسّان ، تجد الــى جانبها ، وعند طَرَف الأُعمــدة الباقية من جامع حسّان ، بنــاءً من افخم الابنية وابهاها ، هــو ضريح الملك محمــد الخامس ، والــى جانبه مسجد محمــد الخامس كذلك . والبناآن آيتان من آيات الصناعة الاندلسيــة الحيّة المتطورة في المغــرب ؛ وادعاهما الى الدهشة والانبهــار بجمال صناعته الاندلسية هــو الضريح ذو الطابقين ، بقُبَّتِه العالية المذهبة ، وجدرانه التي تَفَنَّنَ فيها الصُنّاع حتى لم يَبْقَ بعد فَنِّهم فــنٌّ في زخارف الزلّيج والمقربصات الرائعــة . وانت تقف تحت قُبَّتِــه ، وتحتار في تلك الصناعة العجيبة التي لــم تَعْرِف عصور الاندلس لهــا مثيلا ، حتى في قصر الحمراء ، وقصر جَنَّــة العريف ، وجامع قُرطبة ، وقصر اشبيليــة ــ وكلُّها من عجائب الدنيــا في جمال الصناعة الزخرفيــة والهندسية الاندلسيــة ــ .

والجديد في ضريح محمــد الخامس هو إدخال الذهب فــي الطراز الاندلسي باشكال لــم تعرفها زخارف الاندلس مــن قبل ، وبكثرة تَسْلُب النظر ؛ وكذلك التفنُّن فــي الأُشكال الزخرفية الأخرى غــير المألوفة كذلك . وتُحِسُّ وانــت في داخل الضريح ، ثُــمَّ في المسجد مِن بَعده ، بأنك تودُّ لو تُطيل البقــاء ، مستمتعًا بروعة الصناعة وجمال الفــن .

وتستعيد في خيالك كلَّ قصور الاندلس ومساجدهـا ومآذنها ، فتحسُّ بعظمة الأندلسيين الذيـن خَلَقوا هذه الفنون المدهشة : مِن دِقَّـة القِطَع الزلّيجية الصغيرة ، ورهافـة الفن في ترصيعها ، وجمـال النقوش المصنوعة منها ، ومن رهافـة المقربصات الجبصية والخشبيـة التي خَلَقَتْها عبقريّةُ الفنـان الأندلسي . ثم يأخذك العجب مـن بقاء هذه الصناعة العجيبة مزدهـرة ، ومن تَطَوُّرها وتحديثها في مـدن المغرب كلّها الى اليـوم ، وحفاظ المغرب على ان تظـلَّ الاندلسُ حَيَّةً فيه ، لا يمحو جمالهـا الزمان ، بهندستها المعماريـة ، وزخارفها ونقوشها ومقربصاتها ، وكذلـك بموسيقاها ، وغنائها ورقصهـا .

وتَخْرُج من الضريح والجامـع لتتجوَّل في انحاء مدينة الربـاط ، فتدهشك القصور الملكيـة ، بزلّيجها الأُخضر الجميل فـي السطوح ، وفي الجدران الخارجية ، وفـي ظُلَلِ الحدائق الفسيحة : قصر المُشْـوَر ، وقصر السلام ، والقصر القديـم الذي بناه محمد بن عبد اللـه العلوي . وهذه القصور الملكيّة تُحَـفُّ روائع من الصناعة الأندلسية الطـراز ، تَفَنَّنَ فيها الصُنّـاع المغاربةُ فأبدعوا غايـة الابداع .

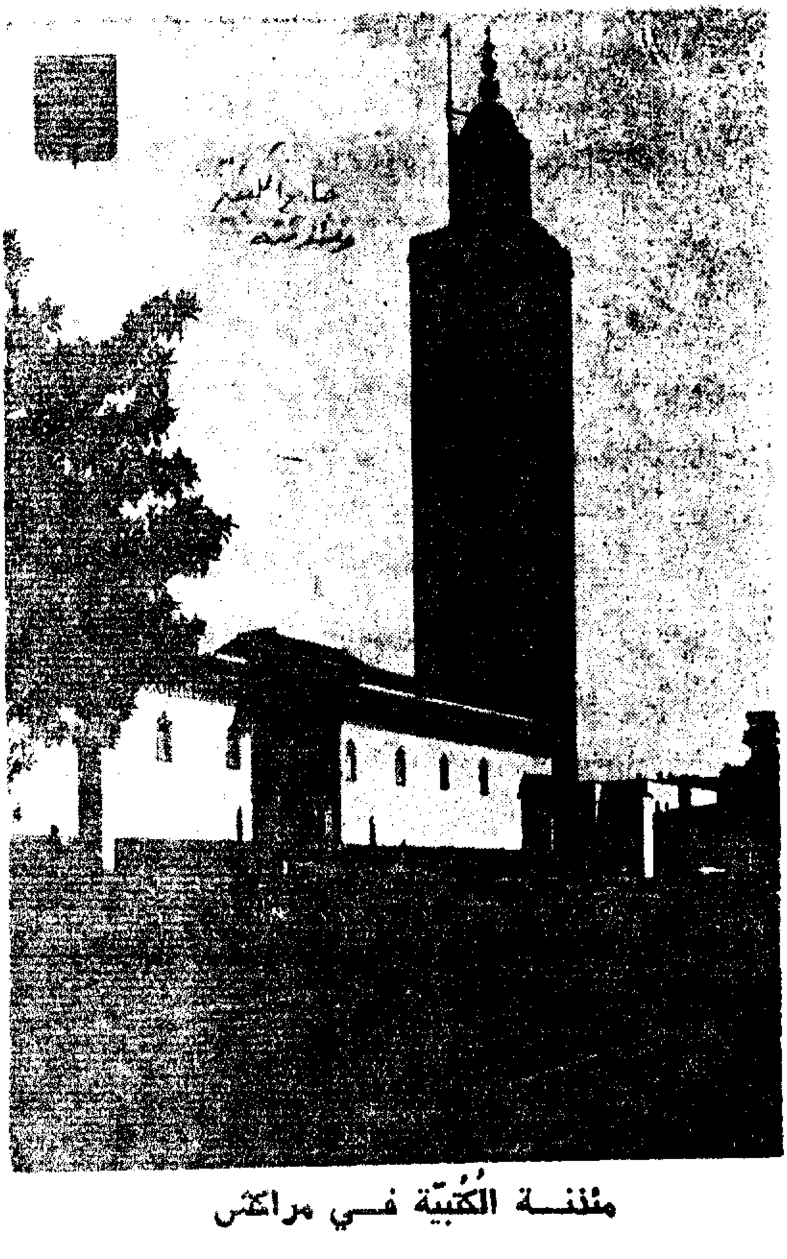
ثُـمَّ تمضي الى جامع السُنَّة ، وجامـع مولاي يوسف ، وهمـا متقاربان في المكـان ، فتقف متأمِّلاً جمال الزلّيج الاخضر الـذي يُغطّي سطوحهما . وتمضي الـى الداخل ، فتُدهِشك البساطـة الأنيقة في رهافة الصناعـة الاندلسية — وللبساطة جمالُها ايضـا متى كانت من صُنع يَـدٍ فنّانةٍ بارعة — .

ولا يقتصر الطـراز الأندلسي على الجوامع والقصور ، بـل تَجِدُه كذلك في بعض الفنـادق ، وأَخُصُّ بالذكر (فندق حسّـان) ، في وسط المدينة ؛ وهو تحفة فنيـة رائعة من الداخل ، بجمـال الصناعة الزخرفية الاندلسية ، التـي تستريح اليها النفس ، ويستريح النظـر .

— ٣ —

مـــراكش

ونمضي مع خريطة المغــرب انحدارا الى الجنوب ، حتى نصل الى مراكش ، مدينــة النخيل ، او المدينة الحمراء ، كمـــا تُدْعى احيانا .



مئذنـــة الكُتبيّة فـــي مراكش

وهي تُدعَى كذلك لانَّ لـــون بيوتها الخارجي احمر ، بعكس مــدن المغرب الأُخرى وقراه ، وكلُّهـــا تقريبًا مطليَّةٌ من الخـــارج باللون الابيض ـــ

ومثلها كذلـــك الجزائر وتونس وليبيـــا — وتُكثُر في المدينة ومن حولها اشجارُ النخيل الجميلـــة . وبيوتُها صغيرة وقليلـــة الطوابق .

هذه المدينة بناها امـــيرُ المرابطين يوسف بـــن تاشفين سنة ٤٥٤ هـ. ١٠٦٢ م. واتّخذهـــا عاصمةً لدولته بَدلاً من العاصمة فـــاس . ومنْ بَعْدُ ظلّت مراكش عاصمـــةً للموحّدين ، ثم كانت عاصمةً كذلـــك للسعديين في القرن السادس عشر للميـــلاد ، العاشر للهجرة . واتّخذهـــا ملوك العلويين الأولون كذلـــك عاصمةً لهم ، الى ان انتقلـــت العاصمة الى الرباط في عهـــد مولاي يوسف ، والد محمـــد الخامس ، وجُدّ الحسن الثاني . وقد تَركَتْ كـــلُّ واحدة من هذه الدول المغربيـــة آثارا من آثارها في هذه المدينـــة العريقة .

وجدير بالذكـــر انّ معظم اعلام الفلسفة والطـــبّ من الاندلسيين ، من عهد المرابطين الـــى أواخر عهد المرينيين خاصة ، قـــد انتقلوا من الاندلس ليقيموا في مـــراكش او فاس ، في رعاية ملـــوك هذه الدول الثلاث وامرائهـــا . وفي ذلك يقول عبد اللـــه كنّون في كتابه (النبوغ المغربي) : « فأبـــو بكر بن باجة ، المعروف بابن الصايـــغ ، والفيلسوف والطبيب والموسيقي ، هـــو ممن اظلّتهم دولةُ المرابطين ، وخَـــدَمَ رجالها بعلمه وفنـــه ؛ وابو الوليد ابـــن رشد ، وابو بكر ابن طُفَيل ، وابنـــاء زهـــر ، هُم ممَّن نبغوا في اعقاب عصر المرابطـــين ، وانتشرت معارفهم في العصر الموحّدي الذي يليـــه . واعلامُ الفقه والتصوف ، مثـــل ابن رشد الكبير ، وابي بكـــر ابن العربي ، وابن عربـــي الحاتمي ، وابن سبعين ، هـــم من رجال عصر المرابطـــين او عصر الموحّدين » (١) .

وفي مراكش ضريـــح بسيط متواضع ليوسف بـــن تاشفين ، على مقربة من جامـــع الكتبية ، أُقيمَ في عهد الملك محمـــد الخامس فقط ، في حين يقوم ضريح خصمـــه واسيره الشاعر الاشبيلي المعتمـــد بن عبّاد غيرَ بعيد عنـــه ، في أَغمات ، في فخامةٍ لا يعرفها ضريح ابـــن تاشفين .

---

(١) النبوغ العربي ، لعبد اللـــه كنون ، الجزء الاول ، ص ٦٦/٦٧ .

وكانت اغمات عاصمـــةَ المرابطين قبل ان يبني يوسف بـــن تاشفين مدينـــة مـــراكش .

وجدير بنـــا أن نشير ههنا الى ان ابـــن تاشفين كان قد دخل الى الاندلس بجيوشه مَرَّتـــين في القرن الحادي عشر الميـــلادي ، الخامس الهجري : الأُولى لصـــد غارات الجيوش الاسبانية عـــن ممالك الاندلس ، ولا سيّما عن مملكة اشبيليـــة التي كان يحكمها المعتمد بـــن عباد ، والثانية بَعْدَها بقليل ، لكـــي يَضُمّ الاندلس الى المغرب ، ويبسط سلطانه علـــى العُدْوَتين . وفي هذه المرة الثانية ســـاق المعتمدَ مكبّلاً بالقيود الى طنجة ، ومنهـــا الى فاس ، ثم الى اغمات ، حيث بـــات المعتمد في ذلّـــة الاسر ، وخَلَّف لزوجته وبناته مذلّـــةَ التشرّد والفاقة . ثـــم ماتت زوجته ودُفِنَت الـــى جانبه .

ويتألف مبنى ضريح ابـــن عبّاد من مدخل ، تقوم الـــى يساره غرفة فيها سِجِلٌّ للزائريـــن . ويُفضي المدخل الى باحةٍ مكشوفة ، ثـــم الى غرفة فيها قبرُ ابـــن عبّاد وقبرُ زوجته الى جانبـــه . وعلى الجدار الأيمن والجدار الأيسر ابياتٌ نظمهـــا الشاعر الوزير لســـان الدين ابن الخطيب حين زار قبـــر المعتمد . وهذه ابيـــات منها :

قبرَ الغريبِ ، سَقاك الرائحُ الغادي حقًّا ظَفِرتَ باشلاءِ ابن عَبّادِ
كفاك ، فارْفُقْ بما استُودِعْتَ مِن كَرَمٍ رَوّاكَ كلُّ قَطوبِ البَرْقِ رَعّادِ
ولا تَـزَلْ صلـواتُ اللّـهِ دائمـةً على دَفينِكَ، لا تُحصَى بِأعدادِ

وكان ابـــنُ الخطيب قد رثى ابن عبّـــاد بابياتٍ اخرى حينما وقف على قبره ، فقـــال :

قـــد زرتُ قبرَك عَـــن طوعٍ بأغماتِ رايتُ ذلك من اولى المهمّاتِ
لِـــمْ لا ازورُك يا أندَى الملوكِ يـــدًا ويا سِراجَ الليالي المدلَهِمّاتِ؟
وانتَ مَن لَـــو تَخَطَّى الدهرُ مَصْرَعَهُ الى زماني لجادتْ فيه ابياتي

لكانما شاءت الأقـــدارُ ان تُقارِبَ بين ضريـــح السلطان الغالب ، والملك الشاعر المغلـــوب ، الذي كان له من دنيـــاه السلطان والشعر

مما ، تخلّد بالشعر ، وظلَّ اغرودةً في فـــم الزمان ، وظلَّ قبُره محجّةً الزوّار ممّن يعشقون الفـــنّ والشعر . وبِجَمْع الضريحين المتقاربـــين ، اجتمعَ المغربُ والأندلسُ اجتماعا ابديـّـا ، كان الضريحان رمـــزًا خالدًا لـــه وعنوانـــا .



المدرسة اليوسفية في مراكش

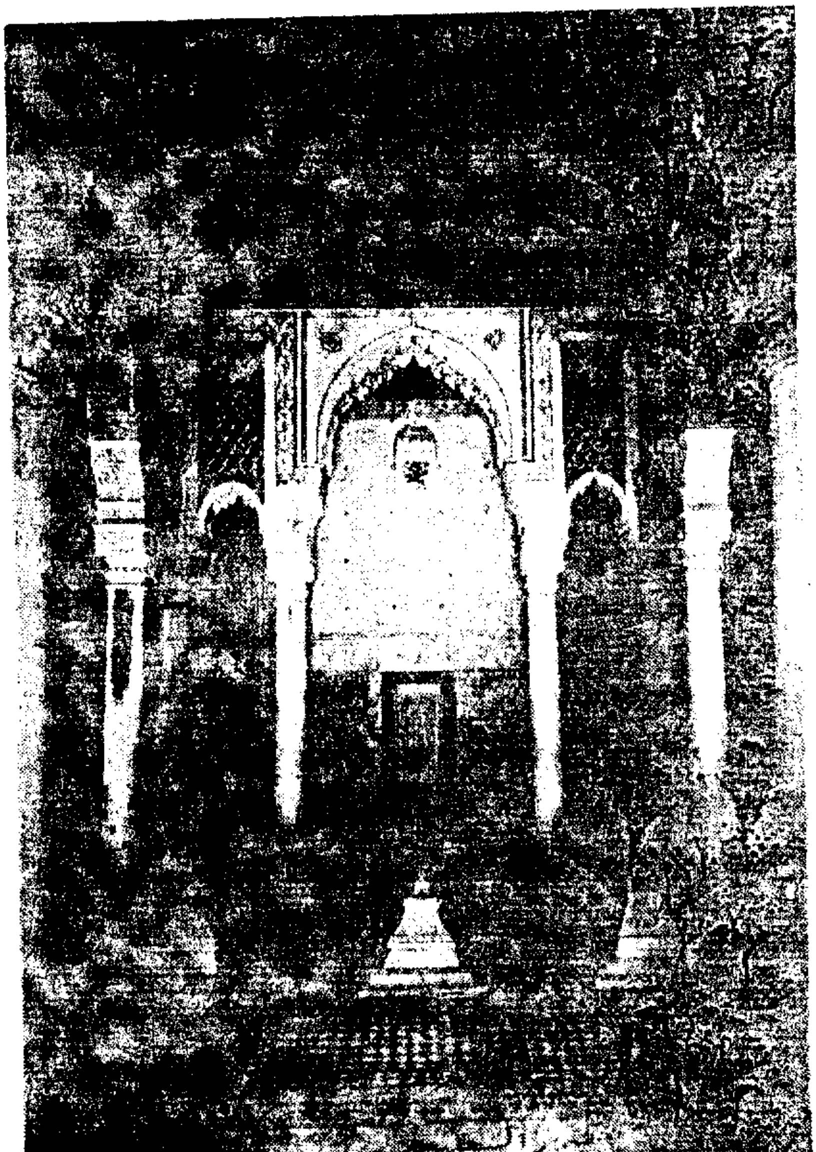
والى جانب ذلـك يجتمع المغرب والاندلس في آثـــار اخرى باقية في مراكش ، لعلَّ اهمّهـــا جامعُ الكتبيّة ومئذنُته ــ او صومعته ــ اخـــت مئذنة اشبيلية الشهيرة باســـم (الخيرالدا) ، ومئذنة حسّـــان في الرباط .

تمتاز مئذنة الكتبية ومئذنتا الخيرالدا وحسّان ، بأنّ الصعود اليها ليس على سلالم ، بل في طريقٍ عريضة مُتلوّية ، تنتهي كلّ دورة منها بِشُرفات من جميع الجوانب ، تُطِلّ على المدينة ؛ حتى اذا بلغ الصاعدُ أعلى المئذنة ، واطلّ من شرفاتها ، انبسطت تحته ابنية المدينةُ كلُّها كما تنبسط راحة اليد . ويُقال إن المنصورَ قد اراد من بنائها بهذا الشكل ان يكون في وُسعه الصعودُ الى اعلى المئذنة على صَهوة جواده . هذه المِيْزَةُ هي اهمُّ ما يجمع بين المآذن الثلاث . واما احجامها فمختلفات : فالخيرالدا يبلغ عُلوُّها اكثرَ من خمسة وسبعين مترا ، وعلوُّ الكتبيةِ اثنان وستّون مترا ، ولا ادري كم كان ارتفاع مئذنة حسان ، في الرباط ، فهي الآن بُقيَّةُ مئذنة فقط ؛ اما من حيث الشكل الخارجيّ فان الخيرالدا ، في اشبيلية ، تُحفَةٌ رائعة من آيات الفنّ المعماري ، لا تضاهيها في ذلك مئذنة الكتبية . وقد اقيمت هذه المآذن الثلاث في القرن الثاني عشر الميلادي ، السادس الهجري .

وليس في وسعي ان أُطيلَ الحديث على سائر الآثار المراكشية ، فهي كثيرة جدًّا ، وكلُّها جدير بوقفات طوال مُشْبِعات . غير انني اكتفي بذكرها فقط ، ومنها : مقابرُ السعديّين ، وفي وسطها قبرُ احمد المنصور الذهبي ، اعظم ملوك السعديين وابعدُهم شهرة ، وهي من القرن السادس عشر ، وفيها الكثير من اثر الصناعة الاندلسية . وهناك قصر (دار الهناء) وحدائقُ الأُوكدال الفسيحة الواسعة الارجاء ، وقد انشأها الملك محمد بن عبد الله العَلَويّ . وفي هذه الحدائق غابات من شجر الزيتون ، وبِرْكتان كبيرتان هائلتا الاتساع ، في وسط إحداهما مكانٌ لجلوس جوقةٍ موسيقية وغنائية ؛ فهي بذلك شبيهة ببِرْكة القيروان في تونس . وهنالك ايضا قصرُ البديع ، الذي بناه احمد المنصور الذهبي ، من ملوك السعديين ، في القرن السادس عشر .

واما اقدمُ اثر مغربي يبدو فيه الطابع الاندلسي ، في المغرب كلّه ، فهو المدرسة اليوسفيّة ، في مراكش ؛ وكان قد بناها الامير عليّ بن يوسف بن تاشفين ، ودعاها باسم ابيه . وكل ما في هذه

المدرسة اندلسيّ الطراز ، سواءً في هندسة البنـاء ، ام في المُقَرْبَصات الخشبيّة السوداء ؛ وهـذه أوّلُ مدرسة اندلسية الطـراز شاهدتُها في حياتي ، ولم أرَ مِن قبـلُ مثلها في الاندلس . امـا المغرب فتكثر فيه



مقبـرة السعديين فـي مراكش

هذه المدارس ، وكثير منها مما انشاه الملك ابو عنان المَرِينـي ، وتُدعَى مدارسه كلها باسمـه : (المدرسة البوعنانيّة) . وقـد شاهدتُ من المدارس البوعنانية ثلاثـا : في سلا ، وفاس ، ومكناس ؛ وهـي وسواها من المدارس القديمـة متشابهةٌ في طرازها ، وغُرَفُ الطـلاّب فيها اشبه

بالرنزانات ، وكلّها تطِلّ على بهو اوسط مفتوح ، وتقوم في الطابق الثاني من المدرسة .

واما الزخارف الاندلسيّة المدهشة فيجدها الزائر في قصر (الجلاوي باشا)، المهجور الآن، بكلّ ما كان فيه من اثاث ورياش فاخرة ، كلّ اقمشتها من الدِمَقْس الحُرّ . وكذلك في (قصر الباهية) ذي الحدائق الأنيقة، بطرازها الاندلسيّ الجميل الممتع . في هذين القصرين يعود المرء بخياله الى الاندلس ، ويعيش في جوّ اندلسيّ صرف ، ولكنّه جوّ اندلسي حديث متجدد .

— ٤ —

مدينة فاس

يا فاسُ، يا جَنَّةَ الآمال باسمةً   وجنّةَ المغرب الأقصى لِما رَحُبا

ما زال جامِعُك المعمور مُفخرةً   للضاد ، طُوِّقَ طَوْقَ المِنَّة الرقبا

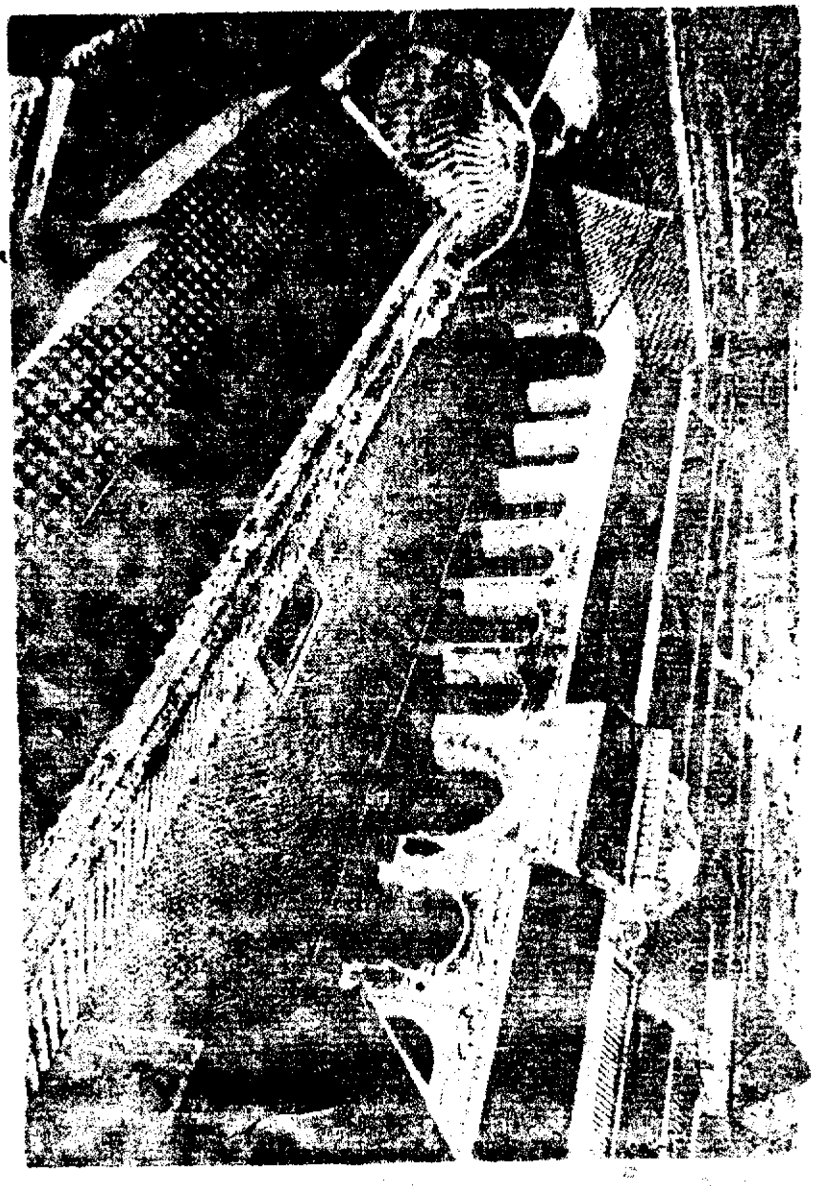
(محمد الجبوري)

وتنطلق من مراكش مصعّداً في الأطلس الأوسط نحو الشمال ، حتى تصلَ الى مدينتين عريقتين ، هما مكناس وفاس . ولكليهما تاريخ طويل مجيد من تاريخ المغرب السياسيّ والفكريّ ، وصِلاتٌ متينة بالأندلس وعرب الأندلس في القديم ، وبفنون الأندلس في العصر الحاضر .

ولستُ اقف طويلا عند مدينة مكناس ، بل اكتفي منها بذكر القليل من آثارها الباقية ، واهمُّها : قصر اسماعيل بن علي بن الشريف ، راس الأُسرة العلوية ، ومَسجِدُه الأندلسيّ الطراز ، ذو الألوان الجميلة الشبيهة بالوان قصر إشبيلية ؛ وكذلك المدرسةُ البوعنانية ؛ وهي احدى المدارس التي انشاها ابو عنان ابن ابي الحسن المَرينيّ . ويضاف اليها قصرُ الجامعيّ ، الاندلسيُّ الجميل .

وأمّا مدينة فاس فيرجع تاريخ بنائها الى الملك ادريس الثاني ، ابن الامام ادريس الاول ؛ فهو الذي وضع حجر الاساس للمدينة في غرّة

ربيع الاول عــام ١٩٢ هـ. ، الرابع من يناير ٨٠٨ م. ثـم نَقَل اليها عاصمة ملكه من مدينــة (ولِيلى) او (فولوبوليس) التــي كانت عاصمة ابيــه . وسَرعان ما توافد عليه العــرب من إفريقية (تونس) ومن الأندلس : فجاءه خمسمئة فــارس من افريقية ، ومئــات من الاسر



صحن جامع القرويين في فاس وبعض سقوفه الزليجية

الأندلسية . فجَعل المدينــة قسمين ، دعا احدهما (عــدوة الأندلس) ــ وهي القسم الشرقيّ من المدينة ــ وأنزَل فيــه الأُسَر القادمة مــن الأندلس ، ودعــا القسم الثاني (عــدوة القرويين) ــ وهي القسم الغربي ــ وقد اتّخذ منــه الملك ادريس مُقرًّا لــه .

وظلت فاس عاصمة الدولة الادريسية ، التي قامت في المغرب على يد الامام ادريس الاول ، بعد هربه من المشرق خوفا من بطش الرشيد به . غير انَّ البطش لحق به الى المغرب ، فمات مسموما في عاصمته (وليلى) على يد الشماخ ، بتدبير من هرون الرشيد ووزيره جعفر البرمكي . ولما قامت دولة المرابطين في القرن الحادي عشر الميلادي ، الخامس الهجري ، انتقلت العاصمة من فاس الى مراكش التي بناها يوسف بن تاشفين . ولما جاء المَرِينيّون في القرن السابع الهجري ، الثالث عشر الميلادي ، نَقلوا العاصمة من مراكش الى فاس من جديد ، واضافوا الى المدينة قسما دعوه (فاس الجديدة) واحاطوه بالأسوار ، كما كانت المدينة القديمة محاطة بالأسوار ايضا . وظلَّت فاس عاصمةً للمغرب بعد ذلك في عهد الوَطّاسيّين ودولتهم القصيرة العمر .

وكثُر نزوحُ الأندلسيّين الى فاس ، وقد حَملوا معهم مظاهر حضارتهم وفنونهم ، فكان لذلك اثره الكبيرُ جدًّا في التقدُّم الفكريّ والحضاريّ الذي عرفته فاس . ومِمَّن وَفدوا عليها ومارسوا علومهم وفنونهم فيها : الطبيب والعالم عبد الملك بن زهر ، والفيلسوف ابن رشد ، والوزير الشاعر لسان الدين بن الخطيب ، والكاتب جُزَيّ بن عبد الله الغرناطي ، والوزير الشاعر ابن زمرك ، وغيرهم ، وكلُّهم عملوا في المغرب في عهد المرابطين او الموحّدين او المَرينيّين . والمؤلم حقًّا انَّ كلَّ واحد من هؤلاء الأعلام قد رُمِيَ بتهمة الالحاد والزندقة ، وبعضُهم مات حرقا ، أو مات مسموما . ولا يزال قبر لسان الدين بن الخطيب بارزًا أثَرُه خارج اسوار مدينة فاس .

وما تُذكَر مدينة فاس الا ذُكِرَ معها جامع القرويين ، وكان دائما في المغرب صنو الأزهر في مصر ، وفيه تَخرَّج كبارُ علماء البلاد المغربية على توالي العصور الى يومنا هذا . وقد تَحَوَّلَ اليوم الى جامعة عصرية . وهذا الجامع انشأته في القرن الثالث الهجري ، التاسع الميلادي ، السيدةُ فاطمة أمّ البنين الفِهْريّة ، من مهاجرات القيروان .

ولم يلبث الجامع ان اصبح جامعة ، هي اقدم جامعات العالم على الاطلاق ، واصبح مصدر إشعاع فكريّ إسلامي غَمَرَ بلدانَ المغرب والأُندلس ، وتوافَدَ عليه العلماءُ وطُلاّب العلم من كل صوب . وبجامع القرويين صارت فاس عاصمةَ المغرب العلميّة الى اليوم . وهو اول



ميضاة جامع القرويين في فاس

جامع تقدمه سيّدة مسلمة في العالم الاسلامي كلّه ؛ وكُلُّ الدول التي تعاقبت على حكم المغرب منذ ذلك الحين كانت تتبارى في دعم القرويين ، وإغداق المال عليه ، وإجراء التوسُّعات التي يتطلّبها ، وتوفير العلماء له ، (والمدارس) العديدة لايواء طلاّبه وتدريسهم .

أمّـا اثر الاندلس في القرويين فنطالعه في كـلّ مكان من هذا الجامع العريق : ففـي المحراب نرى الطراز الاندلسـيّ بزخرفه زخرفة بديعة ؛ وفي صحن الجامـع تُدهِشُنا قِطَع الزلّيج ـ او الفسيفساء الملـوّن ـ البديعة الألوان تغطي الأرضيّة كلّهـا ، وتزخرف المشكاة الجميلة ، والجُدران جميعَهـا . وِمن فوق زلّيج الجدران والأرضيّـة تتدلّى المُقَرْبَصات والنقـوش الجبصيّة والخشبيّـة المدهشة ، تفنّنت فيها ايدي الصُنّاع الفاسيّين الذيـن اخذوها في الأصل عـن الاندلسيين ، ومضت تبدع فيهـا ما شاء لها الابداع . وعلـى طرفَي الصحن تقوم ظُلّتان ـ سقيفتان ـ جميلتان ، تُزيّنُهمـا السقوف الخشبية البديعة في نصفهما الأعلى ، والأعمِـدَةُ الرفيعة الدقيقة مـن اسفلهما ، والزلّيج الأخضر البهيج في سطوحهمـا . وعلى الجدران قِطَـعٌ صغيرة من الفسيفساء الزلّيجية البهيّـة الألوان .

وعلى مقربة من الجامع عِـدَّةُ مدارس قديمة ، اندلسيـةِ الطراز ، نَذكر منها : البوعنانية ، ومدرسـة النجّارين ، والعطّارين ، والصفّارين ؛ وهـذه كلُّها من العهد المَرينـيّ في القرنين الثالث عشر والرابـع عشر . وهنالك ايضا مدرسـة الشرّاطين ، وهـي من عهد الأسرة العَلَوية . وكلُّ هذه المـدارس وسواها من المدارس القديمـة في مختلف مـدن المغرب هي من طراز المدارس التـي نشأت في الأندلس من قبل ، والتي جَعَلَت مـن الأندلس منارةَ علـمٍ وحضارةٍ قَبْلَ ان تقوم النهضة الحديثة في اوروبـا .

وتَتَجلّى الصناعةُ الأندلسيـة في كل مكان من مدينة فـاس : في المساجد ، والزوايا ، وفـي المدارس ، والأضرحة . ومن أهـمّ الزوايا في فاس زاويةُ مـولاي إدريس ، مؤسس المدينـة ؛ ويتبدّى جمالها في زلّيج سطوحها وأفاريزهـا ، وزخارف جدرانها وارضيّتهـا .

غير أن أحدثَ الاعمـال الزخرفية الجميلة المتطـوّرة يَبْهَرُ الزائر في (فندق قصر الجامعـي) ، وهو فندقٌ كبير حديـث ، نِصفُه كان قصرًا قديما من القرن التاسـع عشر لأُحد كبار اغنياء المغـرب يدعى (الجامعي)

ـــ وله قصور اخرى في مكناس وبعض المــدن المغربيّة الأخرى ــ ثــم اضيفت اليه اجنحةٌ حديثــة ، واستُغِلَّت حدائقه الفسيحة ، وزُيِّــنَ بالنقوش والزخارف الأندلسيــة المُحْدَثَة ، فجاء قطعــةً مدهشة من جُنَّة



قاعــة العرش في القصر الملكــي في تطوان

الأندلس ، يُعِزُّ مثيلهــا في قصور غرناطة وإشبيليــة ؛ وفي فسحاته الواسعة ، حَوْلَ بِرْكة المـــاء الكبيرة في حدائقه ، تُقــام حفلات الغناء والرقص والموسيقى الأندلسيــة ، فيعيش الساهرون في جــوٍّ اندلسيّ خالص ، وفي مُتعــةٍ للعين والنفس لذيــذةٍ حالمة .

لقد امتزج تاريخُ فاس بتاريخ الأندلس في اشياء كثيرة : امتزج بالأُسَر الأندلسيّة العديدة التي نَزحت الى المدينة منذ انشائها ؛ وامتزج بفنون الهندسة العمرانية والنقش والزخرفة ؛ وامتزج في رحاب جامع القرويين ، اساتذةً وطلاّباً وزُوّاراً ؛ وامتزج في قصور الملوك والحُكّام بمن وفد عليهم من اعلام الأدب والشعر والفِقْه والعلم من الأندلسيين ، ولا سيما في عهد المَرينيّين وسُلطانهم الأشهر ابي عنان . وقد ذكرنا في ما تَقدَّم اسماءَ بعض هؤلاء الأعلام .

وهناك مظاهر أخرى كثيرة من امتزاج الأندلس بمدينة فاس ، نَجِدُ بعضها في الطُرُقات الضيّقة التي تسير في وسط المتاجر المسقّفة على الجانبين، لِتُبْرِزَ اعمال النَسّاجين والصاغة والصُنّاع الفاسيين البارعةَ الجميلة . ونَجِدُ بعضها كذلك في طراز الأسوار ذات النُتوءات المُدَبَّبَة .

والواقع ان مدينة فاس من اكثر المدن المغربية تأثُّراً بالأندلس وبفنون الأندلس ، ومن اكثرها احتضانا لفنون النقش والزخرفة والبناء الأندلسية .

— ٥ —

تَطْوان

تقوم مدينة تطوان — أو المدينة البيضاء ، كما تُدْعَى ايضا — على سفح تل (دَرْسَة) الى الجنوب من سَبْتَة . ومن حَوْلها يَسقي وادي الحلو — ويُدعى ايضا وادي مَرْتَل — بساتينها الجميلة المحيطة بها . وقد بَنَى هذه المدينةَ المهاجرون الذين جاؤا من غرناطة في ايامها الاخيرة ، وعلى راسهم ابو الحسن المنظري . ثم لَحِقَ بهم غيرهم ممن اضطُرّوا الى النزوح عن الأندلس . وقد حافَظَت هذه الأُسَر النازحة على أُسلوب حياتها الأندلسية ، بحيث يُخَيَّل اليك ، وانت تدخل الى تطوان ، انك تَدخُل الى مدينة اندلسية . والواقع انني هناك رَجَعَ بي الخيال الى مدينة (رُنْدَة) في الجنوب الأندلسي ، بشكل خاصّ ، وشَعَرْتُ بانني قد عُدتُ اليها من جديد — وكان عهدي بزيارة رُنْدَة قريبا — .

وتطوان هي العاصمة العلميَّة في الشمال المغربي ، واللغة الاجنبية التي يتكلم بها التطوانيون هي الاسبانية ، وبيوتها تعكس جمال الطراز العمرانيّ والهندسيّ الأندلسيّ .



جوقة موسيقى أندلسية في قصر البريشة في تطوان

وقبل ان امضي في الحديث على المدينة وطابعها الاندلسي ، أوَدّ ان اذكر انني حرصت هناك على زيارة مؤرخ تطوان وشيخ علمائها ، الاستاذ الحاج محمد داود ، صاحب (تاريخ تطوان) ، الذي يقع في اربعة عشر مجلدا ضخما ، ستة منها مطبوعة ، والثمانية الأخرى

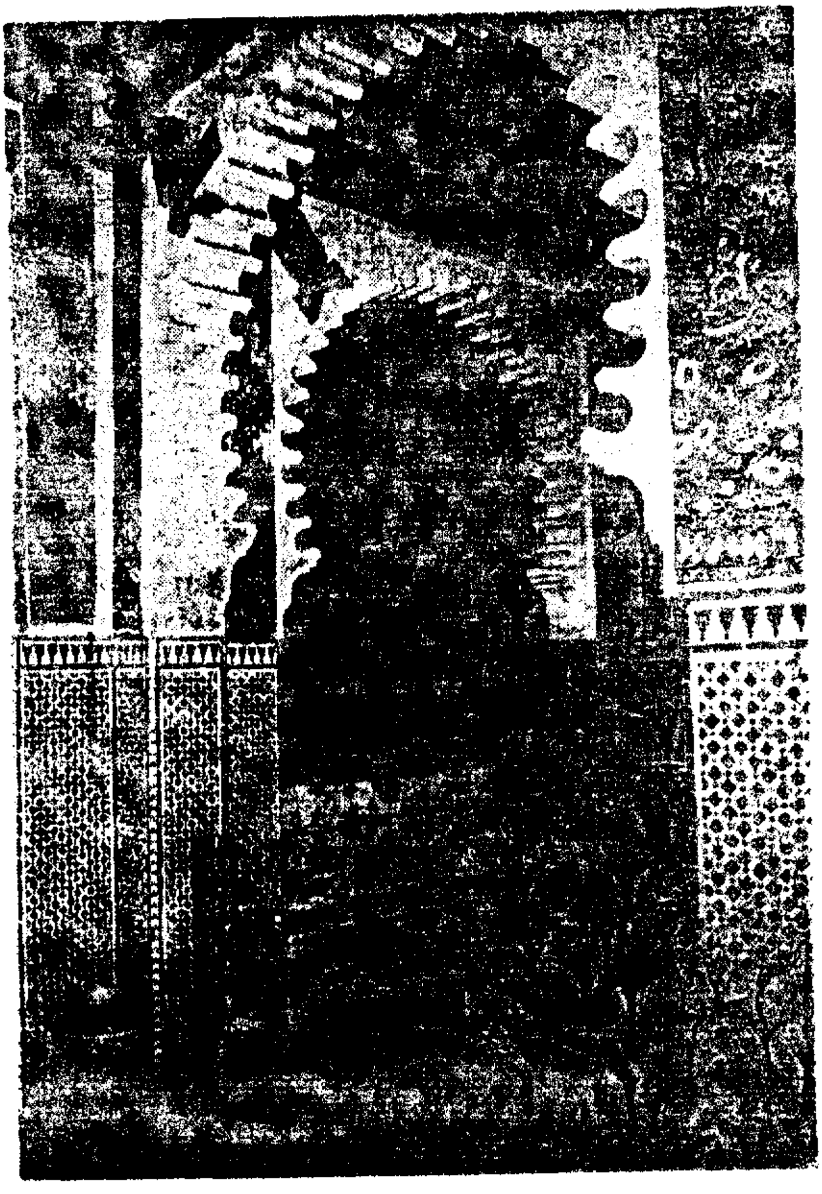
تنتظر الطبع ، يُضـاف اليها اربعةُ مجلدات ضخمـة اخرى بعنوان (عائلات تطوان) ، مِمّـا يصل بتاريخ تَطوان الـى ثمانية عشر مجلّداً ، اطلعني عليها الأستاذ محمـد داود في تلك الزيـارة .

ان روح الاندلس مـا تزال تعيش مع الحاج محمـد داود ، مُتحدِّرة اليه مِن اجداده الذيـن نَزحوا عن غرناطة . ومُنزلـه تملمةٌ فَنِّيّة من الأندلس : بتنظيمه الهندسـي ، وبنقوشه وزخارفـه ، ومُرُشه واثاثه ، وجدرانه وسقوفه ؛ ولأوّل مـرة ، وفي منزل الحاج محمـد داود ، رايت طراز المخادع الاندلسيـة : بالسرير العالي ، والستائـر المصنوعة من الدِمَقْس الأصليّ الجميـل ، ورايتُ كيف يكون (البيـت الأندلسـي) بفراشه على سُطيحـةٍ مرتفعة عن الأرض ، وبمساندِه المستديرة الطويلة المغطّاة بقماش حريـريّ زاهي الالوان . كلُّ ما في منزل الحـاج محمـد داود يَنقُلُك الى الأندلس ، فتعيش مـع التاريخ الزاهي العزيز الـذي مضـى .

ومثل منزل الحاج محمـد داود كذلك منازل عديـدة اخرى . أهلها كلُّهم من أبنـاء المهاجرين الأندلسيين ، ولـم يستطيعوا التخلّي عن أسلوب الحياة الاندلسيّـة . وقد زرتُ من هذه المنازل منزل عبد السـلام الصَفّار ، مديـر مدرسة الفضيلة للبنات ، كمـا زرتُ مدرسَته ايضا ، فرايتُ في كليهما مـا يُبهج النفس والنظر من روعـة الطراز الأندلسيّ في كـلّ شيء .

حتى الساحاتُ والحدائـقُ العامة في وسط المدينـة ، مِن مِثْل ساحة الحسن الثاني ، وحديقـة (روضة العُشّاق)،هـي ايضا قِطَعٌ من جِنان الأندلس وساحاتـه العربيّة القديمة . وحـين تَدْخُل الى حديقة (روضة العُشّاق) تجـد في وسطها ظُلّةً ـــ سقيفة ـــ جميلة لجلوس المتنزّهين ، سَطحُها من الزلّيج الجميل المألوف جـدّاً في الأندلس والمغرب . وعلى مقربة منها بِرْكـة صغيرة مستطيلة ، على جانبيهـا نوافيرُ رفيعة تنفث اقواسا من المـاء الى وسط البركة ، فيعود بـك الخيال الى (بركة الساقية) في قصر جَنّـة العريف ، في غرناطـة .

وساحة الحسن الثاني في وسط المدينة ، تتوسّطها ظُلّة أنيقة كذلك ، تقوم على أعمدة دقيقة ، تُذكِّر الزائر بدقّتها ، ولطفها ، وجمال هندستها ، وزليجها ، وزخارف ارضيتها ، بكثيرٍ ممّا يُعْرف في الأندلس . الأعمِدَة الرهيفة الجميلة بشكلٍ خاص ، تَذكّرني بأعمدةٍ جامع قرطبة ، وقصر الزهراء ، وقصر الحمراء في غرناطة .



مُخْدع أندلسيّ في المغرب

ثم تنتقل من الساحة الى القصر الملكي المجاور لها ، وهناك يتجلى الفنّ المعماريّ المنقول عن الأندلس ، والزخارف والنقوش

والمقربصات الأندلسية . باشكال لا تَشْبع العينُ من تأملها ، ولا النفس من الاستمتاع بسحرها الدائم . وهذا الجمال هو بعض الفن البارع المدهش الذي يتنافس فيه الصناع التطوانيون والصناع الفاسيون بشكل خاص ، ويحاول كلٌّ منهم ان يتفوّق فيه على زميله .

هذا القصر الملكي بُني سنة ١٦٠٠ م. ، القرن العاشر الهجري ؛ بناه القائد احمد الريفي ، خليفة الملك سليمان العَلوي في الشمال المغربي ، ثم أُدخِلَت عليه مع تعاقب الأجيال ترميماتٌ واصلاحات عديدة ، نَجِدُ تواريخها مُدوَّنة على جانب باب القاعة الكبرى ، في الطابق العُلْويّ ، واما الهندسة الأصليّة فلم يطرا عليها ايّ تغيير . وقد عَلِمْتُ من وكيل القصر ، الذي رافقني في جولتي هناك ، ان الصناعة الجبْصيّة في القصر ، بِنُقوشها المُقَرْبَصَة الجميلة الأنيقة ، هي صناعةٌ فاسيَّة ، واما الزلّيج الصغير البديع الالوان فمزيجٌ من صناعة تطوان وصناعة فاس ، واما المقربصات الخشبيَّة وكلُّ النقوش الخشبيّة فصناعةٌ تطوانية . والفرقُ بين صناعة تطوان وصناعة فاس في اعمال الزلّيج الصغيرة — كما قال لي وكيل القصر — هو انَّ الصنّاع الفاسيّين يصنعون الشكلَ الكامل قِطعَةً واحدة ويشوونه في النار ، واما التطوانيون فيُقطِّعونه قِطَعاً صغيرة ثم يشوونها ، وبعد ذلك يلصقونها على الجدار قطعة قطعة . وكان الصانع التطواني الأول الذي صَنَع نقوش القصر يدعى (المعلم احمد البوري) .

وتنتقل من القصر الملكيّ في طريق ضَيّقة نازلة مُتَعرِّجة — هي طريقٌ اندلسيّة صِرْف — لِتَصِل الى قصرٍ آخر عظيم الفخامة في طرازه الأندلسيّ . ذلك هو (قصر البريشة) ؛ وهو جناحان كبيران ، عاليا السقوف ، احَدُهما مخصَّص لِبَيع المصنوعات البلديّة والمنسوجات المغربيّة المشهورة في جمالها ، والثاني سياحي : تَدْخُل من الباب فتُفاجأ بمنظرٍ قد لا تَقَع عليه العينُ في ايّ مكان آخر : بَهْوٌ عريض فسيحُ الجوانب ، وفي وسطه بِرْكة ماء صغيرة جميلة ، يتفجّر الماء من نافورة فيها ؛ ومن حول البركة جوقةُ رجال ونساء بملابس اندلسيّة

مزركشة ، وفي أيديهـم آلاتُ طرب اندلسية . ومـا إن يُحِسّوا بِوقْع خُطاك عند البـاب حتى يأخذوا في العزف والغنـاء ، وتَرقُص في وسطهم الراقصات الجميلات ، وكلّ ذلك بفـن اندلسي جميل أخّاذ . وعلـى جوانب البَهْـو العريض مقاعدُ منخفضةٌ لجلوس الـزوّار والسُيّاح للأستمتاع بالرقص والغنـاء وبالموسيقى الأندلسيـة .

هـذا القصرُ أقامَهُ سنةَ ١٨٩٧ الحاج عبـد الكريم البريشة ، وكـان سفيرًا ووزيرا وثريـًا كبيرا ، تَولّى مناصبَ رفيعـةً في تطوان وفاس والبيضاء في عهـد الملك الحسن الأول والملك عبـد العزيز ؛ ويُقال إنه بنى قصرًا آخـر مِثلَه كذلك ، وجَعَل القصرين لِبنْتيـه . وهذا القصر متعةٌ للعين والنفس ، بمـا فيه من جمال النقوش والزخارف الأندلسيـة .

والجديرُ بالذكر انّ في تطـوان وغيرها من مـدن المغرب مدارس خاصة ، يدعونها (دُور الصناعة) تُدَرَّسُ فيها فنـون النقش والمقربصات والترصيع الأندلسية ، لتَظَلَّ حيَّـةً متطوِّرة باستمرار . وقـد دَخَلْتُ دار الصناعة في تطـوان ، وتجوَّلتُ في ارجائهـا ، فادهشتني الصناعات الأندلسية الجميلة التـي يصنعها المتدرِّبون هناك ، حتى اذا مـا وَصَلتُ الى القاعة الأندلسيّـة في الطابق العُلْوي ، وَقَفْتُ ذاهـلا امام الجمال الباهر المتجلّي في الجـدران والسقف ، وفي قِطَـع الأثاث الخشبية البديعـة الصنـع .

إنَّ كلّ شيء في تطـوان ، حتى مداخل البيوت ، يوحـي اليك بانك في قِطعَةٍ مـن الأندلس العربيّة في ازهى عصورهـا .

* * *

وآتـي الآن الى الختام من هذه الجولـة السريعة ، لأقول إنَّ ما قدّمتُه في هـذه الدراسة الموجَزَة ليس سـوى خُلاصةٍ للانطباعات التي عُدتُ بها من جَوْلتي في مُـدن المغرب . ولكنَّ الواقع الـذي شاهدتُه ، وعِشْتُه ثلاثة اسابيع هنـاك ، يَظَلُّ اكبر من الكلمـات ، وهو جديرٌ بمزيد من التفاصيـل ، وجديرٌ كذلك بمزيد من الصُـوَر ، لِتُقَرِّبَ الوصف مـن الحقيقـة .

لقـد زُرْتُ الأندلس مرَّتين قبلَ زيـارة المغرب : كانت الأولى سنة ١٩٦٧ ، والثانية سنـة ١٩٧٤ . وكانت الزيارتان للدراسـة الفاحصة المتأنّية ، لا لِمُجَـرَّد السياحة والنزهة . وقـد امتلأت نفسي بما شاهدتُ هناك من روائع آثـار الحضـارة العربية الاسـلامية الباقية الـى اليـوم .

وحين زُرتُ المغرب عـام ١٩٧٤ ــ بعد زيارتي الثانية للأندلس مباشرة ــ احسستُ بـأن هذه الزيارةِ كانت ضروريـةً لكي تُكْمَل بها دراستي للأندلس : ذلـك لأنَّ بين البلدين ، الـى جانب التاريخ الطويل المشترك ، حضارةً مشتركـة باقية ، ولأنَّ المغـرب اليوم امتدادٌ رائع للأندلس ، وتاريخِـهِ ، وحضـارتِهِ ، وفنونِـه .

حول تعريب التعليم وتعريب العلم والتكنولوجيا

للدكتور أحمد سعيدان

لا غرو ان دعوات كثيرة قد انطلقت،وما تزال تنطلق ، من افراد وهيئات ومؤتمرات ، تدعو الى تعريب التعليم وتعريب العلم والتكنولوجيا، وان هنالك افرادًا وجماعاتٍ يُضيقون ذرعا بهذه الدعوات،فيعارضونها ويطرحون في المعارضة حججا وآراء جديرة بالتأمل والتفكير . وانّ دعوات الداعين ونواهي الناهين تصطبغ احيانا بصبغة انشائية خطابية او عاطفية انفعالية تنأى بها عن رزانة القرار الحكيم المسؤول؛ وهي تكاد دائما تَصدُر مِن منطلقات متعددة متباينة : فهي تارةً قوميةٌ وطنيّة ، وتارةً فقهيةٌ لغوية ، وهي احيانا تاريخيّةٌ او اجتماعيةٌ ، وكثيرا ما تتعارض او تتشابك او تتناقض، حتى لتكاد تضيع الحُجّة، وتحتجب الشجرة بأغصانها ، كما يقولون .

واني لأَهمّ ان اقول إني عازم على ان انحو في عرض القضية منحى موضوعيّا،ولولا اني اجد في من تَعرَّضوا للقضية مَن يَستهلّون البحث بزعم كهذا،ثم هم يُغرقون السامع او القارىء في متاهاتٍ من مغالطاتٍ ومتناقضات،كفريق يضرب على غير هدى،او يدور في دوّامة .

وكيلا اضربَ على غير هدى او ادور في دوّامة ساجنح الى النَّهج العلميّ،فأحاول تحليل الموضوع الى عناصر متميزة بعضها عن بعض ، ثم القي نظرة على هذه العناصر متفرّقة ، لأَخلُص من ذلك الى موازنة عامّة،فيها حساب الربح والخسارة،وكشف الحساب،وفيها خطّة واقتراح وبناء .

ولو كان ما نجابه عبارةً جَبْرية او مُرَكّباً كيماويّاً لوجدنا على الغالب نَهْجاً تقليديًّا لتحليله الى عناصر متميّزة ؛ ولكننا نُجابهُ قضيّةً تعيش معنا وتنطوي على واقع ماثل امامنا،يقوم على جذور ضاربة في اعماق تاريخنا،ويمتدّ الى كثير من خُطَطنا وتطلّعاتنا . فليس ثمّة، على ما اعلم،نَهْجٌ لتحليله الى عناصر سوى إنعام النظر فيه من زوايا مختلفة محدَّدة .

الزاويـة التربويـة :

وأُولى الزوايا المحدَّدة التي مِنها أَنظرُ في الأمر هي الزاوية التربوية،التي قَلَّما أولاها مَن تعرَّضوا للأمر ما ينبغي من عناية واهتمام .

إنَّ عملية التعليم عمليةٌ تربوية ؛ فطبيعيٌّ ان ننظر في تعريب التعليم من الزاوية التربوية المحضة.وتعريبُ التعليم يعني عندنا في الأُردن تعريب التعليم الجامعيّ،ويَنْصَبُّ على التعليم في الكُلّيات العلمية . وهذا ما أَحصُر البحثَ هُنا فيه،وإنْ كنتُ اعلم انَّ التعليم غيرَ الجامعيّ يفتقر في اقطارٍ اخرى عربيّةٍ الى التعريب . وفي مستَهَلِّ حديثنا عن تعريب التعليم في الكُلّيات العلميّة طبيعيٌّ ان نَستذكر ماذا نبغي من التعليم في هذه الكليات .

إنَّ إعطاء الطالب معارفَ وخبراتٍ تُمَكِّنهُ من اَجتياز امتحاناتٍ معيَّنة،ومن ممارسةِ مهنةٍ محدَّدة يؤهِّله تخصُّصه لها،ليس وحده الهدف من التعليم الجامعي؛اذ لَعَلَّ ما في كُتبٍ محدودة قليلة العدد ما هو اكثر واوفى مِمّا يُعطي المحاضرون في الجامعة ؛ ولعلَّ في خبرةٍ هندسيّةٍ يأخذها الطالب من بناء،او خبرة حسابيّة يفيدها من مصرف، ما يربو على الخبرة المقنَّنَة التي تُعطيها الأعمال المخبرية الجامعيّة في اوضاع افتراضيّة مصطنَعة .

ان الجامعة جَوٌّ اكاديميٌّ مثاليٌّ،يمارس فيه الطالب الحياة الموضوعيّة المنظَّمة المُضَبَّطة بحرّية رأي،وحرية تصرّف في حدود الموضوعية والنظام والانضباط،وعلى نحو يُستهدَف ان ينمي الطالب

نفسه بنــاءً متكاملا، تَبْرُز فيه شخصيته، ونَلمّس بــه مواهبه الكامنة، ويغدو بــه مواطنا صالحا، ايجابيًّا غير سلبيّ، قابــلا للتفاعل مع مَن حوله وممارسة القيادة والريــادة ، على خلفيّةٍ من المميزات والقِيَــم التي تسود في المجتمع الــذي سيعيش الطالب فيــه .

في ضوء هــذه الأهداف نُسترجع للذاكرة واقــعَ الكلّيات العلمية المتوافرة، او التي يُمكــن ان تتوافر على ارضنا، فَتَمْثُل امامنــا ثلاثة انواع من هــذه الكليات :

اولا : كُلّيات اجنبيةُ اللغــة والطابع، كالكليات الانكليزية والامريكية التــي تعرفها ؛ لغــةُ التعليم والمعاملات والحديث فيها غــيرُ العربية ، حتى يندر أن تجــد فيها اثنين يتكلّمان بالعربيــة .

يَدْخُلُها الطالب العربــيّ فيصدمه فيها امران : لغــةٌ لا يُتقن فهمها ولا التحدّث بهــا ، وبيئةٌ لا يألفها . فاذا هــو تَكَيَّفَ مع البيئة وعَجّل في اتقان اللغــة، سارت معه الريح رخاءً، ومضت امــوره بأمان في جَــوٍّ اكاديمي مثاليّ خصب . امــا اذا هو تَعَثَّر في هذا او ذاك، فقد ينقطع بــه الحبلُ في وَسَط الطريق، وقــد يَبْلغ نهاية الشوط خائرَ القــوى مُقَطَّع الأنفاس .

ونُظلم هــذه الكلّيات اذا لم نَعترف بانهــا تُحَقِّقُ لابنائنا معظم الأهداف التــي استرجعناها فيما سبــق .

ولكنّنا نظلم انفسنــا اذا لم نعترف ايضا بانها تَصْدُر عن قِيَــمٍ واخلاقياتٍ لا تنبعث مــن بيئتنا وجذورنا التاريخيــة، وأنّها تُعِدُّ الطالب لمجتمــعٍ غير المجتمع الذي سيعيش فيــه .

لقد خَرَّجت لنــا هذه الكلّيات نفرا من خــيرة ابنائنا وقادة الفكر فيما بيننــا ؟ ولكنّها اجنبية ، فهي لغيرنــا ؛ ادارتُها ليست بيدنا، وسياستُها ليســت من صُنعنا، وان من حقّنــا ، كسائر شعوب الارض ، أن يكون لنــا جامعاتنا التي تُنشأ بمالنــا، ويديرها رجالنا، ويملؤها ابناؤنا، وتُرَسَــم سياستها في ضوء حاجاتنــا وخططنا وتطلّعاتنــا .

انطلاقا من هذه الحاجة ظَهَر بيننا النوعُ الثاني من الكلّيات وهي :

ثانيا : كلّياتٌ عربيةُ الوجه واليــد واللسان :

تــد يدور في خَلَدنا انَّ هذه الكلّيات تُحقِّق كلَّ مــا تُحققه الكليات الأُجنبية وتزيد على ذلــك ، اولاً لأنّ الطالب العربــي اكثرُ استيعابا للمعرفة بلغتــه،ومن ثَمَّ فهو اعمق فَهمًا واولــى بالابداع،وثانيًا لأنه لــن يُضيع وقتًا وجهدا في اتقان لغـــةٍ جديدة؛وثالثا لأنّ الكلية تُمِدُّه لمجتمعنا العربــي،وتُنَشِّئُه على خَلفيّة مــن قِيَمنا واخلاقنا وبيئتنـــا وتراثنـــا .

ولكنالواقعَ غــيرُ ما نتوقّع ، لا في الكلّيات العلميــة ولا في الكلّيات الانسانية او غيرهـــا من الكليات . ذلك ان العلــم ينمو في هذا العصر على نحـــوٍ يوصَف بالتدفّق او التفجُّر ؛ ومع نمـــوّ العلم وتَدفُّقه يمضي تطـوُّرٌ مناهجه بسرعةٍ فائقة،حتــى ايندر ان يعيش كتابٌ علمـــي صالحًا دون حاجة الى تعديل ، اكثــر من خمس سنوات . وهو ينمو مـــادةً ومناهجَ على ايــدٍ غير عربيّة،وتُعبّر من الجديد فيه والتجديد ألسِنَةٌ غيرُ عربية ، في دوريّات كثيرة اجنبية .

فالكلّيات العلميــة التي جَعَلت العربيَّةَ لغــةَ التداول والتعليم، حَجَبَتْ نفسها عـــن منابع العلم،ولذا ما لبثت ان وَقَفَــت بمعزل عن تيّار التطوّر،سواء في المـــادة العلميّة والتعليميـــة ، ام في اساليب عَرضها ، بــل في اجهزة البحث والتدريس . انّ جُلَّ ما تقدمــه هذه الكليات إنمـــا هو اجترار وتكــرار .

هـــذا واقعٌ كُلُّ مَن يُدرك التطوُّر العلمـــيّ المعاصر لا يستطيع إنكاره ؛ ولقد قـــال قائلون جَدَلاً إنَّ القِلَّـــة القليلة من خريجي هذه الكليات هي وحدهـــا المؤهّلة للاستزادة من العلــم،وهي وحدها التي ستحتاج عندمـــا تستزيد الى اتقان لغـــة اجنبية ، وعندها نُدْفَع بها الـــى موطن هذه اللغة . وهـــذا قولٌ يَنمّ على سطحية وسذاجة ؛ فالعلــم الحديث ليس حُليَةً يَتَحلّى بهـــا من يقدر

او من يشاء،ولكنه حياةٌ وطريقةُ حياة،نلْمَسها في البيت والمدرسة والمكتب والشارع وكل مكان، وينبغي أن تَجدها لدى المعلم والطالب على السواء . حتى الكلّيات الانسانية، التي مادتها عربيّةٌ في كل شيء، قد تَحَجَّرت لانها افتقرت الى المنهجية التي نلمَسُها واضحة في الكتب الأجنبية المتقدمة ، والتي بدونها قُلَّما يكتمل بحث او تكتمل دراسة .

وهنا امران يَتَبَرَّم بهما جُلُّ الحادبين على العربيّة، الداعين الى استعمالها في كلّ مراحل التعليم : احدهما الحديث عن هذا التدفُّق السريع في المادة العلمية واساليبها، وثانيهما هذه المنهجية التي ازعم اننا نفتقدها في الكتب العربية ؛ فقد يَحْسُن الاَّ نُمُرّ بهما سراعا دون مزيد من التوضيح .

امّا عن تزايد المعرفة، فيكفي أن نشير الى أن مؤسسة اليونسكو نشرت قبل حوالي عشر سنوات احصائيةً تشير الى أنَّ مطابع العالم تُخْرِج في كلّ اربعين دقيقةً من الكلام المطبوع ما لو جُمِع في كتاب واحد لبلغ هذا الكتاب اربعةً وعشرين مجلدا ، كلٌّ منها بحجم المجلَّد الواحد في الموسوعة البريطانية المعروفة ؛ وانّ ما تُصدِرُه هذه المطابع في اليوم الواحد ينطوي على اكثر من خمسين مصطلحا علميًّا جديدا، لم يكن له قبل يوم واحد وجود .

ولعلني ان الناس يَنْسَون، ادعو القارىء الى أن يتذكّر كيف كانت وسائلُ المواصلات، مثلا، قبل ثلاثين عاما، وكيف هي اليوم . إنَّ الذي مَكّن لهذه الطفرة الواسعة انما هو فيضٌ من المنجَزات العلمية والتكنولوجية، نَقَلَت العالم من عصر الكهرباء الى عصر الطاقة النووية والحاسبات الالكترونية وسباق الفضاء .

وهذه المنجَزات لم تُحَقّقْها عقول عربية، ولم تُفَصِّلْها لنا كتب عربية ، وهي المادة العلمية التي تُسَيِّر حياة العصر وتزحم مناهج الدراسة، وبتطوُّرِها تَتَغَيَّر الحياة، وتتبدَّل المناهج. ونحن لا

نملك حيالها الا ان نقف تلاميذَ مستقبلين؛ هذا اذا اتيح لنا ان نفتح النوافذ لاستقبالهــا ، فان لم نفعل نذلك هــو التقوقع الذي لا يلبث ان ينجلي عــن تخلفٍ من فاتــه القطار .

هذه حقائق ، لا مبالغــة فيها ولا سبيل الى تجاهلهــا او انكارها ؛ وإنّ من الخــير ان نضعها نُصْبَ أعيننــا اذا كنّا نسائم الى تخطيطٍ مُحكَم فعّال .

سيقول قائــل : إن دخول العربية من البــاب لا يعني هَرَبَ الانكليزية، مثلاً، مــن الشبّاك . صحيحٌ انــه لا يعني ذلك ، فلا لزوم لان تَهْرَب اللغــة الأجنبية لأنها لم توجد اصــلا ، الا اذا حسبنا ان الفيزيائي الــذي يقضي عمره يُدرِّس الفيزيــاء في كتب عربيّة يَسْهُل عليــه فَهْمُها في مراجع اجنبية . كَــلّا ، حتى لو كان يتقن اللغة الأجنبيــة قراءة وحديثا . ليس صحيحــا عندنا ان العِلْم ليس له لغــة؛ وإن خبرتنا في الجامعة الاردنيــة لدليل ماثل علــى ذلــك .

امــا المنهجية التي اشرتُ اليها فهي اُسمٌ آخــر للطريقة العلمية في البحث والاسلــوب العلمي في عرض نتائــج البحث .

المنهجية اخلاق ؛ انها موضوعية تَتوخّــى البحث عن الحقّ وحده، وتبحث عنه بــلا هوى ولا نزق ولا انفعال، ثــم تَعْرِض الحقّ، ولا شيء غيره ، بــلا تكلّف ولا رياء ، ولا بهرجة ولا تلويــن ، وباسلوب يعطي الكلمة حجمهــا الطبيعيّ، فلا يصف بالعَظَمَة الاّ من كــان لــه منها نصيب ، ولا يُعَدُّ عظيما جــدًّا الاّ مَن كان نصيبه منها وافرا ؛ المنهجية تعطي كــلَّ ذي حقٍ حقَّه؛ فــاذا عَرَض امرؤ نتيجة بحثه، ذَكَر مــن ساروا في الدرب قَبْلَه، وايــن وَصلوا، وماذا حققوا ، ثــم ماذا كان دوره هو، وايّ جديد حَقَّــق ؛ والمنهجية امانة ؛ امانة تجاه الحقيقة، وتجــاه القارىء والتاريــخ .

ليس في المنهجية نفـاق ولا اسلوب خطابي ولا ،بالغـة ولا بهرجة كـلام غير ذي مضمون ، وليس فيها تلويـن للحقّ ولا تحريف لـه ولا افتراء عليه . ومـا احوجنا الى هذا كلّه في ما نقرأ ومـا نكتـب .

ولـم يَسْبق الغربُ الـى المنهجية : لقد بدأت بالاسـلام في عصوره الأولى عندما كـان رواةُ الحديث يَشدّون الرحـال، ويَقطعون آلاف الفراسخ من اجـل التأكّد من نَصٍّ مـا نُسِبَ لراوية مـا . ولكنَّ المنهجية ضاعت في العصور الاسـلامية المتأخرة ، ولقيها الغرب في أواخـر القرن الماضي بعد معانـاة طويلة شهد فيها كثيرا مـن الافتراء وكثيرًا من الادعاء . وهـا نحن اليوم نَجِدُها في البحوث العلميّـة الغربية،وفي الكتب العلمية الاوروبيـة، وكثيرا مـا نَفتقدها في البحوث والدراسات العربيـة . لقد جَمَعَ بيرسون في فهرسـه الاول كلَّ ما نُشِر في الدوريـات من بحوث ودراسات حول الفكـر الاسلامي،من مَطْلع هذا القـرن الى سنة ١٩٥٥ (المجلـد الاول) زهاء ٢٦ الـف بحث،ليس بينها بالعربية بحث واحـد تتوافر فيه عناصر المنهجيـة .

خوفًا من التقوقع،وحُبًّـا بالمنهجية،اختارت بعض الجامعـات العربية نوعا ثالثـا من الكليات العلمية،وهـي :

ثالثا : كليات عربيـة انكليزية :

لغـة الحياة والمعاملات في هذه الكلّيات هـي العربية ، ولكنَّ لغـة المحاضرات والدرس والامتحان هـي الانكليزية : فالكُتُب المقرّرة والمراجع انكليزية،وعلى هـذا فالباب مفتوح على مصراعيه لأحدث المناهج ، ولا خـوف عندنا من تقوقع أو تَحَجُّـر .

بعضُ الناس يَصعُب عليهـم ان يَروا الواقع ، وبعضُهـم يَصعب عليهم ان يَعترفـوا بما يرون،وهؤلاء جميعا قـد يَعْتَبون علي اذا قلتُ إنَّ الطالب المتوسّط عندنا يفقد لغتـه ولا يتقن الانكليزية ،

بالضبط كالغراب الذي قلّد مشية غيره . اننا لم نضعه في جو يتعلّم فيه الانكليزية ، لا حديثا ولا كتابة ، وانما طالبناه ان يُفهم ما يقرأ وما يسمع . اما ما يقرأ فتلك مادة الكتب المقررة يفاجأ بها الطالب منذ اللحظة الاولى، فتحدث لديه رعشة وفي نفسه عقدة ، وقلّما تزول تلك الرعشة، وقلّما تُحَلُّ تلك العقدة ؛ فلا ينبغي أن نحسب انه يَفهم ما يَقرأ فهمًا تامًّا ، ولكنّها صُورٌ لذلك المقروء تُرتسم في مخيّلته، ومعها تصوراتٌ غائمة قلقة لا تلبث أن تنمحي، فيغدو وكأنه لم يقرأ شيئا .

وأمّا ما يسمع الطالب في المحاضرات فقلّما يكون انكليزيًا، وانما هو خليط من انكليزية سقيمة وعربية عامية؛ ومع ذلك رُبّما كان هذا الذي يسمعه هو وحده الذي يفيد منه الطالب في جامعته اذا هو أحسن الاستماع، او اذا احسن المعلم الاداء ؛ لأنَّ طُلّابنا قَلّما يُرجعون الى المراجع لأنهم لا يفهمونها ، وقَلّما يُحسنون استعمال كتبهم المقرّرة لانهم لم يُهَيّأوا لها ؛ وهم قَلّما يناقشون في المادة العلمية لانهم لا يحسنون الحديث بالانكليزية ، فما هي النتيجة ؟ يَنْضَمّون الى تلك الاكثرية الصامتة السلبية، التي تُجهد نفسها في تحصيل بعض الفهم تحصيلا مؤقتا من اجل الامتحان، وينتهي بانتهائه .

جاءتني قبيل الامتحان طالبة في السنة الاولى في حالة هستيرية تقول : كُلُّ مسائل PERCENTAGE هي طلاسم بالنسبة اليّ، فَهَلاّ افهمتني عمَّ تبحث ؟ قلت : الم تدرسي النسبة المئوية في الصف التوجيهي ؟ قالت بلى ؛ قلت ذلك هو ما تبحث فيه ؟

— صحيح ؟

— نعم

— اذن " PERCENT " معناها "في المائة" ؟

— بالضبط

— ما اغباني !

وفي الامتحان رأيت طالبا مضطربا يريد ان يستوضح معنى كلمة " Sphere ". وبعد الامتحان جاء الطالب يجادلني مؤكدا ان معلمه فسر الكلمة بمعنى "الجَوّ"، فلما اكّدتُ له ان الجَوّ يقابلها بالانكليزية كلمة " Atmosphere "، شعرت بالطالب كأنّ شبكة معقّدة قد انحلّت امام بصيرته .

سيقول قائل : هذا الذي تصِفُه حالاتٌ فردية شاذة،تحدُث في مرحلة مبكّرة ولا تحدث فيما بعد ذلك.ولكنني اتمنّى لو ان احد المعنّيين بالامر كلّف مجموعة من الطلاّب العلميين، في نهاية المرحلة او بعد التخرج،ان يكتبوا له اسطراً قليلة ، بالانكليزية او العربية،في موضوع ما يتعلّق بتخصُّصهم ؛ عندها سيجد عجبًا . لي مع طالب مَنَحْناه الماجستير في الرياضيّات قصةٌ عجيبة ؛ هذا الطالب لا اذكر اسمه ولكنّي لا انسى قصتي معه ؛ علَّمْتُه في كلّ سنة من سنوات دراسته للبكالوريوس،ولا اذكر انه في مرّة واحدة ناقَشَ او وَقَفَ لالقاءِ سؤالٍ او اقتراحِ حلّ . كان دائما مع الصامتين الذين يحسنون الاستماع ، فاذا جاء الامتحان يُحلِّق مع المتفوقين .

ومُنِح الطالب البكالوريوس بدرجة "جيّد جدًّا"، وتقدم للماجستير،وكان من نصيبي أن اعطيه مساقا من هذا المستوى . وكان من واجباته في هذا المساق ان يُعِدَّ تقريرا مكتوبا،وان يَشْرح مادته في الصفّ كيما نناقشه . وقد اكّدْتُ على الطلاب ان يُعِدَّ كلٌّ منهم تقريره بالعربية،كيما يجري النقاش بالعربية ؛ هذا بالرغم من ان المراجع كلّها بالانكليزية . لقد اردتُ ذلك لأحولَ بين الطلاب وبين النقل الحرفي من المراجع ؛ لقد اردتُ ان يكون لهم دور اكثر من مجرّد التلخيص . ولقد قام الطلاّب بهذه المحاولة،الاّ ان تقاريرهم كانت كمحاضراتِ اساتذتهم،خليطا عجيبا من العربية والانكليزية ، الا هذا الطالب؛فَقَبْلَ الموعد المحدّد لمناقشة تقريره،جاءني يرجو ان يُقَدِّم تقريره بالانكليزية

لانه لا يستطيع نقلـه الى العربية . وحين اخـذ الطالب يقرأ تقريره،مضى حوالي ربــع ساعة حتى تأكد لديَّ انــه يتكلم حقًا بالانكليزية،كان تقريره علــى النحو الذي ألِفناه من طلابنـا : فقرات مقتبسة من المرجــع أو المراجع،ولكنَّ الفـاظ الطالب كانت عجيبة ، لا تَمُتُّ الى ايــة لغة ؛ حتى تلك الالفاظ التي تتكرّر في كـلّ محاضرة في موضوع تَخَصُّصِه ؛ لقـد سمعها اكثر من مائـة مرة من عدد من المحاضرين ، ولكنْ لـم يتقن لفظها،فلَفَظَها بطريقـة مضحكة تبعث في النفس السخريـة ؛ والتفسير واضح : لقد كـان الطالب يَحضر المحاضرات ويصغـي ، ولكنَّ فكره كان مشغـولا،كان يُعَوِّل على ان يحفظ صُوَر المـادّة التي يجدها في الكتاب،فيعيد رسمهـا على نحوٍ ما في الامتحـان ؛ ولو كان أعمق من ذلك فهمًالعـا عجز من نقـل المعاني الى لغتـه .

والنتيجةُ واضحة،أنّنـا لم نُخَرِّج فيه طالبـا يستطيع ان يكون مواطنا صالحا،يفيـد مجتمعه بعلمه وتَخَصُّصِه ، لا بالعربيـة ولا بالانكليزية ولا بخليـط من اللغتين ، ولا خرّيجًا يُمْكِـن في ايّ مجتمع ان يُعْطيَ عـن جامعته فكرة طيبة . ومـا اكثر الدلائل على ان القلّة من خرّيجينا هـم احسن حالا من هـذا الطالب .

إنِّـي أُقَدِّرُ لزملائي في الكليات العلميّـة جهودهم،ولا يدور في خلدي لحظةً انْ أَنتقِص مـن هذه الجهود وهذا الجهـاد ؛ ولكنَّ النقد الذاتيَّ دليلُ عافيــة،والاعتراف بالواقع علامةُ قـوّة،والاندفاع الـى الأحسن والعمل مـن اجله بشيرُ صحة.وانّ من القـوّة والصحة والعافية ان نراجــع مواقفنا،ونتبيَّن مواقــع اقدامنا .

مـا العمـل ؟

تُقَصِّر الكلّيات العربيــة والانكليزية عن تادية رسالتهـا كما ينبغي، لانها لا تُهيّىء الطالب للفهـم والتفاعل مع العلم الـذي يتعلّمه،بحيث يصير هذا العلم جزءًا مـن شخصيّته وكيانه وحياتــه ؛ فهي كلتاهما يبقى

الطالب بشخصيّتين : شخصية عربية حياتها ومعاملاتها بالعربية ، ولكنْ لا يتعلم بهذه اللغة،ومن ثَمَّ فعلْمُه ليس عاملا على تهذيب لغة حياته ومعاملاته ؛ وشخصيّة محيّرة تُحاول ان تتعلّم بالانجليزية وهي لا تفهمها،وتحاول ان تُعبّر عن علمها بهذه اللغة فتتعثّر . انها ازدواجية ذات وجهين : وجه ساذج لا يوجَدُ ما يصْقُلُه،ووجه متخاذل لا يَجد ما يبعث فيه نفحةً من ثقة او قبسا من قوّة .

وتُقَصِّر الكلّياتُ العربية المحضة عن تأدية رسالتها كما ينبغي، لانها بمعزل عن ينابيع العلم . كان ينبغي ان يرافقها جُهدٌ دائب لتعريب العلم ؛ اي تكوين اجهزة تَعمَل باستمرار لنقل الفكر العلمي الى العربية ، كُتُباً ومراجع ودوريات. وهذا يَقتضي بإقامة مؤسسات للترجمة والتعريب،تقوم بجانب المؤسسات الاكاديمية التي تُعْنَى بتخريج المتخصّصين،سواء في العلم او في التكنولوجيا ، حتى يستطيع الطالب والعالم على السواء ان يصلا الى ينابيع المعرفة بلغتهم التي شاعوا .

ولكنّ اقامة مؤسسات الترجمة التي تُمِدُّنا بما نحتاج اليه من كتب ومراجع ودوريات مترجمة ومعرّبة،مشروعٌ يقتضي عملا دائباً غير منقطع،لن يؤتي أُكُله على نحو مُرضٍ في اقلّ من نصف قرن . فهل ننتظر خمسين عاما حتى تتكاثر لدينا الكتب المترجمة في شتى فروع العلم،ثم نبدا بتأدية رسالتنا ؟ لا ، فهنالك بالتأكيد حلٌّ وسط يُغني قبل تعريب العلم،ويمهّد لتعريبه .

يقتضي هذا الحل الوسط ان يجري التعليم في الكلّيات العلمية على نحو كالآتي :

١ — في السنة الأولى الاكاديمية يتلقّى الطالب علومه الاساسية بالعربية وباستعمال كتب مترجمة ، او غير مترجمة ، ويأخذ في كلّ فصل دراسي مساقا في اللغة الانكليزية ، يُعرِّفه بالمصطلحات العلمية،ويزيده في هذه اللغة قوّة .

٢ ــ في السنة الثانية يَبدا تخصُّص الطالب، وفيها يتلقّى علومه بالعربيّة، الا مساقا واحدا في كل فصل يتعلمه بالانكليزية ، من موضوعات تَخَصُّصه .

٣ ــ في السنتين التاليتين يُجري تعليمُ الطالب بالعربية، مع التأكيد على استعمال مُراجِعَ اجنبية ؛ على ان ياخذ في كلِّ فصل مساقا واحدا على الأقلّ من موضوعات تخصُّصه بالانكليزية . وتَنَامِ استعمال الطالب للمراجع الأُجنبية بحيث يغدو الرجوع اليها من مستلزمات تَخَرُّجه .

اذا جرى في الوقت نفسه ترجمةُ الكتب العلمية بنشاط ، امكن تحقيق الهدف المنشود في وقت غير طويل .

اننا نعتقد انَّ مِثلَ هذا الحلّ الوسط اكثرُ فائدة للطالب العربي مما تنتجه الكلّيات العربية المحضة، والكلياتُ العربية الانكليزية ؛ وهو بالتاكيد اقلُّ خَطَرا . انه يُضْمَن تقويةَ الطالب باللغة الانكليزية ، ثم هو نَهْجٌ مرنٌ قابل للتعديل. ولعلَّ ما يلزمنا في هذه المرحلة من حياتنا انْ نُقَوّيَ الطالبَ في لغتين، لا واحدة، بالاضافة الى اللغة الام .

الزاويـة اللغويـة :

أمـا وقد بان من الزاوية التربوية ايّ نَهْج ينبغي ان نسلك، فذلك هو القول الفصل .

ولكنَّ هنالك من يتساءلون : أتستطيعُ العربيَّة ان تَستوعبه لغة العلم والتكنولوجيا ؟

هل اللغةُ تُخْلِق الفكر ام الفكرُ يُخْلق اللغة ؟

وهنالك من يُجيبون، فيتحدّثون عن مرونة العربية واشتقاقيّتها ، وعن تجربتها السابقة. وفي طيّات هذا الحديث وذاك تَرِدُ اقوالٌ هي مثارُ جدل ونُقَطُ حوار . وهذه كلُّها في تقديري معاركُ جانبيّة لا تُقَرِّر

ولا تنفع ، ولِكُلّ لغـــة خصائصُها وعبقريّتها ؛ ونحن نعرف مـــن خصائص اللغة العربية وطواعيّتهـــا للفكرة الدقيقة ما قـــد يَتّسع فيه مجال الحديث، ونخرج بـــه عما نستهدفه من هـــذه الكلمات .

ولكنَّ الخبرة الماثلـــة امامنا تشير الى انَّ لغـــاتٍ نجمت من لا شيء، وأُرِيدَ لها ان تنشـــا وليس لها من الخصائص شيء ؛ ثـــم هي بإرادة اهلها استوعَبَت لغـــة العلم والتكنولوجيا ، لـــم تَضِق بها ولم تُخْنُقها .

ان مئاتِ الأقطـــار في الشرق والغرب تُعَلِّـــمُ بلُغاتها، وتُسْهِم في خدمة العلم على قـــدر طاقتها، وتُحرِز انجازات ؛ واكثرُ هـــذه الاقطار لم تكن لغاتها ولا طاقاتهـــا حتى وقت قريب ذاتَ وزن فـــي المقاييس العالمية .

ومن التساؤلات التي تثـــار : هل نترجم ام نُعَـــرِّب ؟

قـــد لا يكون هنالك قاعدة ذهبية عامّة اولـــى من قاعدة وضعها المجمع اللغـــوي في القاهرة، اذ قال : الاصطلاح العالمي نُعَرِّبُـــه ، اما غيرُ العالمـــي فنبحث له عن لفـــظ عربي .

وقد اعتبروا الاصطلاح عالميًـــا اذا كان يُسْتَعْمَل فـــي الانكليزية والفرنسيـــة والألمانيـــة .

على ان الاستعمال هـــو وحده الحَكَم في هذه الامور، فقـــد يشيع بالاستعمال لفـــظٌ اجنبيّ، ويَسْقُط لفـــظٌ عربيّ ؛ وذلك كله حسب ذوق الناس واستحسانهم اللفـــظ أو استجاباتهم لـــه .

يبقى امر لا بـــد من ذكره لمـــن يتساءلون : هل تتّسع العربيةُ لغـــةً العلم ، وامام مـــن يجيبون تنزُّلاً بخصائصهـــا .

تُقَـــدَّرُ الكلمات المختلفة التي استعملهـــا شكسبير في مسرحياته بنحو ١٤ الـــف كلمة ؛ وعلى هذا نستطيع ان نَفْتَرِض ان تلك هـــي سَعة اللغة الانكليزية في ايـــام شكسبير ، عندما كانت خلـــوًا من الالفاظ العلمية، لانَّ لغـــةَ العلم في البلاد الاوروبية كانت مـــا تزال هي اللاتينية .

امـــا الآن فقد أحصيت المصطلحـــات الانكليزية التي تستعمل في حقل الطـــبّ العام وحده،دون فـــروع التخصص فبلغت ٧٤ الفـــا .

ماذا يعني ذلـــك ؟ اذ نحسب ان اللغة الانكليزية قـــد اتسعت حتى بلغت المصطلحاتُ العلمية فيهـــا مئات الالاف،تسترعي انتباهنـــا امسالة اخرى تشير الى انّ معظم هـــذه المصطلحات هي نفسها فـــي الفرنسية والالمانيـــة . إنّ لغات البلاد المتقدّمة قـــد تفتّحت بعضها على بعض، وتعاونت معـــا في استيعاب الأفكار العلميـــة .

ان العلم ينمـــو باسرع ممّا تنمو اللغة ، بـــل باسرع من خيال الشعراء ؛ وإنّ كـــلّ لغة لتضيق عن استيعاب العلـــم او مجاراته . ولهذا تلهثُ اللغاتُ وراء العلـــم،ويَضيقُ العلماء بلُهاثِها فَيلجأون الـــى الرمزيـــة يعبّرون بهـــا عن افكارهم .

امـــا رجالُ اللغة فيأخذُ بعضُهم مـــن بعض دون تَحَرّج،وهـــم يَعتّزون بمـــا يأخذون ويَعُدّونه إثراء لِلُغتهـــم .

واني اتمنّى لـــو نَنْسج نحن على هـــذا المنوال،فنأخذ عن اللغات دون تَحَرُّج الفاظـــا وطُرُقَ تعبير،ونَعُدّ ذلك إثـــراء للعربية نعتزّ بـــه ؛ وذلك كيما نواكب التقـــدّم العلميّ،ونُسـاير الركب،ونعترف عمليّـــا وواقعيًا بأن اللغة كيـــان متطور .

هـــذا ما صَنَعَه اجدادُنا عندما قاموا بنَقْل الفكـــر العالميّ الى العربية؛ومـــاذا يضيرنا ان تاخذ العربيُّة من الـــدم العالمي الحديث كما اخذت في المـــاضي من الدماء الفارسيّـــة والهندية والإغريقية ؟

الزاويـــة القوميّة الوطنية :

اذا شئنا ان نتناول الموضـــوع من كلّ جوانبه ، فلا بُـــدّ من النظر فيه من الزاوية القوميّـــة والوطنية . وهنا يَتّســـع مجال الحديث ؛ فحاملو لـــواء القوميّة والوطنية يقولون إن لغتنـــا هي هويّتنا،وهي مرآة شخصيّتنـــا العريقة المُمَيّزة ، ثـــم ان الاسلام والعربية هما اللذان يحفظان للأمـــة وحدتها،رغم ظواهر التفـــرق والتشرذم التي تنخر

لاسباب سياسية . وعلى هــذا فَهُم يرون أن تعريــب التعليم واجب قومي وطني، بــه نحافظ على هُويّتنا وشخصيّتنا، وبــه نقوّي روابط وحدتنــا .

ولكنَّ من النـــاس مَن يجادلون، فَيُشيرون الى بــلاد متفرّقة رغم انها تتكلم لغــة واحدة، ويشيرون الى بــلاد مُتَّحِدَة رغم ان فيهــا لغتيـن رسميتيـن .

وفي تقديري ان الخوض في هذيــن الرايين، وتفاصيل مــا لهما وما عليهما، يُخرج بنــا عن موضوع التعريــب .

وفي يقيني انّه لــو وقَف كلُّ اصحاب الراي ضــدَّ العمل من اجل وحدتنا وتوحيدنا، لوجــب ألاّ يعوق ذلك العمل من اجــل الوحدة، لان بهــا بقاءنا وتكاملنــا وقوتنا .

ولكنَّ اذلــك حديثا آخــر .

نشأة النحو العربي في ضوء كتاب سيبويه

للمستشرق الفرنسي الأستاذ جيرار تروبو
استاذ فقه اللغة العربية في السوربون - باريس

لا شكَّ ان النظـــام النحويّ في كل لغـــة له اهمية كبرى ، لان النظام النحويّ يعبر عن بُنْيـــة اللغة ويصوغ فكر الناطقين بهـــا ؛ ويُمْكِنُنا القول إن النظـــام النحويّ العربيّ يحتلّ محـلاً بارزا بين النُظُم النحوية الكبرى الموجـــودة في العالم ، من اجل موقعـــه المتوسّط بين النظام اليوناني، في الغـــرب، والنظام الهندي، في الشرق ؛ فكان مـــن الطبيعيّ أن يلفت المستشرقون انظارهم اليـــه ، ليدرسوا نشأته وتطوُّره .

ان المستشرق الالمـــاني Merx ، الـــذي نشر في منتهى القرن التاسع عشر كتابا عنوانـــه « تاريخ صناعة النحـــو عند السريان » ، هو الذي زعـــم لأول مرة ان المنطق اليونانـــي أثّر في النحو العربي ، لان الثاني قـــد اقتبس من الأول بضعـــة من المفاهيم والمصطلحات .

ثـــم نرى معظم المستشرقين قـــد اتخذوا هذا الراي بدون تمحُّص ؛ فقال المستشرق الفرنســـي Fleisch في كتاب ألّفـــه في علـــم اللغة : « انه مـــن الواجب أن نشير الى تاثيرٍ يونانيٍّ في النحـــو العربي ، فقد اقتبس الفكـــرُ النحويّ العربي مفاهيم أصلية من العلـــم اليوناني ، لا من النحـــو اليوناني ، ولكنْ من منطق ارسطـــو » .

غير انَّ المستشرق الانكليـــزي Carter رفَضَ هذا الـــراي في مقالة نشرها منذ عدة سنوات، وسمّاها : « في اصول النحـــو العربي » . فَبيَّن في هذه المقالـــة انّ سيبويه يستعمل في الكتـــاب مجموعتين من المصطلحات : مجموعـــة قليلة العدد تتضمّن مصطلحاتٍ لعلّهـــا يونانية الأصل ، ومجموعة كثيرة العـــدد تتضمن المصطلحات العربيـــة الاصل ، منقولة من الفقـــه الى النحـــو .

ومــع ذلك فان المستشرق الهنــدي Versteegh نشر فــي مستهلّ هــذه السنة ، كتابا عنوانــه « العناصر اليونانيــة في الفكر اللساني العربي » ، يدافع فيــه عن نظريّة التأثير اليوناني في النحــو العربي ، فيعتبر ان النُحاة العــرب القدامى قد اقتبســوا بضعة من المفاهيم والمصطلحات ، لا مــن المنطق اليوناني ، كما زعم Merx ، بل من النحــو اليوناني ، وذلك بواسطــة اتّصالهم المباشر باستعمال النحو اليوناني الحــيّ،كما يقول ، في مراكــز الثقافة اليونانية الموجودة في الشرق الأدنــى بعد الفتح العربــي .

فسأود في هذه المحاضرة ان افحص تلــك الآراء المتناقضة في نشأة النحو العربي ؛ وهــذا في ضوء كتاب سيبويــه ، الذي سمّاه الناس «قرآن النحو» حسبما روى عنه النحوي الحلبي ابــو الطيّب اللغوي .

* * *

ان المستشرقين ، لِيُبيّنــوا التأثير اليوناني في النحــو العربي ، يحتجّون على العموم بــأن النُحاة العرب القدامى قــد اقتبسوا من المنطق اليوناني تقسيــم الكلام الثلاثي ، ومصطلحات اربعة هــي : الإعــراب والصرف والتصريف والحركة . فينبغي لنــا اولا أن نتساءل: هل كان من الممكــن ، من الناحية اللسانيــة ، أن يكون هؤلاء النحاة قد اقتبسوا هــذا التقسيم .

إنّ تقسيم الكلام امــر مهمّ جدا في كل نظــام نحوي ، لانه يشترط هذا النظام ، وبالنسبة الى ُبنية كل لغــة،مُيّز النحاة عددا مختلفا مــن الاقسام . فــان النحاة اليونان قد ُمّيزوا في لغتهــم ثمانية اقسام،وهي، حسبما قــال ارسطو في كتابه في الشعر : الحــرف : stoikeion

المجموع : syllabe الربــاط : syndesmos الفاصلة : arthron

الاسم : onoma الكلمة : rhema الوقعة : ptosis القول : logos

امــا النحاة العرب فانهم،كما تعلمون،لــم يميّزوا في لغتهم الا ثلاثة اقسام،وهي،حسبما قــال سيبويه في الكتاب : الاســم والفعل والحرف .

ولكنْ ، على الرغم مـن الفرق الكبير الذي يظهر بـين عدد الاقسام في النظامين ، يَدَّعـي بعض المستشرقين ان النحـاة العرب قد اقتبسوا هذا التقسيم عـن المنطق اليوناني . فَلِنَسْتَطيع ان نَـرُدَّ على هذا الادّعاء الفاسد ، سنبحث عن كـل واحد من هذه الاقسام في النظـام اليوناني ، وعن القسم المقابل لـه في النظام العربـي .

ليس لِقِسْم الحـرف اليوناني قِسْم يقابله في النظـام العربي ، لأنَّ سيبويه لـم يجعل حروف الهجاء قسمـا مستقلاً في تقسيمه،كما فعل ارسطـو . وكذلك ليس لقسـم المجموع اليوناني قِسْم يقابله في النظام العربي ، لان مفهـوم المجموع المركّب من حـرف غير مصوّت وحرف مصوّت ، مفهوم صوتـيّ يختلف عن مفهوم الحرف السـاكـن والحرف المتحـرك الذي نجده عنـد سيبويه .

امـا قسم الرباط اليوناني فانــه لا يقابِلُ الا جزءًا من قسـم الحرف العربي ؛ ونجـد فرقا بينهما ، لأنّ الربـاط عند ارسطو لفـظ خـالٍ من المعنى ، بيـد أن الحرف عند سيبويه لفـظ له معنى .

يشتمل قسـم الفاصلة اليونانيّ على آلـة التعريف والاسـم الموصول ، وهما عنـد ارسطو لفظان خاليان مـن المعنى؛ فليس لهذا القسم قسم يقابلـه في النظام العربي ، لأنّ سيبويـه يَعْتَبر ان الاسم الموصول اسمٌ غير تـامٍّ،يحتاج الى صلة،فيدخله في قسـم الاسم ، كما انه يَعْتَبر ان آلـة التعريف لفـظ له معنى،فيدخله في قسـم الحرف .

امـا قسم الاسم اليوناني فانه يقابِل قسم الاَسـم العربي ، غير اننا نجد فَرقًا بـين القسمين ، لان الاسم عند ارسطـو لفظ له معنى يدل على شيء ، بيـد ان الاسم عند سيبويه لفـظ يقع على الشيء،فهو ذلك الشـيء بعينه .

وكذلك يقابل قسمُ الكلمـة اليوناني قسمَ الفعل العربـي ؛ فالكلمة عند ارسطو لفـظٌ له معنى يدلّ على زمان ، والفعل عنـد سيبويه مثال اخـذ من لفـظ حدث الاسم ، فيه دليل على مـا مضى وما

لـــسم يمضي ؛ غير اننا نجد فرقـــا بين القسمين ، لان الصيغة غـــير
البيّنـــة aparemphatos مضمّنة في قســـم الكلمة اليوناني ،
بيـــد ان المصدر مضمّنٌ في قسم الاســـم العربي ، كما ان الصيغـــة
المشتركة metochikon مضمّنة في قسمي الاســـم والكلمة معا
في النظام اليوناني ؛ بيـــد أن اسم الفاعل مضمّن في قســـم الاسم فقط
في النظـــام العربي .

وأخيراً، فليس لقســـم الوقعة اليوناني قســـم يقابله في النظام العربي ، لان مفهـــوم الوقعة التي تحدث فـــي آخر الاسم او في آخر الفعل ، مفهوم غـــير موجود عند سيبويه ؛ وكذلك قســـم القول ، الذي هو عند ارسطـــو مركّب من الفاظ لها معنى ، ليس لـــه قسم يقابله في النظـــام العربي ، لأنّ سيبويه لـــم يجعل من القول قسما مستقـــلا فـــي تقسيمـــه .

فمن الناحيـــة اللسانية ، يظهر لنـــا انه من المستحيل أن يكون التقسيم العربيّ منقولا مـــن التقسيم اليوناني ، لان عـــدد الاقسام ومضمونها يختلف فـــي النظامين اختلافا تامـــا .

ثـــم يجب علينا أن نتساءل هـــل كان من الممكن ، من الناحيـــة اللغوية ، ان يكون النحـــاة العرب القدامى قـــد اخذوا عن النحو اليونانـــي تلك المصطلحات الاربعـــة التي هي : الاعـــراب، والصرف، والتصريـــف، والحركـــة .

يزعم أتباع التأثـــير اليونانيّ ان كلمة الإعراب نُقلـــت من الكلمة اليونانيـــة hellenismos . مـــا معنى هذه الكلمة في اصل اللغـــة اليونانية ؟ hellenismos اســـمُ فِعلٍ يوناني تعريبه: هلّـــنَ شيئا تهليينـــا ،اي صيّره هِلّينيّـــا .

قـــال ارسطو في كتابه في الخطابة : « ان اصـــل الكلام هو الوجه الهلّيني في التكلم» ، اي الوجـــه الصحيح الذي يحصل عليـــه بمراعاة خمســـة اشيـــاء :

١ — باستعمال الروابط،اي حروف العطف ،

٢ — باستعمال الكلمات الخاصة ،

٣ — بعدم استعمال الكلمات الملتبسة ،

٤ — بتمييز الأجناس في الأسماء ،

٥ — بتمييز الأعداد فيها .

ويرى فيلسوف رواقيّ ان التهلين هو التكلم الصحيح على وجه الصناعة ، لا على وجه العامة .

فنلاحظ ان الكلمة hellenismos كلمة عامة تختص بالكلام برمّته ؛ فانها اصطلاح خطابي وليس باصطلاح نحوي .

اما معاني الإعراب في أصل اللغة العربية فهي ثلاثة : اولا الإبانة والإفصاح عن الخواطر ، ثانيا إزالة الفساد في الكلام ، ثالثا تغير آخر الكلمة .

فقال ابن جني في كتاب الخصائص : « وكان الاعراب من قولهم : عربت معدته اي فسدت ، كأنها استحالت من حال الى حال ، كاستحالة الاعراب من صورة الى صورة » . وقال ابن الأنباري في كتاب اسرار العربية : « ان الإعراب سُمّي إعرابا لانه تغيّر يلحق اواخر الكلم ، من قولهم : عربت معدة الفصيل اذا تغيرت » .

والواقع ان سيبويه يستعمل كلمة الاعراب ليَدلّ على ما يسميه « مجاري اواخر الكلم »،يعني التغيّرات التي تَحدُث في آخر الاسم المتمكن،والفعل المضارع لاسم الفاعل . والاعراب عند سيبويه نقيض البناء الذي يدلّ على عدم التغيّر في آخر الكلمة .

فنلاحظ ان الإعراب كلمة تختص ببعض الكلمات فقط في الكلام ، فانها اصطلاح نحوي وليست باصطلاح خطابي .

ثم يَدَّعي انصار التأثير اليوناني ان كلمة الصرف نُقلت من

الكلمة اليونانية klisis ، وان كلمة التصريف نقلت من الكلمة اليونانية ptosis . ما هو السبب الذي دفعهم الى هذا الادعاء ؟ السبب هو ان النحاة اليونان كانوا يعتبرون أن الاسم ، بالنسبة الى حالته الاصلية التي هي حالة التسمية onomasticos ، له ميل klisis الى حالات اخرى ، كما ان الفعل بالنسبة الى حالته الاصلية التي هي حالة الحاضر enestos ، له ميل الى حالات اخرى ؛ وكان النحاة اليونان يسمّون كل واحدة من هذه الحالات المتغيرة وقعة : ptosis

قال ارسطو في كتابه في الشعر : « اما الوقعة فهي للاسم او الفعل ، وتدل على معنى حرف « ل » او حرف « الى » وما اشبه ذلك ، او على الإفراد او الجمع او نوع كلام القائل ، مثل الاستفهام او الأمر » .

وقال في كتابه في الخطابة : « تغيُّرات الاسم المائل هي وقعات الاسم ، كما ان تغيُّرات الفعل المائل هي وقعات الفعل » .

اما معنى كلمة الصرف في كتاب سيبويه، فان هذه الكلمة تدلّ على إلحاق حرف النون للاسم، وللاسم فقط ، لان هذا الحرف علامة التمكّن ، يعني استقرار الكلمة في قسم الاسم .

واما معنى كلمة التصريف فيَستعمِل سيبويه هذه الكلمة للدلالة على التغيُّرات التي تَحدُث في داخل الكلمة، فانه لا يستعملها ابدا للدلالة على التغيُّرات التي تَحدُث في آخر الكلمة .

فنلاحظ ان مفهوم الميل ومفهوم الوقعة غير موجودين في النظام العربي ، كما ان مفهوم التمكّن ليس بموجود في النظام اليوناني .

ثم يزعم أتباعُ التأثير اليونانيّ ان كلمة الحركة تُرجِمت من الكلمة اليونانية : kinesis ، وذلك لان بعض النحاة اليونان حَدّدوا الوقعة بأنها حركة تَحْدُث في آخر الاسم ، فيستنتجون من هذا التحديد ان الحركة عند النحاة العرب كانت تَدلّ في الاصل على

الصوت الاساسي ، يعني ذلك الصوت الذي يشير الى الوقفة في آخر الاسم ، ومن ثم استُعْمِلَت هذه الكلمة بصفة عامة للاشارة الى المصوت .

نلاحظ اولا ان مفهوم التحريك في النظام الصوتي العربي لا يتفق ابدا ومفهوم التصويت في النظام الصوتي اليوناني ؛ فان ارسطو يقسم الحروف الى مصوِّتة ونصف مصوتة وغير مصوتة ، بيد ان سيبويه يقسم الحروف الى متحركة وساكنة .

ثم نلاحظ ان كلمة الحركة عند سيبويه تدلّ على حركات الشفة، من الضم والفتح والكسر، او على حركات اللسان، من الرفع والنصب والجر او الخفض ، عند اخراج الصوت ، أَتَحْدُث هذه الحركة في صدر الكلمة أم في وسطها أم في آخرها ، فان الحركة في نظام سيبويه كلمة عامة ، لا تدلّ على آخر الاسم المعرب ، لانها تُسْتَعْمَل ايضا لتدلّ على آخر الاسم المبني غير المعرب ، ويمكن ان تكون كلمة معربة مجرّدة من الحركة ، كالفعل المضارع المجزوم مثلا .

فمن الناحية اللغوية ، يبدو لنا انه من المستحيل ان تكون هذه المصطلحات الأربعة منقولة من اليونانية الى العربية ، لان المفاهيم التي تدلّ عليها تتباعد في النظامين كل التباعد

* * *

يجب علينا الآن ان نتساءل: هل كان من الممكن، من الناحية التاريخية، ان يَعرف النحاةُ العرب القدامى النحوَ اليوناني والمنطق اليوناني فيتأثروا بهما ؟

اما النحو اليوناني فلم يستطع النحاة القدامى ان يعرفوه بطريقة مباشرة ، اذ انهم كانوا يجهلون اللغة اليونانية ، ولم يكن لديهم كتاب في النحو اليوناني مترجَم الى اللغة العربية ، فلم يستطيعوا اذن ان يعرفوا النحو اليوناني الا بواسطة النحو السرياني . فعلينا

ان نبحث عن الملاقــات الموجودة بين النحو السريانــي والنحو اليوناني من جهــة ، والنحو العربي من جهــة اخرى .

كان النظام النحــويّ السريانيّ مرتكزا على الاقاويــل الخمسة التي ميّزها مناطق ارسطو في الكلام ؛ وهي حسبما قال ايليــا بن شينايا : السؤال، والامــر، والدعاء، والتعجب، والنــداء .

فاخترَعَ النحــاة السريان نظام النُقــط ، يعني نظام العلامات التي تقابِلُ في الكتابــة الاشارات الدالّة على تلــك الاقاويل في المشافهة . ثــم يرتكز هذا النحو على القواعد الصوتيــة والصرفية التي اقتبسها السريان من كتــابٍ في النحو اليوناني كان قــد تُرجِم الى السريانية .

امــا النحاة السريان فنقتصر على ذكــر اشهرهم، وهــم ثلاثة :

في القــرن السابع : الاسقف يعقوب الرهاوي ، الــذي صنّف الكتــاب الاول في النحــو السرياني ،

في القــرن التاسع : المترجم المعروف حنين بــن اسحاق ، الذي ألّــف كتابا في النحو سمــاه « كتاب النُقط » ،

في القــرن الحادي عشر : ايليــا بن شينايا ، مطران نصيبين ، الذي صنّف كتابــا صغيرا في النحــو .

امــا تعليم النحو السرياني فكــان منتشرا في اديرة السريــان ومدارسهم ، كمدرسة ديــر قنى المشهورة ، بالقرب من المدائــن ، وكالمدارس العديدة التــي كانت موجودة في الحيرة عاصمــة العباد ، بالقرب من الكوفــة . غير اننا لا نجد اي دليل في المصــادر السريانية ، ولا في المصادر العربيــة ، على ان النحاة العرب القدامى قــد اتصلوا بالنحاة السريــان ، او تعلّموا اللغــة السريانية .

وفضلا عن ذلــك ، كان النحاة السريــان انفسهم يُعتبرون أن النحــو العربي يختلف عــن النحو اليوناني من جهــة ، وعن النحو السرياني من جهــة اخرى ، اختلافا تامــا . ومما يدل على ذلك أن

حنينا بـن اسحاق، ألَّف كتابا في النحـو العربي ، على المنهاج اليوناني ، سمّاه « كتاب احكـام الإعراب على مذهب اليونانيين ». وقد ذكـر الخوارزمي فصلا سفيرا منـه في كتاب مفاتيح العلـوم . وصنَّف حنين كتابا آخـر في النحو العربي ، زعـم فيه ، حسبما روى عنـه ايليا بـن شينايا : « ان العرب ليس لهـم نحو يُعرفون بـه المعاني الغامضة كمـا للسريانيين » ، ويستدل من قوله ان نحـو العرب غير كـاف ولا مقنع لمـا يحتاج اليه .

امـا ايليا بن شينايا فأفرد مجلسـا من المجالس التي جَرت بينه وبين الوزير الحسين بـن علي المغربي ، بمقارنةٍ نفيسـة بين النحو العربي والنحـو السرياني ، يوضح فيها الفـرق بين النظامين ، كما يدلّ على ذلـك الحوار التالي بـين الرجلين :

« قال الوزيـر : اترفعون الفاعل وتنصبون المفعـول كما تفعل العرب ؟ قلـت : لا .

قـال : فكيف تعرفون الفاعـل من المفعول ؟ قلـت : يُدخل السريان على المفعـول حرف اللام لِيُفَرِّق بينه وبين فاعله ؛ ولمـا كان العرب انما يرفعون الفاعـل وينصبون المفعول ، ليفرّقوا بينهما، وكـان للسريان علامة تَدُلُّهـم على الفرق بين الفاعل والمفعـول هي ابين من الرفع والنصب ، مـا احتاجوا أن يرفعوا الفاعـل وينصبوا المفعول كما تفعـل العرب » .

فيدلّ كلُّ ذلك على ان النحـو اليوناني لم يستطع ان يؤثـر على النحو العربي بواسطة النحـو السرياني ؛ وبعكس ذلـك ، في القرن الحـادي عشر ، نرى ايليـا مطران طيرهان يصنِّف كتابـا في النحو السرياني يُدخِل فيـه النظام العربي ؛ فالنحـو العربي هو الذي اثـر في النحـو السرياني .

امـا المنطق اليوناني فلم يستطع النحـاة القدامى ان يعرفوه في القرن الثانـي للهجرة، الثامن للميلاد ، اذ ان تآليـف ارسطو لم تنقل

بعد الى اللغة العربية ؛ فاننا نعلم ان الكتاب في العبارة والكتاب في المقولات لم يُترجَما الا في القرن الثالث للهجرة ، التاسع للميلاد ، على يد حنين بن اسحاق ؛ كما نعلم ان الكتاب في الشعر لم يُترجَم الا في القرن الرابع للهجرة ، العاشر للميلاد ، على يد مَتّى بن يونس .

واذا اطَّلَعْنا على هذه الترجمات لاحظنا ان المترجِمُ السرياني لم يَسْتَعْمِل مصطلحات النحو العربي ليترجمَ مصطلحات النحو اليوناني، ولكنه اخترع مصطلحات عربية جديدة .

فانه ترجم اللفظة stoikeion بأسطقس ، ولم يترجمها بحرف ، وترجم اللفظة syndesmos برباط ، ولم يترجمها بحرف ، وترجم اللفظة rhema بكلمة ، ولم يترجمها بفعل ، وترجم اللفظة klisis بميل ، ولم يترجمها بإعراب ، وترجم اللفظة phone بمصوِّت ، ولم يترجمها بحركة .

وفي القرن الرابع للهجرة ، العاشر للميلاد ، نرى الفلاسفة العرب يخترعون مصطلحات جديدة ، ليُفَسِّروا كتب المنطق اليوناني في اللغة العربية . فان الفيلسوف المنطقيّ الكبير ، ابا نصر الفارابي ، يقول في كتاب الالفاظ المستعملة في المنطق ، بصدد حروف المعاني :

« ان هذه الحروف هي اصناف كثيرة ، غير ان العادة لم تَجْرِ في اصحاب علم النحو العربي الى زماننا هذا ، بان يُفْرَد لكل صنف منها اسمٌ يَخُصُّه ؛ فينبغي ان نستعمل في تعديد اصنافها الاسامي التي تادت الينا عن اهل العلم بالنحو من اهل اللسان اليوناني ، فانهم افردوا كلّ صنف منها باسم خاص » . فاخترع الفارابي خمسة مصطلحات ليدلّ على هذه الاصناف من حروف المعاني ، وهي : الخوالف، والواصلات، والواسطات، والحواشي، والروابط .

وفي نفس الحقبة ، يروي لنا الفيلسوف ابو حيّان التوحيدي ، في كتاب الامتاع والمؤانسة ، مناظرة مشهورة جرت بين متّى بن يونس المنطقي وابي سعيد السيرافي النحوي ؛ فمما يبيّن ان

متّى كان يعتبر ان المنطق ليست له صلة بالنحو ؛ الحوار التالي بين العالمين :

« قال ابو سعيد : اسألك عن معاني حرف واحد، وهو دائر في كلام العرب، وهو الواو ، ما احكامه، وكيف مواقعه، وهل هو على وجه او وجوه ؟ فبهت متى وقال : هذا نحو، والنحو لم انظر فيه ، لانه لا حاجة بالمنطقي اليه ، وبالنحوي حاجة شديدة الى المنطق ، لان المنطق يبحث عن المعنى، والنحو يبحث عن اللفظ » .

فيدلّ كلّ ذلك على ان المنطقيين السريان والفلاسفة العرب كانوا يشعرون بأن النحو العربي لا يتعلق بالمنطق البتّة .

فمن الناحية التاريخية ، يظهر لنا انه من المستحيل ان يكون النحاة العرب القدامى قد عرفوا النحو اليوناني والمنطق اليوناني فتأثروا بهما في نظامهم .

* * *

ينبغي لنا اخيرا ، ان نتساءل ،هل كان من الضروري ، من الناحية المنهاجية ، ان يكون النحاة العرب القدامى قد اقتبسوا بضعة مصطلحات من النحو اليوناني ؟

فاذا اطلعنا على كتاب سيبويه ، لاحظنا ان لغته غنيّة جدًّا ، لانه يستعمل عددا وافرا من المفردات ليعرض نظامه النحوي . ولكنّنا لم نكن نعلم بالضبط مبلغ هذا العدد ؛ فعزمنا ان أحصي جميع المفردات التي استعملها سيبويه في لغته الشخصية دون لغة الشواهد القرآنية والشعرية ، فوجدت ان عددها يبلغ : الفا وثمانمئة وعشرين .

ما هي المعلومات التي نستطيع ان نستنتجها من هذا الاحصاء ؟

اذا ضربنا صفحا عن المفردات المستعملة في معناها العادي ، بدون معنى اصطلاحي ، وعددها مئتان وعشرون فقط ، استطعنا ان نُميِّز في الكتاب خمسة انواع من المفردات :

اولا : المفـــردات التي تتعلّق بالمفاهيـــم النحوية العامة ، يعني : بأقسام الكلام وانـــواع الالفاظ واحوالهـــا .

ثانيا : المفـــردات التي تختص بتركيب الجُمَـــل ، يعني بمواضع الالفاظ في الكـــلام ومجراها من ناحية العمـــل .

ثالثا : المفـــردات التي تتعلق بالتصريـــف ، يعني بتغيير الالفـــاظ في اللغـــة وصياغتها بالاشتقـــاق .

رابعا : المفـــردات التي تختص بالصوتيـــة ، يعني باخـــراج الاصوات ومجراهـــا في بنيـــة الالفاظ .

خامسا : المفـــردات التي تتعلق بالمنهـــاج ، يعني بالمفاهيم التي يستعملها سيبويـــه ليفسّر الوقائع النحويـــة والوسائل التي يستعملها ليوضحهـــا .

امـــا توزيع تلك المفردات العددي ، فـــانّ المفردات التي تتعلق بالمنهـــاج هي الأكثر ، وعددها ستمئـــة وخمسون ، ثـــم تتبعها المفردات التي تختص بالمفاهيـــم العامة ، وعددها ثلاثمئـــة وتسعون ، ثـــم المفردات المتعلقة بالتصريف والتـــي تساوي المفردات المتعلقـــة بالصوتية ، وعددها ثلاثمئـــة وعشرون ، واخيرا المفـــردات التي تختص بالتركيب ، وعددها مئتـــان وخمسون .

فمن البـــيّن انّ عددًا وافرًا من المصطلحات النحويـــة كانَ تحت تصرف النحاة العـــرب القدامى ؛ فمن المستحيـــل ان يكونوا قد احتاجوا الى اقتباس بضعةٍ مـــن المصطلحات الأجنبية ، يونانيةً كانت ام سريانية ؛ فما تعني تلـــك العَشَرة من المصطلحات التي يزعـــم المستشرقون أن النحاة العرب قـــد اقتبسوها من اللغـــة اليونانية ؟ ما تعنـــي تلك العَشَرة بالنسبة الى المئـــات والمئـــات من المصطلحات التي كانـــت متناوَلَةً في لغتهـــم ؟

اظـــنّ ان المستشرقين قـــد اخطأوا عندما اعتمدوا على بضعة مـــن مصطلحاتٍ يونانيـــة ليبرهنوا على مضارعـــة النظام العربي

النظام اليوناني . لأنّ كلّ واحد من المصطلحات جزء من نظام متّسق ، ليس له معنى ، خارجا عن هذا النظام .

* * *

لقد بيّنّا انه من المستحيل ان يكون النحو العربي القديم قد اقتبس مصطلحاتٍ من النحو اليوناني ، وذلك من جميع النواحي : من الناحية اللسانية ، ومن الناحية اللغوية ، ومن الناحية التاريخية ، ومن الناحية المنهاجية . غير انه تَبقّى علينا الاجابة على هذا السؤال : كيف نشأت هذه المصطلحات التي نرى سيبويه يستعملها في كتابه ؟

اذا فحصنا الكتابَ وجدنا ان سيبويه لم يُحدِّد المصطلحات التي يستعملها ؛ فهذا يدلّ على انه لم يَخْلِق مصطلحات جديدة ، وانه يستعمل تلك التي استعملها قَبْلَه النُحاة القُدامى الذين يذكرهم في الكتاب ؛ كما يدلّ ذلك على ان معاصريه كانوا يفهمون تلك المصطلحات بدون صعوبة وبدون تفسير ؛ لماذا ؟

لانه من المحتمل ان سيبويه استعمل المصطلحات المشتركة بين العلوم الاسلامية الأصليّة التي هي : القراءات، والحديث، والفقه، والنحو . وقد تكوّنت تلك المصطلحاتُ في وقت واحد في النصف الثاني من القرن الثاني للهجرة ، الثامن للميلاد ، في مِصْرَي العراق المسلِمَين ، البَصرة والكوفة ، فكان القُرّاء والمحدِّثون والفقهاء والنحاة يستعملون نفس المنهاج ونفس المفاهيم ونفس المصطلحات ، لانهم كانوا يقصدون الى نفس الهدف الذي هو سلامة لغة التنزيل الإلٰهي والحديث النبوي .

ويُمكِننا القول إن النحو ، منذ بدايته ، كان مرتبطا بالحديث والفقه ، اذ ان كتب اخبار النحويين تروي لنا عن نصر بن عاصم الليثي ، وهو اول من وضع العربية بعد ابي الاسود ، انه كان فقيها عالما بالعربية والحديث ، كما انها تروي لنا عن يحيى بن يعمر ،

وهو اول مَن نَقَّط المصاحف ، انه كان ايضا فقيها عالما بالعربية والحديث .

فكان العلماء ، في غالب الاحيان ، يتلقّون جميع العلوم الاسلامية قبل ان يتخصّصوا في واحد منها . فنعلم مثلا ان النحوي المشهور الخليل بن احمد ، وهو واحد من اساتذة سيبويه ، قبل ان ينصرف الى النحو ، تعلّم الحديث والفقه عن ايوب السختياني، الذي كان فقيها من فقهاء البصرة ومحدّثا من محدّثيها .

وكذلك ، نعلم ان سيبويه قَدِمَ البصرة ليكتب الحديث ، فلزم حلقة حماد بن سلمة ؛ ويروى عنه انه بينما كان يستملي على حماد قول النبي صلى الله عليه وسلم : « ليس من اصحابي الا من لو شئت لأخذت عليه ليس ابا الدرداء » فقال سيبويه : « ليس ابو الدرداء » وظَنَّه اسم ليس ، فقال حماد ، لحنتَ يا سيبويه ، ليس هذا حيث ذهبت ، وانما « ليس » ههنا استثناء ؛ فقال سيبويه : سأطلب علما لا تلحنني فيه ؛ فلزم الخليل فبرع .

وكذلك ، يُرْوَى عن حماد بن سلمة انه كان يقول : « من لحن في حديثي فقد كذب » ؛ فَتَدُلّنا هذه الرواية على العلاقات الوثيقة التي كانت تربط الحديث بالنحو .

وكان العلماء القدامى يُعتبرون ان النحو اول العلوم الاسلامية واسبقها ، فكانوا يفضّلونه على العلوم الاخرى ؛ وذلك لان النحوَ العلمُ الاساسي الذي يحتاج اليه جميع العلوم ، والذي لا يستغني عنه عالم .

فَيُرْوَى عن ايوب السختياني انه قال : « تَعلّموا النحو فانه جمال للوضيع وتَرْكُه هجنة للشريف » ، كما يُروَى ايضا عن حماد بن سلمة انه قال : « مَثَلُ الذي يطلب الحديث ولا يعرف النحو ، مَثَلُ الحمار عليه مِخلاةٌ لا شعير فيها » .

وفي الختام ، فانا اعتقد ان علم النحو اعربُ العلوم الاسلامية ، وابعدُها عن التأثير الأجنبي في طوره الأول ، كما حاولتُ ان أُبيِّن ذلك في ضوء كتاب سيبويه ، ذلك الكتاب المشهور الذي هو اقدم كتب العرب في النحو .

العشرنيات والعشرينيات

للدكتور ناصر الدين الأسد

- ١ -

تجري الالسنة والاقــلام من حين الى حين بتعبيرات والفــاظ لا تلبث ان تشيعَ مِــن خلال الصحف والاذاعات والتاليــف شيوعا يستوقف الحريصين على سلامة اللغــة ونقائها ، فاذا هــم يُطيلون البحث فيها والطواف حولها ليتحققوا مــن صحتها،ومن انها جارية مجرى كــلام العرب في الاستعمال،او فــي القياس،او فيهما معــا . وما اكثرَ ما صَدَرَ من كتب في القديــم وفي الحديث،بَناهــا مؤلفوها على تَتَبُّع هذه التعبيرات والألفاظ،وبيــان ما فيها من خطــا،والتنبيه على الصحيح الذي يجب استعمالــه مكانهــا .

وهــذا بابٌ من العلم ظاهِــرُه اليُسرُ والاغراء بالدخول منــه ، وباطِنُه محفوف بالمزالــق والمكاره ، اذ لا بُــدَّ للمتوغّل فيه من ان يكون محيطاً بكــلام العرب او باكثره ، بصيرًا باساليبهم ، عالِمًا بشعرهم ونثرهم على مــر العصور وتَعَدُّد البيئــات ، حافظًا ، ذاكرًا ، قادرًا على الأستشهاد وضرب المثــل والإدلاء بالحجّة . وايــن مَن يَدَّعي لنفسه كلَّ هــذا او بعضَه ؟

ومن اجــل ذلك كَثُرَت الكتب التي أَلَّفهــا اصحابها للردّ علــى مؤلفي الكتب السابقــة ، وبيان ما وقعوا فيه مــن تَسَرُّع الى التخطئة ، وتوضيحِ وجــه الصواب فيما ظَنّوه وهْمــًا او مخالفا لكلام العرب .

وكــلا الفريقين من العلماء لا يُنتَقَصُ مِن علــم احدهم انه اخطــا في اجتهاده ، ولا يَعيبُه انــه غاب عنه امــرٌ عرفه غيره ؛ ولهم جميعا الاجر والثــواب ان شاء اللــه .

وما فتئتُ اطلب هذا الضرب من الثواب ، وارجو أجر الاجتهاد ، ملقيًا بدلوي بين الدلاء في الفاظٍ شاعت ورأى غيري انها خطأ ، وكنتُ من الذين رأوا صوابها ، ونَشَرْتُ بعض ذلك في مجلّة مجمع اللغة العربية بالقاهرة (١) .

وأحِبُّ الآن ان استزيد من الخير ، فأواصل في مجلة مجمعنا الناشيء ما كنتُ بدأته في مجلّة مجمعنا العريق .

— ٢ —

وكان الذي قادني الى هذا الحديث مقالٌ نَشَرَتْه صحيفة يومية (٢) ، في مصرنا العربية ، الحبيبة لقلب كلّ عربي ، كَتَبَه عالِمٌ جليل ، عضوٌ في مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، معروف بالرويّة والتثبّت ، طالما أنِسْنا بحديثه وأفَدْنا منه . وتناولَ في مقاله كلمتين نقتصر هنا على الثانية منهما ، ونبدأ بنقل ما كَتَبَه عنها بحروفه ، قال :

« وثمّت كلمة ثانية يستعملها الناس في عصرنا على انها صواب ، وهي عريقة في الخطأ ، وهي كلمة : العشرينات والثلاثينات والاربعينات ، وما الى ذلك من سائر العقود . وَوَجْهُ الخطأ في هذا الاستعمال ان هذه الكلمات جموعٌ لعشرينة وثلاثينة واربعينة ، وليست هذه الكلمات في متن اللغة ، اذ كانت لا معنى لها .

والصواب في الاستعمال ان يقول القائل : هذا حَدَثَ في العشرينيّات والثلاثينيّات والأربعينيات ، بمعنى انه حدث في السنوات المنسوبة الى العشرين والثلاثين والاربعين وما اليها . فالكلمة يجب أن تكون مستعمَلَةً على طريق ياء النسبة ، وحَذْفُ الياء هذه خطأ ، عريق في باب الخطأ الذي يكاد يهبط الى منزلة الخطيئة ، لأن الفصحى من شعائر الاسلام ، ولان الحرص على العربية حرص على لغة القرآن .. » .

---

(١) الاجزاء ٢٥ و ٢٧ و ٢٩ و ٣٤ .

(٢) جريدة الاخبار ، ١٩٧٧/٩/٢١ ، ص ٥ ، بعنوان « الصواب المظلوم » .

— ٣ —

وَلِحِرْصِنا جميعـــا على العربية ، لغـــة القرآن ، نستأذنُ الاستاذ الجليل في ان نأخـــذ بأطراف الأحاديث بيننـــا ، ونستأنف مجالسَ كانت لنـــا ، عَرَفْناه فيها مُحِبًّا للحقيقة والحـــقّ ، حَفِيًّا عنهما ، لا يضيق صدره بِرَدٍّ او ســـؤال او تصحيح .

ولقد غاب عنّي فهـــمُ ما قصد اليه من قولـــه إنّ العشرينات«بغير يـــاء النسبة»« عريقة في الخطـــأ » وان « حذف الياء هذه خطـــأ عريق في باب الخطـــأ » ؛ فلم افهم معنى « العراقة » هنـــا ! إنَّ الذي يتبادر الى الذهـــن من ظاهر اللفظة انها تعني القِـــدَم في الاستعمال على هذه الصورة . فهل وَرَدَت « العشرينـــات » وأضرابُها في كـــلام العرب قديما ؟ هل جاءت في شعرٍ او نثـــرٍ من عصور الاُحتجاج اللغوي ؟ إنْ كانـــت في مثل هـــذه العراقة فأَولى ان نقول إنهـــا « عريقة في الصواب » ! وان لم تكن قـــد تَحَدَّرت الينا من تلـــك العصور ، ففي ايّ عصر بـــدأ استعمالها ؟ فان كانت هـــذه اللفظةُ لم تَجْـــرِ في الاستعمال الآ في المـــائة الاخيرة او قبلهـــا بقليل ، فليس لنا ان نقول عنها إنهـــا « عريقة » ، لا في خطـــأ ولا فـــي صواب .

وان كان المقصـــودُ من العراقة في الخطا انهـــا مخالِفَةٌ لطريقة العرب في بنـــاء الكلمة وفي جمعها ، وليس في استعمال هـــذا الجمع بعينه قديما ، فذلـــك يقودُنا الى مسالك اخرى مـــن الحديث .

فالعشرينات والثلاثينـــات والاربعينات ليست بالضرورة « جموعـــا لعشرينة وثلاثينة واربعينـــة » التي هي ليست « فـــي » متن اللغة ، اذ كانت لا معنـــى لها » .

والجمع الذي ينتهي بالألف والتاء ، والذي يُسَمُّونه جمع مؤنث سالما ؛ ليس دائما جمعـــا لمؤنث ، اذ كثيْرًا مـــا جُمِعت عليه الفاظٌ لمذَكَّر غير عاقل ، اذا لـــم يكن لهذه الالفاظ جمـــعُ تكسير ؛ فالفاظٌ مثلُ : حَمَّام ،

وخَزّان ، وسِجلّ ، وقرار ، ومُسَـــوِّغ ، تُجْمَع على : حَمّامات،وخَزّانات ، وسِجلات،وقرارات ومُسَـــوِّغات ؛ وكلّها في مفردها تـــدلّ على مذكّر غير عاقل . بـــل استعملوه ايضا فـــي القديم والحديث لجمع الجمـــع ، المذكر العاقل وغـــير العاقل ؛ ففي العربية ، رجـــالٌ ورجالات ، وجِمالٌ وجِمالات ، وبيـــوتٌ وبيوتات ، وبُيوعٌ وبيوعات ، واهـــرامٌ واهرامات . ومفردهـــا مذكّـــر .

ثـــم اذا كنّا قد حَكمنا بـــأن « العشرينة والثلاثينة ليست في متـــن اللغة » فاننا كذلك لا بُـــدَّ حاكمون بأن "العشرينيـــة والثلاثينية والاربعينية" ليست كذلك في متـــن اللغة على وجـــه اليقين ، ولم يُجْرِ بها لسانُ أحدٍ من العرب في القديـــم . ونحنُ نَعْلم ان مُجْمَعنـــا في القاهرة قد بُحُثَ هذه الالفـــاظ وجموعها،وذَهَبَ الى مـــا ذهبَ اليه الاستاذ الجليل ، وعـــدَّ « العشرينات » واضرابها خطـــأ ، و « العشرينيات » واضرابها هـــي الصـــــواب (١) .

ثـــم ان هذه « اليـــاء » المُقْحَمة التي قيل إنها للنسبة ، مشكلـــة في التصوّر والفهـــم معا : فما أظنّ احدًا مِمَّـــن يَستعمل هذه الجموع يَصدُر عن تَصوُّر النسبـــة الى مفرداتها ؛ وما اظنُّ احـــدًا ممن يسمعها او يقرأها يستقرُّ في فهمـــه معنى هذه النسبة ، وانمـــا يريد القائل ان يدلّ دلالة عامّـــةً على حقبة زمنية تمتدُّ عشر سنوات ، تبـــدأ بعدد في صورة الجمع،وليس فـــي حقيقته جمعا ، وتتسلسل بعـــده تسع سنوات تاليـــة،بوضع عَددٍ قبْلَه بينهُما واو العطـــف . هذه الدلالة العامة على حقبة زمنية ، معيّنة هـــي التي يَقصدها القائل حين يريـــد ان يتجنَّبَ تحديد سنة بعينهـــا ؛ وهي التي يَفْهَمُها الســـامع ، ولا يدور في خَلَـــد احـــد منهما ان ينسب شيئـــا الى شيء .

---

(١) في الجلسة التاسعة مـــن مؤتمر المجمع في الدورة التاسعـــة والثلاثين ، وفي الجلسة السادسة والعشرين مـــن المجلس في الدورة نفسها ؛ وانظر بحث الاستاذ محمـــد شوقي امين،وبحـــث الاستاذ الشيخ عطية الصوالحي في كتاب « الالفـــاظ والاساليب » اصدار مجمع اللغـــة العربية بالقاهرة ، ١٩٧٧ .

ماذا كان لا بُـدَّ من استعمال احد هٰذين الجمعين، فـانَّ تركَ الثاء اولى ، واستعمال العشرينـات والثلاثينات والاربعينات ، اقرب الى ذوق العربية وادخـل في اساليبها ، وهو مـا شاع استعمالـه واستساغـه العرف .

— ٤ —

ومع ذلك ، فقد اعْتَسَفْنا الطريق واصبحنا مُتَبَنّين ، حسين تَرْجَمْنا ترجمةً حرفيـة ما استعملته اللغات الاجنبية مـن جموع هذه الالفاظ ، ثـم دخلنا في تيـه من الجدل في تخطئة هذه الترجمات وتصويبها ، ولم نَرْجِعْ في كـلّ ذلك الى ما استعمله العرب منـذ اقدم عصورهم للدلالة على هذه الالفـاظ ، متوهّمين انها من المعانـي العصرية المستحدَثَة التي لم تَرِدْ في كـلام العرب ، على حين انهم عَرفوها وادارُوهـا كثيرا في كلامهم منذ الجاهلية ؛ وهي لفظـة العقد نفسـه — بغير جمع — مقرونة بالالف والـلام ، وقد تُجَرَّدُ منهما في الشعـر بخاصة ، اذا دلّت القرينة على المعنى . فقالـوا : العشرين ، والثلاثين ، والاربعين ، الـى آخـر العقود ، بدلا مـن العشرينات او العشرينيـات واضرابهما . وبِحَسْبِنا شواهـد معدودات نأنس اليها في هـذا الحكم وتطمئن اليها نفوسنـا :

قـال سُحَيْم بن وَثِيـل الرِّياحيّ (جاهلي اسـلامي) (١) :

ومـاذا يَدَّري الشعـراءُ منّـي وقـد جاوَزْتُ راسَ الأربعـين

اخـو خمسينَ ، مجتمعًا أشُدّي ونَجَّذنـي مـداورةُ الشـؤون

فللأربعينَ راسٌ هـو حَدُّها الأعلى ، ولهـا « ذَنَبٌ » هو حَدُّها الأدنى ، وهي تتدرَّج بينهمـا . فَسُحَيْم يَذكر انـه جاوز التاسعةَ والأربعين من عمـره ، وهي راسُ الأربعين وحَدُّهـا الاعلى ، ثم وَضَّحَ ذلك توضيحا ما بعده من مزيـد حين قال : « اخـو خمسين » .

---

(١) البيتان من القصيدة الاولى في الاصمعيات، تحقيق احمد محمد شاكر وعبد السلام هارون.

ويقول دِعْبِل الخُزاعيّ (عبّاسي) (١) :

أَيَرْجو بن مُلامِكِ يا ظَعينا كفاكِ اللومَ مَرُّ الأَربعينا

وهذا شبيه بقول سُحَيْم ؛ فالاربعون بكلّ سنواتها قد مَرَّت وانقضت، وصار شاعرنا « أخا خمسين » .

واشهَرُ بيت في هذا المضمار قول عوف بن مُحَلَّم الخزاعيّ (عبّاسي) (٢) :

إنّ الثمانين — وبُلِّغْتَها — قد احْوَجَتْ سمعي الى تَرْجُمانْ

ومَن عَرَف طريقة العرب في البيان ادركَ ان الشاعر هنا لا يريد ثمانين سنة على وجه التحديد والتخصيص ، لا يتجاوزها ، ولكنّه اراد العقد بمجموع سنواته ، فهو في « الثمانين » بين ادنى سنواتها و « راسها » .

وقد ذكرنا ان هذه العقود قد تُجَرَّد من الألف واللام في الشعر بخاصة اذا دلّت القرينةُ على ذلك . ومِنْ اطرف ما نَسْتَشهد به على ذلك ، واعذَبِه ، وأنفَسِه ، قول اللُّلـيّ (٣) :

ولقد قالتْ لأَتْرابٍ لها كالُمَها يَلْعَبْنَ في حُجْرَتها

« خُذْنَ عنّي الظِلَّ ، لا يُفْزِعُني » ومَضَتْ تسعى الى قُبّتِها

بِنْتُ عَشْرٍ لم تُعانِقْ رَجُلًا صُوِّرَ البَدْرُ على صورتِها

ولقد تَبّأْسَتْ فاها قُبلَةً كِدْتُ أَلْقى اللهَ من لَذَّتِها

ولا أُحِبُّ لنفسي ولا لِغيري ان نَعْتَسِف الطريق ونَقْتَحِم الكلام بغير دليل ، ولكنّ الجوَّ يوحي بأن الشاعر لم يقصد الى تحديد سنّ

---

(١) ديوانه : ١٤٨ ، تحقيق الدكتور محمد يوسف نجم ، دار الثقافة ، بيروت ١٩٦٢ م .

(٢) ترجمته في فوات الوفيات ، رقم : ٣٤٠ ، والبيت من شواهد النحو في اعراب الجمل .

(٣) من ابيات اطّلعتُ عليها في مخطوطة كتاب نوادر الهجري ، في مكتبة استاذنا محمود محمد شاكر .

العاشرة ، وإنْ كان ذلك قد جاز، ولا يزال جائزاعلى نُدرة نادرة ، وانما اراد هذه السنَّ التي تزدهر بين العاشرة والتاسعة عشرة ، والتي يُطلقون على من كان فيها من الفتيات والفتيان بالانجليزية « تِينْايجرز » ، ونحار في اختيار كلمة عربية مقابلة لها .

— ٥ —

وبعد ،

فمن اراد طريقةَ العرب وما ساروا عليه في كلامهم ، فأمامه هذا الشعر المُبين ، وليَقُل : « حَدَثَ ذلك في العشرين او الثلاثين او الأربعين من هذه المئة ، او من هذا القرن » ، ولا يخافَنَّ اللَّبْس ؛ فنحن لا نقول : حَدَثَ ذلك في العشرين من هذا القرن ، ونقصدُ سنة ١٩٢٠ ، وانما نُحَدِّدُها ونقول ، حدث ذلك في سنة عشرين ، وليس في العشرين .

ومن ارادَ المخالفة عن استعمالهم الذي أَلِفُوه ، وارادَ أن يُحْدِث كلامًا جديدا، فلا بأس عليه أن يجمع لفظ العقد فيقول : العشرينات والثلاثينات . وقد وَرَد في كلام العرب تثنية العقد :

« قال الأخفش ، اخبرني المبرّد قال : انشدني سليمان بن عبد الله بن طاهر لنفسه : « وقد مَضَتْ لي عشرونان ثنتان » . . فقلت له : ايُّها الامير ، هذا لَحْنٌ لان إِعرابًا لا يَدْخُل على إعراب » (١) .

وإنكارُ المُبَرِّد لا ينصرف الى تثنية العقد،وانما انصرف الى وجود إِعرابَين : فالواوُ والنون للرفع في جمع المذكر السالم،والالف والنون للرفع في المثنّى . ولو قال : لي عشرينان ثنتان ، ما انكر المبرّد شيئا .

واذا جازت التثنية على هذا الوجه جاز الجمع .

أما ما سِوى ذلك ، كإضافة ياء النسبة قَبْلَ الجمع ، فشيءٌ تنبو عنه الاسماع ، وتمجُّه الأذواق ، وليس ما يدعو اليه ، مهما يُزَيِّنه لنا المزيّنون بتخريجاتهم .

---

(١) المرزباني ، الموشح ٣٥٧ ، المطبعة السلفية بمصر سنة ١٣٤٣ هـ .

تعريب رموز نظام الوحدات الدّولية

الدكتور ابراهيم بدران

١ ــ خلفيّة عامة

يُقصد بنظام الوحدات الدولي International Units System ،

بشكل عام ومبسّط ، ذلك النظام الذي يتناول تعريف وحدات القياس الطبيعية ، وتحديدها على اساس ثابت من العلاقات المادّية والرياضية التي تحكمها قوانين الطبيعة . وقبلَ تطوير هذا النظام كانت الدُوَلُ المختلفة (ولا يزال بعض منها حتى الآن) تستعمل نظام وحدات خاصًّا بها ، تُعطيها تعريفاتها ومفاهيمها المحلّيّة التي تطوّرت عن النظام الاقتصادي العلمي السائد فيها . ومن الأمثلة الشائعة على ذلك : ــ

القَدَم Foot ــ وحدةُ قياس الطول في بريطانيا وامريكا .

المتر metre ــ وحدةُ قياس الطول في فرنسا وغيرها .

الذراع ــ وحدة قياس الطول في البلاد العربية (وحدةٌ قديمة وغيرُ علميّة) .

وبتطوّر النظام الاقتصاديّ العالميّ،وزيادةِ حجوم الاتصالات والتبادلات التجارية والعلمية والتكنولوجية ، نشأت الحاجةُ الى وضع نظامِ وَحداتٍ دوليّ يُمْكِنُ تعميمُه واستعمالُه دونَ الحاجة الى معادلةِ الوحدات المستعمَلة من بلد الى آخر ، وما يَتبَع ذلك من صعوبات تكنولوجية معقّدة،وتكاليف اقتصادية باهظة .

ومن الناحية الأستعماليّة في مجالات التعليم والأبحاث والدراسات والتدوين والمراسلات ، نشأت الحاجة الى وضع رموزٍ موحّدة ومتّفقٍ عليها للوحدات المستعملة ، يُشْتَرط فيها ان تُحَقِّق الاختصار

والسهولة ، من جهـة ، وعدمُ الالتباسُ ، من جهة اخرى . وقد وضعت منظمةُ القياسيّات الدّوليّة

International Standards Organization (ISO)

نظاما لتعريف الوحدات في النظام المتريّ ، كما وَضَعَت نظام رموزٍ خاص لتلك الوحدات .

وفي هذا الصدد واجهَتْ الدوائرُ العلمية والتعليمية والصناعية والتجارية في البلاد العربية مشكلتين : ـ

الاولى : تعريب هذه الوحدات .

والثانية : وضع نظامِ رموزٍ لها .

وقد بُذِلَتْ محاولاتٌ عديدة في مجال التعريب ، وأسفرت عن نتائجَ مُرْضِيَة نسبيًّا ، وإنْ كانت تُعْوِزُها في احيانٍ كثيرة الدقّةُ والتّبسيط وسهولةُ التداول اللفظيّ او الكتابيّ .

وفي مجالِ الرموز ، وهو ما يُهِمُّنا في هذا البحث ، بدأَتْ المحاولات المتفرّقة منذ العشرينات من هذا القرن ، وكان الطابَعُ العامّ لتلك المحاولات انها فرديّة ، او شبهُ فرديّة ، من جهة ، وانها لم تنظر الى نظام الوحدات بكلّيته ، بل كانت تَسْتَهْدِف الكلماتِ الأكثرَ شيوعا ، ولا سيما في مجالات التعليم المدرسيّ ، لتعطيَها الرموز « الملائمة » ؛ وبذلك انتشر بعضُ الرموز وشاع . وهي رموزٌ مقبولة ، او على الأصحّ مُقْنِعَة ، اذا ما أُخِذَتْ بمفردها وعلى النطاق المدرسي الضّيّق ، ولكنها غيرُ ملائمة للاستعمالات الموسَّعة ، ولا سيّما في مجالات التعليم الجامعيّ وما في مستواه . ومن الامثلة على ذلك : ـ

وحدة القياس (متر) رمزها (م) .

وحدة القياس (كيلو متر) رمزها (كم) .

وحدة القياس (ثانية) رمزها (ث) .

وابتداءً من الخمسينات ، ومع توسُّع التعليم الجامعي وانتشاره في الاقطار العربية ، اصبحت الحاجة اكثر الحاحا ، كما هو معروف ،

الى تعريب التعليم ، وتعريب العلوم ، وبالتالي الى تعريب الرموز الخاصة بالوحدات .

لقد بُذِلَتْ محاولاتٌ شتّى في هذا المجال على النطاق الفرديّ، وعلى نطاق المؤسسات (مثل بعض الجامعات والمجامع اللغوية ، وعلى الأخصّ في مصر) إلاّ انّ طبيعة العمل الفردي ، من جهة ، وطبيعة تركيب تلك المجامع اللغوية ، من جهة اخرى ، وتَدفُّق الكُتب والوثائق العلمية والتعليمية ، وسرعة تطوّر العلوم ، وعدم توافر القدرة على المتابعة والتطوّر في المفهوم العلمي واللغوي ، من جهة ثالثة ، أدّت بكثير من تلك المحاولات الى نهايات مسدودة ، باستثناءِ الرموز الخاصّة بالمواد الكيميائية،وقد أُهْمِلَت في العديد من البلدان العربية بسبب عجزها عن النموّ المتقدم ، واخذ العديد من المدارس والمؤسسات يستعمل الرموز اللاتينية بدلاً من العربية .

ومنذ عدّة سنوات حاوَلَت المنظمة العربيّة للمواصفات والمقاييس معالجةَ الموضوع ، ولكنّها — رُبَّما لنفس الأسباب السابقة — وَجَدَت نفسها غير قادرة على تعريب الرموز كنظامٍ متكامل مَرِن . واصدرت المنظمة في اوائل السبعينات ترجمةً عربية للمواصفات القياسية الدولية ، أَعْقَبَتْها في تشرين الاول ١٩٧٤ بترجمةٍ منقَّحةٍ باسم « المواصفات القياسية العربيّة رقم (١) وحدات النظام الدولي ، والتوصيات الخاصة باستخدام مضاعفاتها ، وبعض الوحدات الأخرى المعيَّنة » .

وصدرت الترجمة المنقَّحة في طبعتين : —

إحداهما تَحْمِل رموزا عربيّة للمصطلحات العربية .

والثانية تحمل رموزا لاتينيّة للمصطلحات العربية .

أما الرموز العربيّة،فالملاحَظ انَّ استخدامها بشكل غير منهجي ادى ببعض الرموز الى ان تكون بعيدة عن روح اللغة العربية ، او ان تكون عمليةُ الترميز فيها « عملية شكلية » ، بمعنى ان يُنْقُص

الرمـــزُ عن الكلمة الكاملة حرفـــا او حرفين ، او ان تترك بعض الاصطلاحات دون إحـــداث رموزٍ لها على الاطلاق ، بسبب التعقد الناشىء عن تركيب الوحدات بعضها ببعض ، وكما هو في المثال التالي : ـ

وحدةُ الكتلة تقاس بالكيلوجرام (الكيلوغرام) ورمزها (كجم) او (كغم) .

وحدةُ التيار الكهربائي تقاس (بالأُمبير) ورمزها (مسمبـ) .

وحدةُ كمية المـــادة تقاس (بالمول) ورمزها (مول) .

وحدةُ شـدة الاضاءة تقاس (بالقنديل) ورمزها (قنـد) .

وحدةُ القُدْرة تقاس (بالواط) ورمزها (واط) .

وحدةُ الطاقة تقاس (بالجول) ورمزها (جـل) .

وحدةُ كثافـــة التدفق المغنطيسي تقـــاس (بالتســـلا) ورمزها (تســـلا) .

وحدة الحثّ تقاس (بالهنري) ورمزها (هنـــري) .

وحدة الفيض الضوئي تقاس (باللومن) ورمزها (لُمـن) .

امـــا عن استخدام المضاعفات ، فـــان نظام الترميز الذي اقترحَتْه المنظمة العربية لـــم يَصْلُح للعمل ابـــدا ؛ وهذه امثلة منه : ـــ

كمية الطاقـــة (كيلو جول) ورمزها (كيلو جل) .

كمية الطاقـــة (ميغا جول) ورمزها (ميغا جل) .

الكثافة الحجميـــة للشحنة ورمزها (ميكرو كمب/م٣) .

وهكذا نُلاحِظ انـــه في الوقت الذي رُمِّـــز الى الكيلو في وحدة الكيلو غرام بالرمـــز « ك » ، فانه لم يستطع ان يستعمـــل نفس الرمز في وحدة كميـــة الطاقة ، وتحوّلَ الرمز الـــى الكلمة الكاملة . واما رَمْز الكثافة الحجمية للشحنة فواضح انـــه « نصف رمز » ، اذا صحّ التعبير .

امّـا عند استخدام الرموز اللاتينيـة للمصطلحات العربية ، فـان نظام الترميز القائم علـى منهجية معيّنة ، مرتبطة باستخـدام الحرف اللاتيني ، استطـاع أن « يُثْبُت » ، وان يبدو غـير متناقض مع نفسه . الا انـه، بطبيعة الحال ، غير مقبول لعدم صلته باللغـة العربية ، كما هو موضّح في المثـال التالي : ـ

وَحدة الطول تقاس بالمتـر	ورمزها (m)
وَحدة الزمن تقاس بالثانيـة	ورمزها (s)
وَحدَة الزاويـة المستوية تقاس بالزاويـة الدائـرة	ورمزها (rad)
وَحدة القـوة تقاس (نيوتن)	ورمزها (N)
شدة المجـال الكهربائي تقـاس (بالفولط / متـر)	ورمزها (kv / m)

ومنـذ عدّة اشهر شُرعت المنظمـة العربية للمواصفات والمقاييس بمراجعـة الترجمة المذكورة ، لتحديثهـا وتنقيحها علـى الأُسس السابقـة عينهـا .

٢ ـ تقييـم العمـل

رغـمَ الجهود التي تبذلها المنظمـة العربية للمواصفات والمقاييس في هذا المجال ، ورغم اهمية الموضوع ، فان اختيار الرموز العربية بشكل غير منهجي ودون رؤيـة واضحة للموضوع باكملـه ، وكذلك دون محاولة لتطوير مفهـوم الحرف ووظيفته شكلا ومضمونـا ، ادّى ، ويؤدّي الى طريـق مسدود . وكذلك كـان اختيار الرموز اللاتينية للكلمات العربيـة ، وهي هنا الوحدات المعرَّبـة ، يبدو في نظرنا غير صحيح وغير علمـي ، لاسباب كثيرة ، اهمهـا : ـ

ا ـ صعوبة استعمال الرمـز اللاتيني في سياق الكتابـة العربية ، سواء في الكتابـة امفي الطباعـة .

ب ــ ارتباط استعمال هــذه الرموز بالمستوي التعليمي ، مــن حيث ضرورة معرفة الأحــرف اللاتينية نُطْقًا وكتابةً؛ وهــذا يتعذَّر في كثير من الاحيان علــى تلاميــذ المدارس الابتدائية ، في حــين انَّ تثبيت الرمــوز كجزءٍ أساسيّ من التفكــير العلمي ، يتطلب استعمال هذه الرمــوز في المراحل الاولى للدراســة ، وبشكل تدريجــي ومتنــامٍ .

جـ ــ ان اختلاف اللغــة العربية جُذْريًّا عن اللغــات الاوروبية ، سواء بأصولها اللاتينية أم السلافيــة أم الاغريقية ، يجعل من عمليــة الترميز بأحرفٍ غــير عربية عمليةً على قــدر من الافتعال ، وعدم التناسق مع التوجــه الذهني الذي تفرضه اللغــة .

د ــ ان الرموز العلميــة يجب ان لا يُنْظَر اليها كمــادة للتداول فقط في اوساط أو شرائح علميّــة معيّنة ، بل إنَّ طبيعة العصر والتقــدّم التكنولوجي، وتَشَــارُك المستويات التعليمية المختلفــة بالعمليات الانتاجية على مختلــف أنواعها ، يجعل مــن الضروري أن تكون الوحدات المستعملــة برموزها واشكالها مفهومــة ومقروءة ، ليس لدى الجامعيين فقط ، بــل لدى الفنّيين المتوسّطين وشبــه المَهَرة كذلك ، اضافةً الــى الانسان العادي . وهــذا لا يتأتّى حين تكون الرمــوز المستعملة غريبة عن اللغــة المحلّية .

هـ ــ ان التطوّر العلمــي المرتّقب خلال السنين القادمــة يُنبيء عن تزايد المعرفة العلميــة والتكنولوجية ، وبالتالــي تَزايُد الحاجة الــى الرموز ، سواء في الوحدات أم في المــواد الكيميائية ، او الرياضية او الطبيعية او غيرها . ومثل هــذا التزايُد لا يمكن أن يواجَــه الا من خلال نظــام للتعريب يَسْتَنِد كُلّيًّا الى الجذور الأُساسية للّغــة .

٣ ــ المفهــوم النظري للترميــز

يقوم الترميز اساســا على اختيار رموز ، علــى صورة اشكال معيَّنة مُتَّفَق عليهــا ، او حروف لغوية (وهــي بطبيعتها اشكال مُتَّفَــق

عليهـا) تختصر الحجم والزمن اللازمين للدلالة على الرموز لـه ، وفي نفس الوقت تكون قابلـة للاستعمال في مواقع متنوعـة ، تبتدىء بالكتابة المُسْهَبـة ، وتنتهي بالمعادلات الرياضيّة. وكذلـك ينبغي ان تكون مرنـةً مرونةَ الارقام الرياضية عينهـا ، لانها تُعبّر في كثير من الاحيان عن القيم الفيزيائية للكمّيـات الرياضية . وما لـم يتوافرْ في الرمز مثلُ هذه الخصائص ، فسيظل الرمـزُ عاجزا عن تحقيق الغرض الذي انشىء مـن اجلـه .

ومن هـذا المنطلق كان اختيارُ الرمـز اللاتيني (او الياباني اذا شئت) يُعْتَبر اختيـارًا غير صحيح بالنسبة الى اللغـة العربية .

على انَّ مرونـة الحروف ذاتها وقابليَّتها للتشكيـل تلعبان دورا كبيرا في امكانيـة ملاءمة هذه الحروف لاغراض الترميـز .

٤ ـ الاساسيات التي يقـوم عليها نظام الترميز بالعربيـة

لقـد كانت صعوبةُ التصرُّف بالحرف العربـي واحدةً من الاسباب الرئيسية التي دفعـت العاملين في المنظمة العربية للمواصفات والمقاييس ، وغيرَهم من المشتغلين بالتعريـب ، الى التراجُع عـن استعمال الرموز العربية بعد أن استنفدوا الرصيـد المعروف من الحروف ، وهـو لا يتجاوز في الاحوال العاديّة الملائمـة للاستعمال عشريـن الى خمسة وعشرين حرفـا ، لا تكاد تغطّي جزءا من نظـام الوحدات الكامل .

ومن ناحية ثانيـة ، اذا نظرنا الى الرموز الدوليـة ، او الرموز المستعملة في بعض الـدول ، ولا سيما في اوروبا وامريكا ، نجـد أن الامكانيـة العددية للأبجديـة اللاتينية تصل الى اضعـاف الامكانية العددية للأبجديـة العربية ؛ عِلْمًا بأن عـدد الاحرف الابجدية في معظم هذه اللغات يكـاد يكون متقاربا .

يعود هـذا الفرق بين الامكانيات اساسـا الى توافُر شكلَـين للحرف في اللغات اللاتينية ، وهما الحرف الكبير والحرف الصغير (M, m ،

على سبيل المثـــال) . ومع انه يتوافر اكثر من شكل واحـــد للحرف العربي (ونعني بذلـــك الاشكال الاولى والوسطى والاخيرة) فـــان طبيعة تكوين الاشكـــال الوسطى والاخيرة ، او الاولـــى ، بالنسبة الى بعض الحروف ، تَمْنَـــع في كثير من الاحيان مـــن استعمال هذه الاشكال بصورة مستقلّة ، كمـــا في الحروف الاوروبية . ان استعمال حرف النون ، على سبيل المثـــال ، هو اكثر ملاءمة حين تكون النـــون مستقلة ، اي على شكل (ن) في حـــين ان شكلها في الابتداء او الوســـط كثيرا ما يكون غير متميّز ، او يدعـــو للالتباس او الاختـــلاط . فعلى سبيل المثال ، اذا اخذنا حـــرف (النون) في العربيـــة مرة اخرى ، وحـــرف (N)

بالانكليزية ، وَجَدْنا لدينـــا الاشكال التالية : ـــ

ن نـ ـنـ

n N

يضـاف الى ذلـــك استعمال الاصول اللاتينيـــة او الاغريقية للحروف الاوروبية الحاليّة ، وهـــي كَشَكْلٍ او رمز تتميَّز عن الشكـــل الحالي للحـــرف الاوروبي ، وبالتالـــي تزيد من امكانية نظـــام الترميز .

مثـــال : 𝒜 , a , A , 𝓡 , r , R , b , B , ℬ

وهكذا كـــان تعريب الرموز الحالي يتضمَّـــن الأُساسيات التالية : ـــ

ا ـــ تسمية الحروف العربيـــة بشكلها المستقلّ حروفـــا كبيرة (مثال : ا ، ب ، ج ، د .. الـــخ) .

ب ـــ تسمية الحروف العربيـــة بشكلها عند الابتداء بحروف صغـــيرة (مثال : بـ ، سـ ، صـ ، فـ ، يـ .. الـــخ).

وفي محاولة لاعطاء شكـــل الحرف عند الابتداء نوعـــا من الاستقلال ، اقترحنـــا اضافة حركة صغيرة الـــى آخره نسميها هنـــا « حركة الاستقلال » ، ليصبح علـــى النحو التالي : ـــ

(مثال : بـ ، سـ ، فـ ، الخ) . (انظر اللوحة رقم ١) .

جـ ـــ تحقيقا لزيـــادة سعة نظام الترميز ، ولا سيمـــا عند استعمال المعادلات المتضمنة للكثير مـــن الرموز والمتغيرات ، مـــن الممكن

« اضافة حركة » الــــى الحروف الكبيرة ، مشتقــة من انماط الكتابة العربيــة ، وفي الوقت عينه تعطيها طابعــاً متميّزاً يماثل اشكال الاحرف المائلــة في اللغات الاوروبية (مثال : س، ص، ط، ع، ق، ف، ك ...

انظر اللوحة رقــم (٢) .

ونسمي هــذه الحركة هنا « حركــة التميُّز » .

وبهذا يمكن تحقيق سَعَــةٍ كبيرة للأبجدية العربية في مجــال الرموز ، تكفي عندمــا تُسْتَخدَم استخداما منهجيّــا صحيحا لتغطية الاحتياجات المطلوبة ، عــن طريق الاستعمال المفــرد والمركّب والمتضاعــف .

د ـــ استعمال الحَرْف الصغير للدلالة علــى الوحدات العامة ، وغــير المأخوذة عــن اسماء اعلام مثل : ـــ

الشحنة الكهربائية ، ورمزها (شـ) .

الازاحة ، ورمزها (شـ / مـ٢) .

الزمن مقاس بالثانية ، ورمزه (ث) ... الــخ .

هـ ـــ استعمال الحروف الكبيرة او الحــرف الاعتيادي متّصلاً مع حــرف كبير ، للدلالــة على الوحدات المشتقّة مــن اسماء اعلام ، مثل : ـــ

وَحدة الطاقة « جول » ، ورمزها (ج) .

وَحدة الجهد الكهربائي « فولت » ، ورمزها (ف) .

وَحدة التيار الكهربائي « امبير » ، ورمزه (ا) .

وَحدة كمية الكهرباء « الكولمب » ، ورمزه (كب) .

وَحدة المنافذة « هنري » ، ورمزها (هن) .

وحدة المسامحة « سينمس » ، ورمزها (سيم) ... الخ .

و ـــ الوصول الى الوحدات المركّبــة من خلال استعمال اشــارات

الضَرب والقسمة الاعتياديــة ، كما هو في المعادلات الرياضية .
مثــال ذلــك : ــ

كثافة التيّار الخطي « امبير لكــل متر » ، ورمزها : (أ /م) .
العزم الكهرو مغناطيسي « امبير مضروبا بالمتر المربــع » ، ورمــزه : (أ / م٢) .

المانعة وهي مقلوب الهنري ، ورمزها : (هن⁻¹) ... الخ .

٥ ــ انواع الوحدات المعرَّبــة

١ ــ الوحــدات الأساسيّــة :

وتشمــل الوحدات الفيزيائية ، التــي تُعْتَبر الوحداتُ الاخرى جميعها مشتقة منها ؛ وهي ثمــانٍ اساسيّة واثنتان مكملتان لهــا ؛ وهذه تشمل وحداتٍ مشتقّةً مــن اسماء أعلام ، ووحداتٍ ليســت كذلك ؛ وتُبيِّن اللوحة رقم (٣) الرموز المعرَّبة للوحــدات الاساسية . ويلاحَظ ان الرمزين الدارجَين للمتــر والكيلو غرام هما علــى التوالي (م) و (كغم). ورغم أن هــذه الرموز مقبولة باعتبارها قائمــة بذاتها ، الا انــه يجب تغيير الحروف الكبيرة فيهــا الى حروف صغيرة ، لكي تتبــع النظام المقترح وتصبح (م و كغم) .

٢ ــ الوحــدات المشتقّــة : ــ

وهــذه الوحدات يُعَبَّر عنها جَبْريــًّا بدلالة الوحدات الاساسية ، أو الوحدات المكملــة . ويمكن التعبير عــن رموزها بالعلامات الرياضيــة المعتادة . على سبيل المثال :
تقاس وحدة النظام الدولي للسرعة بالمتــر لكل ثانية .
ووحدة النظام الدولي للسرعة الزاوية بالزاويــة المستوية لكــلّ ثانيــة .

ورموزها في نظام الترميز المقترح هي م / ثر ، مسر / ثر .
بينما كانت الرمـــوز التي اقترحتْها المنظّمة العربيـــة للمواصفات والمقاييس هـــي :
m/s rad/s على التوالي .

كذلك نجـــد في الوحدات المشتقّة اسمـــاءً خاصّة لهذه الوحدات ، تتطلّب ايجـــاد رموز لها لكي يمكـــن اختصار كمية الرموز عنـــد استعمال الوحـــدات الاساسية للدلالة على الوحـــدات المشتقة .

والوحدات المشتقّة تتضمـــن العلوم الاساسية ، وهي : الكهرباء ــ الضوء ــ الصوت ... الـــخ ، كما هو فـــي اللوحة رقـــم (٤) .

تبيّن اللوحة رقـــم (٥) الوحدات الكهربائيـــة الاساسية والمشتقة في الكهربـــاء . وقد ذُكِر تعريف الوحـــدة واسمها ورمزها العربـــي المقترح . ويلاحَظ ان نظـــام الترميز الجديد سهل الاستعمال ، وغـــير مسبِّب للالتباس . وقـــد وُضعنا الرمـــز بالحروف اللاتينية للمقارنة .

٣ ــ **الوحـــدات المركّبـــة : ــ**

وهـــي الوحدات التي تتألف مـــن تركيبات متنوّعة من الوحدات الاساسية والمشتقّـــة ، عن طريق ضرب هـــذه الوحدات أو قسمتهـــا . مثال ذلك : ــ

وحدة العزم ، وهي نيوتن مضروبا بالمتر ، ورمزها (ن . مر)
اللزوجة الديناميكية ، وتساوي بسكال مضروبا بالزمن ، ورمـــزه (بس . ثر) .

وبالرجوع الـــى اللوحات (٦ ــ ٧ ــ ٨ ــ ٩ ــ ١٠ ــ ١١) نجـــد الرموز العربيـــة المقترحة لمختلف انـــواع الوحدات في العلـــوم الاساسية الطبيعيـــة .

(ملاحظــة : إنّ تعريب الوحدات ليس من عمـل الكاتب . ولديـه بعض التحفّظات على بعض هـذا التعريب) .

٤ ـ المضاعفـات : ـ

تُستَخدَم في النظـام الدولي مجموعة من البادئات لهـا أسماؤها ورموزهـا ، وتَتَكوّن من مضاعفات واجزاء عشرية . والنظام الدّوْلـيّ يَفترض ان يكون رمـزُ البادئة مُتَّحِدًا مع رمـز الوحدة المتّصل بها مباشرة ، لتكوين رمـز وحدة جديدة يُمْكِن رَفعُها الـى أُسٍّ موجب او سـالب،يمكن ان يُتَّحد مع رموز وحـدات اخرى . مثال ذلك : ـ

البادئة سنتي ، ورمزها باللاتينية (c) والعربية (سـ) .

الميكرو ، ورمزها باللاتينيـة (u) والعربية (ميـ) .

النانو ، ورمزها باللاتينيـة (n) والعربية (نـ) .

وتُبيِّن اللوحة رقـم (١٢) اسماء البادئات ورموزهـا اللاتينية والعربيـة ، وقيمها الرياضيـة ؛ ومثالا علـى استعمالها بنظـام الترميز المقترح .

٦ ـ استنتاجـات

إنّ احرف اللغـة العربية ، من حيث الأُسـاس ، صالحةٌ لاستخدامها في وضع نظام رمـوز متكامل للوحدات الدولية . وهـي ، اذا أُدخِل عليها بعضُ الاضافات أو التعديـلات البسيطة ، يُمّكِن ان تُعطِي الحـرف العربي مرونة كافيـة في التطبيقات العملية ، سـواء المكتوبة منها ، ام المقروءة،ام المتداولة لفظـا . إنّ ادخال « حركة الاستقلال » و « حركة التّمَيُّز » على صورتَي الحـرف العربي الصغير والكبير علـى التوالي ، يُمَكِّن من استعمال هـذه الاحرف في المجالات العلميـة المختلفة دون ان تكون هناك فرصـة للالتباس أو الغموض . ان حركتـي الاستقلال

والتمييز مشتقتان من أنماط الخطوط العربيه ؛ فهي ليست غريبة أو مفتعلة . ويمكن اتقانها كتابة وطباعة بسهولة واضحة .

إنّ نظام الترميز المقترح يفي، في راينا، بمتطلبات الرموز حسب النظام الدولي .

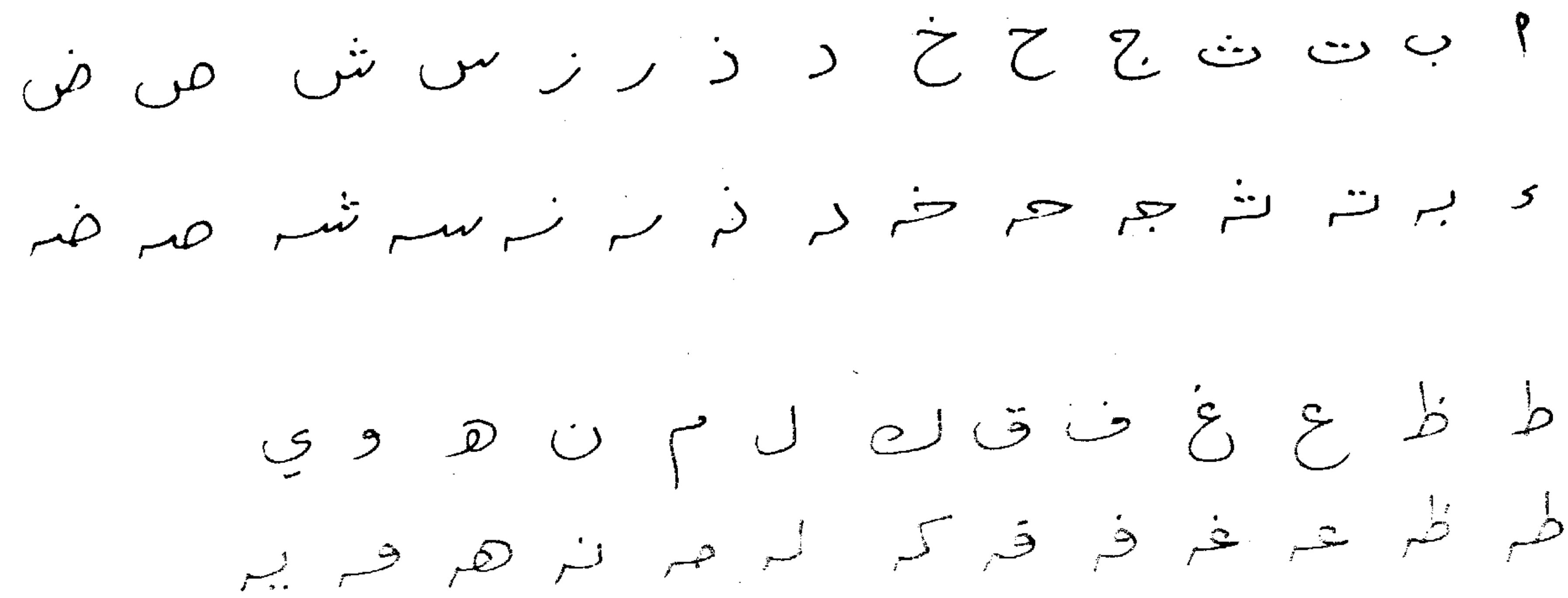
٧ ــ مراجع :

١ ــ المنظمة العربية للمواصفات والمقاييس ، المواصفات العربية / القاهرة .

2. International Organization for Standards
SI Units,
Geneva, Switzerland

لوحة رقم (١)

الحروف الاعتيادية والحروف "المستقلة" المقترحة بإضافة حركة الاستقلال

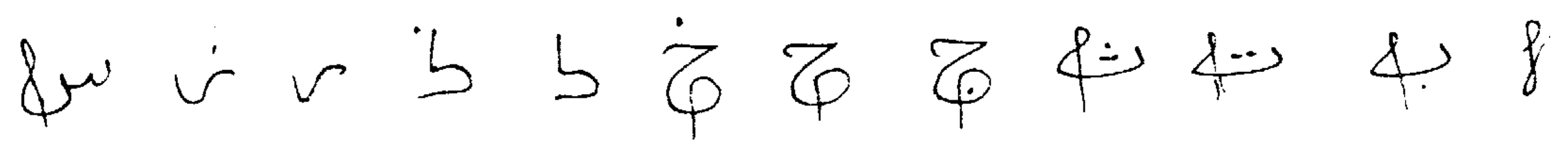


لاحظ أن الحركة الاضافية التي أُدخلت على الحرف الصغير « حركة الاستقلال » : مضافاً هنا على الحرف الطبيعي .

لوحة رقم (٢)

الأحرف الاعتيادية، والأحرف الأخرى المتميزة بإضافة حركة التمييز

ا ب ت ث ج ح خ د ذ ر ز س



ش ص ض ط ظ ع غ ف ق ك ل م ن هـ



و ي

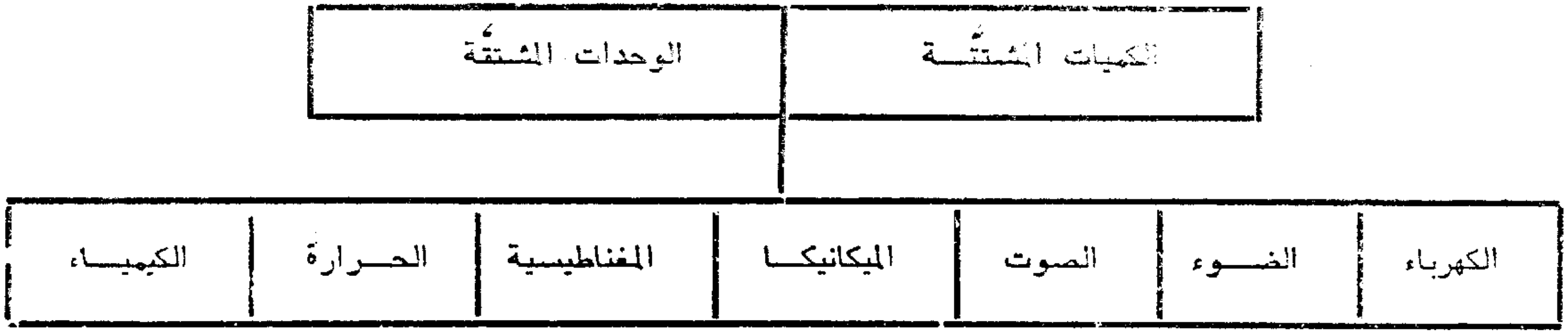


الكَمّيّات الأساسيّة
الوحدات الاساسّية

الطـول	الكتلـة	الزمـن	التيار الكهربائي	درجة الحرارة المطلقة	كمية المـادة	شدّة الاستضاءة
المتر m	الكيلو غرام Kg	ثانية s	امبير A	كلفـن K	مـول mol	تندبلـه cd
م	كغ	ثا	أ	ك	مل	ند

الوحدات المكملة للنظام الدّوْلي	
زاوية مستوية	زاوية مجسّمة
زاوية نصف قطر دائرية rad	زاوية فراغية Sr
مسر	جسم

اللوحة رقم (٣)
الوحدات الأساسية والمكملة لنظام الوحدات الدولي



اللوحة رقم (٤)

العلوم الطبيعية التي دخلت وحداتها في هذا البحث

كهـــــــربـــــاء

القدرة	كمية الكهرباء	جهد كهربائي، فرق جهد قوة دافعة	سعة كهربائية	مقاومة كهربائية	مواصلة كهربائية	تردد	الطاقة	الكترون فولت	كثافة الشحنة الحجمية	كثافة الشحنة السطحية	شدة المجال الكهربائي
واط	كولمب	فولت	فاراد	اوم	سيمنس	هيرتز	جول		كولمب/متر³	كولمب/متر²	فولت / متر
و	كب	ف	فد	ص	سيم	هز	ج	ا.ف	كب/م³	كب/م²	ف/م

الشحنة الكهربائية	الازاحة	عزم كهرومغناطيسي	نفاذية	سماحة	منافذة	ممانعة	موصلية	الحث الذاتي والمتبادل	كثافة التيار	التدفق الكهربائي	كثافة التيار الخطي
C	C/m^2	$A.m^2$	H/M	S	H	H^{-1}	S/m	H		C	A/m
سم	سم/م²	أ.م²	هن/م	سيم	هن	هن⁻¹	سيم/م	هن	أ/م²	شم	أ/م

الاستقطاب الكهربائي	عزم كهربائي ثنائي القطب
C/m^2	C.m
شم/م²	شم.م

اللوحة رقم (٥)

رموز الوحدات الاساسية والمشتقة في الكهرباء

الصـــــوت

التردد هيرتز	التردد الدوراني s^{-1}/min^{-1}	فترة (صورة) زمن (دوري) s	طول الموجه m	كثافة الكتلة kg/m^3	ضغط الصوت pa	سرعة الصوت m/s	سرعة الجسم M^3/s	مستوى قدرة الصوت ديسبل db
هز	ث-١ ، د-١	ث	م	كغ/م٣	بس	م/ث	م٣/ث	دب

مستوى ضغط الصوت db	دليل خفض الصوت db	مساحة امتصاص مكافئة m^2	زمن الارتداد s
دب	دب	م٢	ث

اللوحة رقم (٦)

رموز الوحدات الاساسية والمشتقة في الصـــــوت

الضــــــوء

شدة الاضاءة	شدة استضاءة	فيض ضوئي	الـــتردد	طول الموجه	طاقة مشعـــة	قدرة مشعـــة	شدة الاشعـــاع
قنديلة او شمعة	لكس	لومن	هيرتز	متر ، انجتروم		تدفق مشـــع	
cd	lx	lm	H2	LA°, pn, nm, m	J	W	W/sr
قد	لك	لم	هز	م ، أ ، م	ج	و	و/جم

اشعاعيـــة	الوجود الاشعاعي	الاشعاعيـــــة كثافة الاشعـــاع	كمية الضـوء	لضــــوع	وجود ضوئي	معرض ضوئـــي	فعالية ضوئيـــة
$w/sr.m^2$	w/m^2	w/m^2	lm.s	cd/m^2	lm/m^2	lx/s	lm/W
و/ جم م٢	و/م٢	و/م٢	لم.ث	قد/م٢	لم/م٢	لك.ث	لم/و

اللوحة رقــــم (٧)

رموز الوحدات الاساسية والمشتقة في الضــــوء

الكهرومغناطيسية والمغناطيسية

الكمية	الرمز	الرمز العربي
تدفق فيض مغناطيسي	wb ويبر	وب
كثافة التدفق المغناطيسي	T تسلا	تس
حث مغناطيسي	H هنري	هن
التيار الكهربائي	A امبير	أ
شدة المجال المغناطيسي	A/m	أ/م
فرق الجهد المغناطيسي	A	أ
كثافة التدفق المغناطيسي	T تسلا	تس

الكمية	الرمز	الرمز العربي
جهد المتجه المغناطيسي	wb/m	وب/م
كثافة التيار الخطي	A/m	أ/م
المنفذية	F/m	فد/م
نفاذية	H/m	هن/م
عزم كهرومغناطيسي	$A.m^2$	أ.م٢
مغنطة	A/m	أ/م
استقطاب مغناطيسي	T	تس
عزم مغناطيسي ثنائي القطب	$N.m^2/A$, wb/m	ن م٢/أ ، وب/م

الكمية	الرمز	الرمز العربي
الحث الذاتي المتبادل	H هنري	هن
عزم كهرومغناطيسي عزم مغناطيسي	$A.m^2$	أ.م٢
مغنطة	A/m	أ/م
ممانعة	H^{-1}	هن-١
منافذة	H	هن
سماحة	S	سم
قدرة فعالة	W	و

اللوحة رقم (٨)

رموز الوحدات الاساسية والمشتقة في المغناطيسية والكهرومغناطيسية

الميكانيكا

قوة	ضغط ، اجهاد طاقة ، شغل باسكال	قدرة	الكتلة	الكثافة الخطية	الكثافة	كمية التحرك	عزم كمية التحرك الزاوي
نيوتون		واط	كيلوغرام	كيلوغرام / متر	kg/m^2	kg.m/s	$kg.m^2/s$
ن	بس	و	كغ	كغ/م	كغ/م٣	كغ.م/ث	كغ.م٢/ث

عزم القصور الذاتي	عزم القوة	ضغط المائع	الاجهاد	اللزوجة الديناميكية	اللزوجة الحركية	التوتر (الشد) السطحي	الطاقة ، الشغل
$kg.m^2$	N.m	1 bar	$pa,n/m^2$	pa.s	m^2/s	N/m	J
كغ.م٢	ن.م	بر	بس ، ن/م٢	بس . ثا	م٢/ثا	ن/م	ج

اللوحة رقم (٦)

رموز الوحدات الاساسية والمشتقة في الميكانيكا

الحـــــرارة

درجة الحرارة الثرموديناميكية	درجة الحرارة	فترة درجة الحرارة	معامل التمدد الطولي	كمية الحرارة	معدل سريان الحرارة	الموصلية الحرارية
كلفن K	سلسيوس C	k ويمكن استخدام C	K^{-1}	J	W	W/m.k
ك	س	ك ، س	$ك^{-1}$	ج	و	و/م.ك

معامل انتقال الحرارة	السعة الحرارية	السعة الحرارية النوعية	انتروبيا	انتروبيا الفرعية	طاقة نوعية	حرارة كامنة نوعية
$W/m^2.k$	J/K	J/kg.k	J/k	J/kg.k	J/kg	J/kg
و/م٢.ك	ج/ك	ج/كغ.ك	ج/ك	ج/كغ.ك	ج/كغ	ج/كغ

اللوحة رقم (١٠)

رموز الوحدات الاساسية والمشتقة في الحـــرارة

الكيميـــــاء

كمية المادة	كتلة الجزئي الغرامي	حجم الجزئي الغرامي	طاقة الجزئي الغرامي	السعة الحرارية للجزئي الغرامي	انتروبيا الجزئي الغرامي	تركيز
Mol	kg/mol	m^3/mol	J/mol	J/mol.k	J/mol.k	mol/m^3
مل	كغ/مل	م٣/مل	ج/مل	ج/مل.ك	ج/مل.ك	مل/م٣

تركيز الجزئي الغرامي	معامل الانتشار	معامل انتشار حراري
mol/kg	m^2/s	m^2/s
مل/كغ	م٢/ث	م٢/ث

اللوحة رقـم (١١)

رموز الوحدات الاساسية والمشتقة في الكيميـــاء

البادئات في النظام العالمي

اسم البادئة	رمزها اللاتيني	رمزها العربي المقترح	العامل الذي نضرب به	
تيرا	T	ت	$\times 10^{12}$	مثال: اذا كان رمز المتر (م)
غيغا	G	غ	$\times 10^{9}$	فان رمز الكيلو متر يصبح كم
ميغا	M	م	$\times 10^{6}$	والميغا متر يصبح مم
كيلو	K	ك	$\times 10^{3}$	والميكرو متر يصبح ميم
هيكتو	H	هـ	$\times 10^{2}$	والنانومتر يصبح نم
ديكا	Da	دك	$\times 10^{1}$	والتيرا متر يصبح ت م
ديسي	D	د	$\times 10^{-1}$	والغيغا متر يصبح غ م
سنتي	C	س	$\times 10^{-2}$	والميلي متر يصبح مم
ميلي	m	م	$\times 10^{-3}$	والبيكو متر يصبح بم
ميكرو	μ	ميم	$\times 10^{-6}$	
نانو	n	ن	$\times 10^{-9}$	
بيكو	p	ب	$\times 10^{-12}$	

اللوحة رقم (١٢)

أسماء البادئات ورموزها اللاتينية والعربية المقترحة

احداث بلاد طرابلس الشام

١٠١٥ هـ / ١٠١٦ هـ
١٦٠٦ م / ١٦٠٧ م

للدكتور عدنان البخيت

بُعَيدَ نهاية القرن السادس عشر الميلادي بدات السلطنة العثمانية تعاني من اسباب الضعف والانحطاط (١) ؛ ومن مظاهر هذا الضعف كثرة حركات العصيان التي اصبحت تلفّ مختلف الولايات العثمانية حيث كان من ابرزها الحركة الجلالية التي اكتسحت بلاد الاناضول، مستغلّةً المظالم الاجتماعية التي كانت قد لحقت بريف تلك الهضبة (٢). ولم تكن هذه الحركة لِتَمُرَّ دون ان تترك لها اثرا على المناطق الشامية، خاصّةً المحاذية لها كحلب وبلاد طرابلس الشام (٣) . ولعلّه من المفيد

---

(١) حول اسباب ضعف الدولة العثمانية في اواخر القرن السادس عشر انظر :

Lewis, Bernard, The Emergence of Modern Turkey, 2nd edition, Oxford University Press, 1968, pp. 21 - 39, Inalcik, Halil, The Ottoman Empire: The Classical Age 1300 - 1600, Weidenfeld and Nicolson, London, 1973, pp. 41 - 52.

(٢) حول الحركة الجلالية انظر دراسة :

Mustafa Akdag, Turk Halkinin Dirlik Ve Duzenlik Kavgasi, Bilgi Yayinlari, Ankara, 1975.

وكذلك رسالة

Griswold, W. J., Political Unrest and Rebellion in Anatolia 1605 - 1609 Ph. D. Thesis, University of California, Los Angeles, 1966.

(٣) حول هذا الموضوع : انظر مزيدا من التفصيلات في الترجمة التي اوردها حسن ابن محمد البوريني (ت ١٠٢٤ هـ / ١٦١٥ م) لعبد الحليم اليازجي « الواعظ الخارجي » (ت ١٠١٠ هـ / ١٦٠١ م) ، تراجم الاعيان من ابناء الزمان ، م ٢ ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، مطبوعات مجمع اللغة العربية ، دمشق ، ١٩٥٩ ، ١٩٦٣ ، م ٢ ، ص ٢٥٦ — ٢٧٠ ، كذلك انظر : المحبي ، محمد امين (ت ١١١١هـ / ١٦٩٩ م) ، خلاصة الاثر في اعيان القرن الحادي عشر ، ٤ م ، تصوير دار صادر بيروت ، لا . ت ، م ٢ ، ص ٣٢٢ — ٣٢٤ .

هنا أن نتذكّر أن السُلطنة العثمانية،انسجاما مع سياستها التقليدية (٤) ، لم تُلغِ الزعامات المحلّية المتعاونة معها في بلاد الشام بعد ضمّ هذه البلاد الى الدولة العثمانية في عهد السلطان سليم الاول،بعد معركة مرج دابق (٢٥ رجب ٩٢٢ هـ / ٢٤ آب ١٥١٦ م) ، اذ أن معظم هذه الزعامات حافظت على وجودها مُستكينةً إبّان قوّة الدولة ضمن الاطار العثماني . الا أنها بدأت تتحرّك في الربع الأخير من القرن السادس عشر لتُوَسّع من دائرة نفوذها على حساب السلطة العثمانية المحلّية ، ولكن ليس بقصد الاستقلال عن السلطنة العثمانية . ولقد استفادت من انشغال الدولة العثمانية في حروبها الطويلة المستديمة على الجبهتين الصفوية والنمساوية،بالاضافة الى الخسائر التي تكبّدها العثمانيون في اخضاع حركات التمرّد والعصيان في اليمن وفي غيرهما (٥) من بلدان سلطنتهم . كما أنه كان قد تَرتّب على انتصار تحالف البابوية واسبانيا والبندقية في معركة ليبانتو Lepanto البحرية،في السابع من تشرين الاول سنة ١٥٧١ م،أن قوّة الدولة العثمانية البحرية،من حيث العَدد والعُدّة والنوعية والحالة النفسية، قد أصبحت دون مستوى الاساطيل الاوروبية (٦) ، وان الدول الاوروبية ، خاصة الكاثوليكية منها ، قد عاودتها من جديد الفكرة

---

(٤) انظر مقالة :

Inalcik, H., "Ottoman Methods of Conquest", Studia Islamica, Vol. II (1954), pp. 102 - 29.

(٥) انظر :

Bakhit, M. A., The Ottoman Province of Damascus in the 16th Century, Ph. D. Thesis, SOAS, London, 1972, pp. 186 - 221.

(٦) حول معركة ليبانتو انظر :

Creasy, Edward S.,

Hisory of the Ottoman Turks, Reprint, Khayats, Beirut, 1961, pp. 219-22.

Inalick, H. The Ottoman Empire, pp. 41 - 42.

كذلك انظر التحليل العسكري لهذه المعركة من الناحية الحربية في دراسة :

Guilmartin JR., John Francis, Gunpowder and Galleys; Changing Technology and Mediterranean Warfare at Sea in the Sixteenth Century, Cambridge University Press, 1974, pp. 221 - 252.

الصليبية المستهدِفَـــة استخلاص فلسطين من ايــدي المسلمين ، ولكنّ هذه المـــرة ليس بارسـال حملات من أوروبا،بــل بالاعتماد على بعض القوى المحلّية مـــن الاقليات العِرْقيّة والمذهبيّة لتنفيذ هـــذا المخطط (٧) . وكان من ابرز هـــذه القوى الأُسرة المعنية الدرزيـــة،والأُسرة الجانبولاطية الكرديـــة في كلس واعزاز . ولقـــد وُسّعت الاسرة الأخيرة من دائرة نفوذها،بحيث أُنيطت ولايـــة حلب في مطلع القرن السابع عشر بزعيمها آنذاك،حسين باشـــا جانبلاط،الذي نتيجةً لتلكّئـــه في الانضمام الى حملة الوزيـــر سنان باشا جغال زاده ضـــد الشاه عباس الاول (٩٩٦ هـ / ١٥٨٨ م ـــ ١٠٣٨ هـ / ١٦٢٩ م) امـــر الوزيرُ المذكور بقتله في بلدة وان التركية سنـــة ١٠١٤ هـ / ١٦٠٥ م (٨) .

---

(٧) حول هـــذه الخطة انظر :

Salibi, K. "The Sayfas and the Eyalet of Tripoli" Arabica, Vol. xx, (1973), p. 33.

انظر ايضا لنفس المؤلـــف ، « فخر الدين المعني الثاني والفكـرة اللبنانية » ، ابعاد القومية اللبنانية ، منشورات جامعـــة الكسليك ، بيروت ، ١٩٧١ ، ص ٨٥ ـــ ١١١ .

لمزيـــد من التفصيلات حول هـــذه الخطة انظر ايضا ما نشره الأب بولس قرالي :

١ ـــ "فخـــر الدين الثاني وعلاقتـــه بفردناند الاول وقزمـــا الثاني امير تسكانيا » ١٦٠٥ ـــ ١٦٢١ ، حريصـــا ١٩٣٨ .

٢ ـــ وكتابه الثاني « فخـــــر الدين المعني امـــير لبنان وفردناند الثاني امـــير تسكانيا" ١٦٢١ ـــ ١٦٣٥ ، حريصا ١٩٣٨ .

(٨) حسين بـــــن جانبلاط ، كردي الاصل؛كـــان في ابتداء امره من الطائفة العسكرية المعروفة باســـم المتفرقة،ثم خَلَف والده في امـــارة كلس،وتدرّج في المناصب الى أن اوكلت اليه حلـــب،ولكنه تلكأ في مساندة الوزيـــر سنان باشا في حملتـــه العاصلة على بلاد فارس ، وكـــان من نتيجة ذلك أن سنان باشا امـــر بقتله في بلدة وان التركية في سنـــــة ١٠١٤ هـ / ١٦٠٥ م . البوريني ، المصدر ذاتـــه ، م ٢ ، ص ٢٧١ . انظر المحبـــي ، خلاصة ، م ٢ ، ص ٨٤ ـــ ٨٧ .

امـــا سنان يوسف باشا المعروف باســـم جغال زادة ، فلقد تربى في القصر السلطاني ، وتولّى عـــدة مناصب،منها ولاية ديـــار بكر في سنة ٩٩١ هـ / ١٥٨٣ م،كما تولى بعـــد ذلك بلاد وان وارضروم وبغـــداد . وفي سنة ١٠٠٦ هـ / ١٥٩٧ م تولّى بـــلاد الشام لبضعة اشهر . في سنـــة ١٠١٤ هـ / ١٦٠٥ م ، اوكلت اليـــه مهمة قيادة الجيوش العثمانية ضد بـــلاد فارس ، وكانت وفاتـــه في نفس العام في ديار بكـــر ؛ انظر ترجمة حياته في محمـــد ثريا ، سجل عثماني ياخود تذكـــرة مشاهير عثمانية ، اسطنبـــول سنـــة ١٣١١ ، م ٣ ، ص ١١١ . كذلك انظر محمـــد بن جمعة المقار الدمشقي (ت ح ١١٥٦ هـ / ١٧٤٣ م) ، الباشات والقضاة ، نشره صلاح الدين المنجـــد مع نصّين آخرين باسم "ولاة دمشق في العهـــد العثماني" ، دمشق ، ١٩٤٩ م ، ص ٢٦ .

ولمـــا وصل خبر مقتله الى حلب ثـــار ابن اخيه علـــي جانبلاط، « ورفع علـــم العصيان،وجمَّعَ الطائفة الذين يقال لهـــم السكبانية حتى صار عنده منهم مـــا يزيد على عشرة آلاف،ومنع مـــال السلطنة (٩) » .في اثناء ذلك كانـــت قوات الدولة العثمانية مشغولة في حـــرب ضروس مع امبراطورية النمســـا،كما ان قوات الجلالية الخارجة عـــن طاعة السلطان كانت تصول وتجول فـــي بلاد الاناضول ؛ وكان قـــد سُبق ذلك ان القوات العثمانية قـــد عادت خاسرة من حربها ضد الشـــاه عباس . في مثل تلك الظروف عرض الزعيـــم التركماني الاصل السنّي المذهـــب يوسف باشا سيفـــا (ت ١٠٣٤ هـ / ١٦٢٥ م) صاحب عُكّـــار ، والذي كان يُولّى من حين لآخر بـــلاد طرابلس ، خدماته على السلطان،عَلـــى « ان يكون اميرا على عساكر بـــلاد الشام،على ان تكون جمعيّته بحماة،ويلتـــزم بازالة علـــي بك المذكور عن حلب » . فلما جـــاءه الإذن السلطاني بذلك،أرسل يوسف باشا الـــى العساكر العثمانية في دمشـــق وفي غيرها من القلاع لملاقاتـــه عند حماة . وعند التقاء الجانبين تَمكّن علـــي بك ابن جانبلاط بسهولة تلفت النظـــر من الحاق الهزيمة بالعساكـــر العثمانية بقيادة يوســـف باشا سيفا،الذي تَوَجَّه الى طرابلس الشـــام ليهرب منها بأمواله الى جزيرة قبرس،ومنها الى حيفـــا،ملتجئا الى الامير احمـــد الحارثي . ومن هناك عـــاد الى دمشق ليهرب منها الى طرابلس،مقـــرّ سلطنته .

ولحسن الحظ يتوافر لدينـــا نَصّان لشاهِدَي عيان لتلـــك الاحداث . صاحب النص الاول،ويعرف باســـم مصطفى بن جمال الدين ابـــن كرامة،

---

(٩) البوريني المصدر ذاتـــه ، م ٢ ، ص ٢٧١ ، لاحظ تعريف البوريني للسكبانية حيث يقول : « والسكبانية عبارة عـــن طائفة كان وضعهم ان الواحد منهـــم يحمل البندقية على ظهره ويقـــود الكلب في ساجوره،ويمشي امـــام الامير او الكبير حين يسير الى الصيد . وهو لفـــظ فارسي ماخوذ من ســـك ، فاما سك فهو الكلـــب بلغتهم،واما بان فهو بمعنى الحامي،اي حامي الكلـــب » م ٢ ، ص ٢٥٩ ؛ وكانوا يشكّلـــون وحدة بارزة في فرقـــة الانكشارية.انظـــر :

Huart, CL. "Segban" E. I. , Vol. IV, pp. 203 - 4.

Gibb and Bowen, Islamic Society and the West, Oxford University Press, Reprint, 1963, vol. I, part I, pp. 59 - 61, p. 315.

من اهالي طرابلس الشـــام؛كتب تعليقة حول مـــا اصـاب مدينته نتيجة لحركة علـــي بن جانبلاط ؛ والنَصّ الثاني للمـــؤرخ الدمشقي الشيخ حسن بن محمـــد البوريني (ت ١٠٢٤ هـ / ١٦١٥ م) الذي يصف لنـــا دقائق تلك الاحـــداث ومجرياتها كما كان يراها من دمشـــق . والنصّ ان يكملان ويُعَضُدان بعضهمـــا البعض،ومن هنا جاءت ضرورة نشرهما معـــا، حيث انهما مـــا زالا مخطوطين .

والذي يُهمّنا هنـــا ان التعليقة التي بين ايدينا تُصَوِّر لنـــا مشاعر احد ابناء طرابلس،قاعدة السُنَّـــة،ضمن اطار من الاقليّات الاســـلامية والمسيحية ، كما انهـــا تبين مدى الولاء القوي مـــــن جانب الرعية للسلطان،حيث انَّ مَـــن عصاه « قد اطاع الشيطان » . وتُصَوِّر لنـــا كذلك نظرة اهالـــي طرابلس ليوسف باشـــا سيفا ؛ وهي نظرة احترام، لأنّ معظم المصـــادر المتداوَلة بين ايدينا والمعروفة لدينـــا ، **كتاريخ الازمنة** للبطريرك اسطفان الدويهـــي (ت ١٦٩٩ م) **وتاريخ الامير حيدر احمـــد الشهابي** (ت ١٨٣٥ م) **واخبـــار الاعيان في جبل لبنان** ، لطنّوس الشدياق (ت ١٨٦١ م) ، قـــد اعتمدت المؤرخ السنّي ، الشيخ احمـــد بن محمد الخالدي الصفـــدي (ت ١٠٣٤ هـ / ١٦٢٤ م) الذي كـــان معبّرًا عن وجهة نظر فخـــر الدين المعني الدرزي المتعاون مـــع العناصر المسيحية، خاصّة المارونيـــة منها ؛ بينما يوسف باشا سيفـــا ، كان سنّيًا يتمتع بثقة ودعم الدولة العثمانية لـــه ، رُبّما الى درجة ان السكـــان كانوا ينظرون اليه على انـــه رجل الدولة ووكيلها (١٠) . كما ان هـــذه التعليقة تُبيّن

---

(١٠) حول مكانة اسطفان الدويهي وطنوس الشدياق في مدرســـة التاريخ اللبناني الماروني انظـــر :

Salibi, Kamal, Maronite Historians of Medieval Lebanon, Beirut, 1959, Ibid., "The traditional Historiography of the Maronites", Historians of the Middle East, edited by Bernard Lewis and P.M. Holt, Oxford University Press, 1967, pp. 212 - 225.

انظر في نفس الكتاب مقالـــة

A. H. Hourani, "Historians of Lebanon" pp. 226 - 245.

حول اهميـــة دور اسرة آل سيفا في التاريخ المحلـــي ومن علاقاتها مع القُوى المجاورة

لنا ان قسما من اهالي طرابلس الشام كانوا قد هُجروا مدينتهم وركبوا البحر،لعلمهم ان القوى المهاجمة هي قوى عاصية خارجة على طاعة السلطان ، خاصة وان قسما منها كان درزيا بقيادة فخر الدين المعني . ومما زاد في حراجة موقفهم،ان ذلك جاء في الوقت الذي كانت فيه الدولة مشغولة في اجتثاث الجلاليّة،ومشتبكة في حرب مع النمسا ، بالاضافة الى هزيمة العثمانيين امام الشاه عباس الاول،وما ترك ذلك من خيبة ومرارة . فلم يعد لدى سُكّان طرابلس من حيلة الا الهروب الى اقرب الجزر .

يُعرّف صاحب هذه التعليقة نفسه بايجاز كبير حيث يصف نفسه بقوله : « . . . العبد الفقير مصطفى بن جمال الدين المدعو بابن كرامة ». وعند العودة الى مخطوط **لطف السمر وقطف الثمر من تراجم الطبقة الاولى من القرن الحادي عشر** (١١) ، لنجم الدين محمد الغزي (ت ١٠٦١ هـ / ١٦٥٠ م) والقسم غير المنشور من **تراجم الاعيان من ابناء الزمان** (١٢) ، للحسن بن محمد البوريني ، (ت ١٠٢٤ هـ / ١٦١٥ م) ، **وخلاصة الاثر في اعيان القرن الحادي عشر**،لمحمد امين الدين المحبي (ت ١١١١ هـ / ١٦٩٩ م) ، **وشذرات الذهب في اخبار من ذهب**،لعبد الحي بن العماد الحنبلي (ت ١٠٨٩ هـ / ١٦٧٨ م) فاننا لا نعثر على ذكر لهذا الشخص . زيادة على ذلك فان خير الدين الزركلي وعمر رضا كحالة لا يذكرانه في معجميهما . واما الرحالة رمضان بن موسى ابن احمد المعروف بالعطيفي الدمشقي الحنفي (ت ١٠٩٥ هـ / ١٦٨٤ م) الذي زار طرابلس الشام سنة ١٠٤٣ هـ / ١٦٣٤ م فانه لا يذكر اسم

= الاخرى انظر مقالتي الدكتور كمال الصليبي :

Kamal S. Salibi, "Northern Lebanon Under the Dominance of Gazir", Arabica, Vol. XIV, (1967), pp. 144 - 166.

"The Sayfas and the Eyalet of Tripoli 1579 - 1640", Arabica, Vol. XX, (1973), pp. 25 - 52.

(١١) مخطوط المكتبة الظاهرية رقم ٤١ ، الاوراق ١٦٨ — ٢١٧ .

(١٢) المكتبة الوطنية،فيينّا Cod. Arab. 1190 Mixt 346

هذا الشخص من ضمن العلماء الذين قابلهم اثناء اقامته في طرابلس (١٢). الا ان الشيخ والقطب الصوفي عبد الغني النابلسي (ت ١١٤٣ هـ / ١٧٣١ م) يذكر في **التحفة النابلسية في الرحلة الطرابلسية**، التي دوّن فيها اخبار رحلته في سنة ١١١٢ هـ / ١٧٠٠ م الى طرابلس ، أنّ من بين من لقيه « ... الشيخ الفاضل والبارع الكامل الشيخ علي بن كرامة »، ويذكر في مكان آخر ان عليّ بن كرامة قد زاره : « فزارنا في هذا اليوم ايضا عدّة من الأفاضل المكرّمين والعلماء المدرّسين، منهم الشيخ الفاضل حاوي الفضائل الشيخ علي بن كرامة » . ويضيف ان عليًّا هذا قد زاره مرة ثالثة (١٤) . وعند العودة الى كتاب **تراجم علماء طرابلس وأدبائها**، لعبد الله حبيب نوفل (ت ١٩٤٧ م) ، لا نجد ذكرا لمصطفى بن جمال الدين بن كرامة هذا، بل لافراد آخرين كعمر بن مصطفى ابي اللطف (ت ١١٦٠ هـ / ١٧٤٧ م) ومصطفى بن عبد الحميد كرامة (١٥) . واذا ما رجعنا الى التعليقة نفسها فاننا نلمس، من ثناياها ومن لغتها ، أن مصطفى هذا كان على مستوى جيّد من حيث تمكّنه من اللغة العربية ، وان له ولدا اسمه عمر ، وقع معه في الاسر ؛ وما عدا ذلك فان المعلومات التي يوردها عن نفسه تكاد تكون شبه معدومة .

---

(١٣) انظر نص الرحلة مع الدراسة التي قدّم لها بها ناشر الرحلة

Stefan Wild "Al-Utaifis Journey to Lebanon in 1043/1634"

مجلّة الأبحاث ، بيروت ، مجلد (٢٣) سنة ١٩٧٠ ، ص ١١٢ — ١٢٢ .

لسوء الحظ عند إعداد هذه الدراسة لم اتمكن من الاطلاع على نسخة رحلة يحيى المحاسني (ت ١٠٥٣ هـ / ١٦٤٣ م) ، "المنازل المحاسنية في الرحلة الطرابلسية"، المحفوظة في مكتبة جامعة اسطنبول تحت رقم ٣٢٩٤ .

(١٤) انظر النابلسي ، الشيخ عبد الغني (ت ١١٤٣ هـ / ١٧٣١ م) ، "التحفة النابلسية في الرحلة الطرابلسية"، حققها وقدّم لها هريبرت بوسة ، بيروت ، ١٩٧١ م ، ص ٤٩ ، ص ٧٦ ، ص ٨٧ .

(١٥) نوفل ، عبد الله حبيب ، "تراجم علماء طرابلس وادبائها"، مطبعة الحضارة ، طرابلس ، ١٩٢٩ م ، ص ٣٥ ، ص ١٣٧ — ١٣٨ .

ان هذه التمليقة المصَنّفة ضمن مجموعة Levinus Warner (١٦) ، (ت ٢٢ حزيـران ١٦٦٥ م) ، قنصل هولنـدا في اسطنبول ، مسجَّلة في مكتبة جامعة ليـدن تحت رقم (١) Cod. Or. 944 (١٧) ، وهي تقع في اربـع ورقات،ومجموع أسطُرها مائـة واربعة وسبعون سطرا مكتوبة بخـط اعتيادي ، ومدونة بتاريـخ ١٠١٦ هـ / ١٦٠٦ م ، وعلى الأرجح انها النسخـة الأم،حيث لم أعثُر على ايـة اشارة اخرى عنها في بقيـة فهارس المخطوطـات المنشورة،وعلى الغالب انهـا وصلت فارنر باسطنبول عن طريق حلـب،بواسطة محمـد بن عمر العرضي الحلبي (ت ١٠٧١ هـ / ١٦٦٠ م) ، الذي كان قـد اتصل بفارنر، وكان يشتري لـه المخطوطات العربية ويُزَوِّده بهـا (١٨) ، او عن طريق فردريك اخي

---

(١٦) ليفنوس فارنـر Levinus Warner ، من طلبة جامعة ليـدن، درس اللغات الشرقية فيهـا ، وسافر الى اسطنبول سنـة ١٦٤٥ م . وفي سنة ١٦٥٥ م عُـيِّن قنصلا لهولندا في العاصمـة العثمانية ، وبقي في ذلك المنصب الى حين وفاتـه في ٢٢ حزيران سنـة ١٦٦٥ م . واثناء اقامته الطويلة تلـك تمكَّن من شراء عدد كبير من المخطوطات العربيـة والفارسية والتركية والعبرية التـى اوصى بها قبل وفاته لمكتبة جامعة ليـدن،لتكون بذلك النواة الاولى لمقتنيـات تلك المكتبة من التراث الشرقي . حـول حياته واقامته باسطنبول انظر مقالـة

Drewes, G. W. J., "The Legatum Warnerianum of Leiden University Library" in Levinus Warner and His Legacy, E. J. Brill, Leiden, 1970, pp. 1 - 31.

(١٧) انظر فهرس مكتبة جامعة ليـدن **Voorheove, P.**

Handlist of Arabic Manuscripts in the Library of the University of Leiden and Other Collections in the Netherlands, in Bibliotheca Universitatis, Lugduni Batavorum, Leiden, 1957, p. 361.

(١٨) محمـد بن عمر العرضي (ت ١٠٧١ هـ / ١٦٦٠ م) نسبة الـى بليدة العرض في برية الشام من اعمـال حلب ، من اسرة حلبيـة معروفة بالعلم ؛ ولـي القضاء بحلب،وتولّى افتـاء الحنفية فيها لـمدة سنتين ثم سافر الى اسطنبول حيث لـم يستطب الاقامة هنـاك،وبعد عودته من العاصمة العثمانيـة نجده يتولى افتاء الشافعية بعد وفـاة أخيه . ونعثر على رسالـة منه لفارنر،ونظرا لاهميتها فاننا نـورد نصهـا :

« حضرة بكسر عطارد وواحد الفراقد (نلاحظ انـه يكرر مثل هذين التعبيرين حيث يورد لـه المحبي نصا يذكر فيه ... « حضرة شيخ الاسـلام ودرة تاج الملك

فارنر، الذي كـــان قد عمل لفترة قصيرة كقنصل لهولندا في حلـــب (١٩) ، ممّا يدلّ علـــى ان فارنر كان على اتصال بحلـــب ، على مستوى النشاط التجاري ، وكذلك على مستوى تُجّـــار المخطوطات التي شُغف بشرائها .

تعليقة مصطفى بـــن جمال الدين بن كرامة حول احـــداث سنة ١٠١٥ هـ / ١٠١٦ هـ ١٦٠٦ م /١٦٠٧ م .

ـ ولص الختام بكـــر عطارد العلم وثاني الفرقد » . . . خلاصـــة ، م ٤ ، ص ٦٢ ، ايلجي (السفير) بيك المكـــرم لا زال مدعي العلم لـــه مسلم ، تفاوض جناب به الترحاب (كـــذا النص) . هو ان الواصل اليكم من كتـــب المرحوم كاتب چلبي (ت ١٠٦٧ هـ / ١٦٥٧ م) ستة كتـــب ، نزهة الخاطر للكاشي،وهـــو كتاب مشتمل على اشعار عربيـــة وفارسية،وثمنه اثنـــا عشر غروشا،والمجلد الاول من تذكرة ابـــن حمدون وثمنه ستة عشر غروشا،وشرح شـــواهـــد الطلخيص (لبدر الدين الغـــزى) وثمنه اربعة غروش ونصف،وشرح مقامات الحريري ، المتوســـط للشريشي وثمنه ثلثمائـــة عثماني،وجزء من العقد لابن عبد ربـــه وثمنه غرش واحـــد،وتاريخ العبدونية وثمنـــه غرشان؛فالمجموع خمســـة وثلاثون غرشا وثلثمائة عثماني،واما تاريخ البناكتي (محمـــد بن سليمان الاشعري (ت ٨٩١ هـ / ١٤٨٦ م) صاحب كتاب روضـــة اولي الالباب في التاريخ، وتاريخ ختاي،وتاريخ خسروي،ورسائل الخوارزمي، فوعدنا الدلالون بهمـــا،يكون معلوما لكم؛والفتون ان شاء اللـــه نحصلها والسلام . من الفقير محمـــد العرضي ».ويضيف في حاشية على تلـــك الرسالة ما يلي : « ولا تؤاخذونا باخلاف الوعـــد بالمجيء اليكم يـــوم الاحد الماضي،فانه صار لنا مانع بسبل موانـــع.وتبلغ شوقنا الى المربـــوط في الدار بمقتضى تسميتكم نقولا والســـلام . وقد اشترينا نحن لانفسنا تاليفـــا لجدّنا ابن الحنبلي (رضي الديـــن) بمائتي عثماني فتفضلوا بها لنـــا والسلام وان شاء اللـــه عن قريب ناتيكم » . من هـــذا النص نلحظ بوضـــوح مـــدى العلاقة الحميمة التي كانت تربط الاثنين . انظـــر الخفاجي ، شهاب الدين احمـــد بن محمـــد بن عمر (ت ١٠٦٩ هـ / ١٦٥٨ م) ريحانة الألبّا وزهرة الحياة الدنيـــا ، ٢ م ، تحقيق عبـــد الفتاح محمـــد الحلو ، القاهرة ، سنة ١٩٦٧ م ، م ١ ، ص ٢٧٤ ـــ ٢٧٨ . المحبـــي ، خلاصـــة ، م ١ ، ص ٨٦ ـــ ١٠٣ ، البغدادي ، اسماعيل بن محمـــد امين البابانى (ت ١٣٣٩ هـ / ١٩٢٠ م) ، هدية العارفين : اسماء المؤلفين وآثـــار المصنفين ، م ٢ ، منشورات مكتبة المثنى ، بغداد ١٩٥٥ ، ص ٢١٤ ؛ انظر ايضـــا : اللوحة رقم ١٢ ، المنشورة صورة لها كملحق لكتـــاب Levinus Warner and His Legacy,

(١٩)

Drewes, G. W. J., "The Legatum Warnerianum", in Levinus Warner and His Legacy P. 10.

دماية تتضمن ذكــر أسرنا عند الكفّار والسبب الداعـــي للفرار وما احل الله بالباغي من الويل والدمار ، والحمد للـــه الملك القهار والصلاة والسلام على النبـــي المختار وعلى آلـــه وصحبه السادة الاخيار آنـــاء الليل واطراف النهـــار صلاة تمحو عن قائلهـــا الاوزار .

« بسم اللـــه الرحمن الرحيم وصلى اللـــه على سيدنا محمـــد وعلى آلـــه وصحبه وسلم وحسبي اللـــه « ونعم الوكيل » (٢٠) . الحمد للـــه الذي وعـــد الصابرين المراتب العلية والهمهم الشكر فنالوا بـــه اعظم مزية ، واشهد أن لا الـــه الا الله وحده لا شريك لـــه شهادة تدفع عنّا كلّ بليّة ، وتورثنا سعادة ابدية سرمدية ، واشهد ان سيدنا محمد عبده ورسوله القائم باعباء الرسالة وامـــر الرعية ، صلى اللـــه عليه وعلى آلـــه وصحبه المنعوتين بمكارم الاخـــلاق والصفات البهية صلاة دائمة متوالية يتضاعف ثوابهـــا كل بكرة وعشية . امـــا بعد فيقول العبد الفقير مصطفى بن جمال الدين المدعو بابن كرامة اجاره اللـــه من الزلل والندامة:

لمـــا كان بتاريخ اوائل شهر صفر سنة خمس عشرة بعـــد الالف وقد حصل على الديـــار الطرابلسية ما هو ليس بقابل للوصف ، ورد امـــر من ذلك الـــه في ارضه القائم بسنّته وفرضه المؤتمن على حقّـــه واليد المبسوطة على خلقـــه،من احتباه اللـــه لوراثة الرسالة وجعل طاعته فريقا بين الهدى والضلالة لا دنيا الا بـــه ومعه ولا دين الا لمـــن والا (٥) وتبعه ، كافل الأمّـــة وراعيها وسايس الملّـــة وحاميها ، نظام الجملة وجلاء الغمة ورباط النعمـــة ، من عصى السلطان فقـــد اطاع الشيطان ، من شايعه حمـــد في يومه وغده ورعى من العيش فـــي ارغده ومن نابذه صار في خسران وعانقه الخذلان ، جعل اللـــه رايته العليا وآيتـــه الكبرا ، مـــا تسابح القمران (٢١) ، وتوالى الملـــوان (٢٢) ، واستقر في مكانـــه جبـــل لبنـــان .

---

(٢٠) من سورة آل عمران آيـــة رقم (١٧٣) .

(٢١) القمران : الشمس والقمر ؛ انظر جمال الدين محمـــد بن مكرم بن منظور (ت ٧١١ هـ ١٣١١ م) ، لســـان العرب ، ١٥ م ، بـــيروت ، ١٩٥٥ م ، م ٥ ، ص ١١٣ .

(٢٢) الملـــوان ، الليل والنهار،وقيل طرفا النهـــار ، ابن منظور ، لســـان العـــرب ، م ١٥ ، ص ٢٩٠ — ٢٩٢ .

بعد ان انهي لسدّته،لا زالت الايام طوع ارادته،أنّ علـــي بن جان (٢٣) بـــولاد بغى واستغنى فطغى وركـــب اضاليل الهوى واباطيل المنـــى واحاديث النفوس الكواذب ووســـــاوس الآمال الخوابث ، جال في تمهـــه وشقائه وسفاهة عقلـــه وقلّة رايه،ودخل في ظلمـــة المعصية وخرج من نـــور الطاعة وركب المركب الذي لا بـــــد ان يترجل راكبه بل ينخذل فارسه ، مَـــدَّ يدًا قصيرة ليتناول غايـــة بعيدة ، أضلّه عماه وزلّت بـــه قدماه ، امتطى ظهـــر الاغترار واداع دواعي البوار ، اوقـــد نارا الحرب بدر منها بوادر الفتنـــة وهزرت على يـــده شقاشق (٢٤) المحنة ، فلما

---

(٢٣) علـــي بك ابن الامير احمـــد ابن جانبلاط الكردي ، ابن اخي حسين باشـــا جانبلاط ، انابه عمـــه في حلب عند خروجه لملاقـــاة الوزير السردار سنان باشـــا جغال زادة، وعندما وصله نبـــا قتل عمه بامر الوزير المذكور رفع رايـــة العصيان في ماصمه، وكان جيشـه المكـــوّن من عناصر السكبان الهاربين مـــن الخدمة العسكرية يزيد على عشرة آلاف شخص . ومُنِع الوالـــي المعيَّن على حلب من الدخول اليها ، وســـار من حلب باتجاه الجنـــوب حيث هزم العساكر العثمانية بقيادة يوســـف باشا سيفا (ت ١٠٣٤ هـ / ١٦٢٥ م) قـــرب حماة ، سنة ١٠١٥ هـ / ١٦٠٦ م وغنم اشياء كثيرة من معسكـــر العساكر الشامية ؛ وبعد هـــذا الانتصار استدعى فخر الدين الذي اجاب دعوتـــه وانضم اليه في حركة العصيان،فارســـلا واحتلّا طرابلس يوسف باشا سيفا باستثناء قلعـــة طرابلس ، وخرّبا بعلبك وتوجها باتجاه دمشق حيث هزما عساكرها للمـــرة الثانية في نواحي المراد،ومـــــن هناك اتجهت عساكرهم لتهاجم دمشق من جهة المزة،وبـــدا افراد السكبانية والدروز بنهب الاحياء الخارجية لمدينـــة دمشق ، ولم يرفع الحصار الا بعد ان دفعت لـــه اهالي دمشق مائة وخمسة وعشرين الـــف قرش . وفي طريق عودته مَـــرَّ على حسن الاكراد وجرت اتصالات لـــه مع يوسف باشا سيفا ، ادت الى عقـــد مصاهرة ما بين ابـــن جانبلاط ويوسف باشا سيفـــا ، ومن هناك عـــاد الى حلب فارسل السلطان لـــه الوزير الكبير مراد باشا « لأنه (اي علـــي بك) كان قد قارب أن يملك البـــــلاد بالاستقلال » وفي القتال الذي نشب قـــرب مرعش نجا علي بك جانبلاط براسه الـــى مدينة حلب ومنها الى ملاطية،ومـــن هناك قصد اسطنبول حيث عفـــا عنه السلطان وولّاه مكرمية طمشوار ليُقْتَل فيما بعـــد حوالي ١٠٢٠ هـ / ١٦١١ . انظـــر ترجمته في البوريني ، المصدر ذاتـــه ، م ٢ ، ص ٢٧١ ــ ٢٩١ ، المحبـــي ، المصدر ذاتـــه ، م ٣ ، ص ١٣٥ ــ ١٤٠ .

(٢٤) شقاشق : جمـــع الشقشقة وهي « لهـــاة البعير،ولا تكون الا للعربي من الابـــل » « وقيل هو شيء كالرئـــة يخرجها البعير من فيـــه اذا هاج » . ابـــن منظور ، لســـان العرب ، م ١٠ ، ص ١٨٥ .

تقررت احواله لديـــه،لا زالت حمائم النصر ترفرف بين يديـــه ، عيّن عليه سردارا كافل المملكة الطرابلسيـــة (٢٥) ، لا برحت مـــدا الايام من الاغيار محمية ، أمـــير الامرا الكرام كبـــير الكبرا الفخام : حضرة يوسف باشا بـــن سـيفا (٢٦) ، أسـعفه اللـــــه في اموره اسعافا وادام اللـــه أيامه

---

(٢٥) المملكة الطرابلسية : كانت تشكل احدى ممالك ونيابات بلاد الشام في العهد المملوكي • حول هـــذه المملكة انظر ابـــا عبد اللـــه بن محمد المعروف بشيخ الربوة الدمشقي الانصاري (ت ٧٢٧ هـ / ١٣٢٧ م) ، نخبة الدهـــر في عجائب البـــر والبحر ، تحقيق أ . مهران ، بريل ، ليـــدن ، ١٩٢٣ ، ص ٢٠٧ ـــ ٢٠٩ ؛ كذلك احمـــد بن علـــي القلقشندي ، (ت ٨٢١ هـ / ١٤١٨ م) ، صبح الاعشى في صناعـــة الانشا ، القاهرة ، م ٤ ، ص ١٤٢ ـــ ١٤٩ • حول هـــذه المملكة في اواخر العهد المملوكي راجع غرس الديـــن خليل بن شـاهين الظاهـــري ، (ت ٨٧٣ هـ / ١٤٦٨ م) ، زبدة كشف الممالك وبيـــان الطرق والمسالك ، نشره بولس راويس ، بـــاريس ، ١٨٩٤ م ، ص ١٢٣ . أمـــا فيما يتعلق بالحياة الثقافية في طرابلس فـــي العصور الوسطى ،فتراجَع المـــادة المجموعة عند عمـــر عبد السلام التدمري ، الحياة الثقافية في طرابلس الشـــام خلال العصور الوسطى ، بـــيروت ، ١٩٧٢ ، هذا بجانب المـــادة المتوافرة في كتاب اخبار الاعيـــان في جبل لبنـــان ، ٢ م لطنوس الشدياق (ت ١٨٥٩ م) الذي حققه فـــؤاد افرام البستاني ، بـــيروت ، ١٩٧٠ م ، م ١ ، ص ١١ . كذلك انظـــر

FR. Buhl, "Tarabulus" E. I. vol. iv, P. 660

والترجمة المقالـــة نفسها في دائرة المعارف الاســـلامية ، م ١٥ ، ص ١١٧ ـــ ١٢٠ ؛ امـــا مصطلح « كافل » فهو مرادف لمصطلح « نائـــب » وهو من القاب كبار النواب كنائب دمشق ، راجـــع القلقشندي ، المصدر ذاتـــه ، م ٤ ، ص ٥٣ .

(٢٦) يوسف باشـا سيفا (ت ١٠٣٤ هـ / ١٦٢٥ م) ، زعيم سُنّي مـــن أصل تركماني او كردي ، كانت اسرتـــه من القُوى المحلّية البارزة في منطقـــة عكار ، واوكلت اليه ولايـــة طرابلس الشام اكثر من مـــرة ؛ عرف عنه زعامته للجناح اليمني ضـــد الجناح القيسي بقيـــادة فخر الدين المعني ، وبطتـــه علاقات المصاهرة مع المعنيين والجنبلاطيين . حول حياته انظـــر : البوريني ، تراجم الاعيان من أبنـــاء الزمان ، انظـــر النص المنشور أدناه . المحبـــي ، خلاصة الاثر ، م ٤ ، ص ٤٧ ـــ ٤٩ ؛ ص ٥٠٣ ، الدويهي ، البطريرك اسطفان (ت ١٧٠٤ م) ، تاريخ الازمنـــة ، نشرة الاب فردينان توتل اليسوعي ، المطبعـــة الكاثوليكية ، ١٩٥١ ، ص ٢٢٠ ، كذلك انظـــر مقالـــة

Salibi, K., "The Sayfas and the Eyalet of Tripoli, 1579 - 1640," Arabica, vol. XX (1973), PP. 25 - 52.

الزامرة واعلا مقامه في الدنيا والآخرة . بولايته الرضية تنام وهم آمنون ويصحون (ا ا) بوجوده مسرورون ، نفوسهم في ظلال السكون وادعة ، وفي رياض الامن راتعة . فتوّجّه امتثالا لأُمره المطاع الواجب الاتباع نفذه الله في سائر الاقطار والبقاع ليخرجه من محروسة حلب ، وجمع العساكر وحثّ بالطلب ، هدى الى اجهاد النفس في المسالك ووقفها على سبيل المراشد والمناجح (٢٧) : بين ثغر يُسَدّ وعضد يُشَدّ وشتات يُجَمع وخَرْق يُرقَع وذمام يؤكّد وعهد يؤيَّد . فلما بارز في عاشر شهر ربيع خارج حماة كاتب (ا) بن جان بولاد لبعض امراء العرب (على الهامش الاعراب) على مبلغ فأركبه هواه ، هيهات ما اضلَّ فِعْلَ ذلك الشقيّ من راي واسواه ، تَيَمَّن الاماني الكاذبة وظن الظنون الخائبة ؛ فلما تلاقى العسكران وتصادم الجيشان واصطفّ الخيل والرجل وامتلأ الحَزَن (٢٨) والسهل وبرقت الابصار بشعاع السيوف وسفرت رسل الحتوف بين الصفوف ودار كأس الموت دهاقا وعاد لقا الفريق بالفريق عناقا ، وصار الفارس اقرب من قناته والسيف ادنى للوريد من حبله ، ففي ذلك المحل فرَّ الشقي الموعود بالاموال وزيَّن له الشيطان فعله وحثّه بالاستعجال وصوَّر له الاماني الفاسدة والآمال ، فلما شاهد فراره العساكر صار راي كل لصاحبه مغاير وعاد (ت) السواعد غير مساعد (ة) والاعضاء غير معاضد (ة) . ولم يزل صاحب الدولة والسعادة ، بلَّغه الله الحسنى وزيادة ، ثابت الجنان لا تهوله (جاءت يهوله) صدمات الفرسان ، وصار كلما حرّض من العسكر جحفلا ، يُظهر ضعفا وتجلجلا ، فعند ذلك تطايرت من حوله العساكر قاصدين حماة ولم يمكث معه الا الذي رباه في حماه ، فسار عند ذلك صاحب الدولة وقد ادخر سعيه ليوم لا ينفع الانسان قوّته ولا حوله والسما تحسد الارض بوطيه لها في سيره والنجوم تَوَدّ لاجل الثواب لو خرَّت مع سنابك خيله ، ودخل محروسة طرابلس في

---

(٢٧) المناجح جاء في اللسان : « وانجح الرجل ، صار ذا نجح فهو منجح من قوم مناجح ومناجيح » ، لسان العرب ، م ٢ ، ص ٦١١ .

(٢٨) الحَزْن : « ما غلظ من الارض في ارتفاع » ، لسان العرب ، م ١٣ ، ص ١١٤ .

خامس عشر شهر ربيع الاول،وانسَرَّ الناس بقدومه لأنَّـه عليه المعوَّل .

واما ابن جان بولاد طاوع شيطانه اذ اضلَّـه وزلّ معه حين استزلَّه أبى الآ امتداد عنانه في الانقياد لشيطانه ، واستنفاذ قواه في الاستسلام لهواه ، فدعا ابن معن (٢٩) فاستجاب لدعائه واسرع لندائه،وسوَّل لهم الشيطا (ن) تسويلا واستغواهم تَغَرُّرا وتضليلا وحُبّب اليهم العناد حتى شيط بلحمهم ودمهم وكره اليهم الرشاد حتى القوه وراء ظهورهم وصافح بينهم (١ ب) فغادرهم رهينا وقارنهم وسا (ء) قرينا،ولم يزل ياحسم في اسفاح الشحنا (ء) وهم له يجيبون حتى وصلوا ظاهر طرابلس ونزلوا بأرض الجون (٣٠) ، جعلوا يغيرون وينشرون

---

(٢٩) فخر الدين المعني (ت ١٠٤٣ هـ / ١٦٣٥ م) ، درزي المذهب ، كان زعيم الجناح القيسي في بلاد الشام ؛ بنى جيشا قويا من العناصر الهاربة من الخدمة التي كانت تعرف بالسكبانية ، استفاد من علاقاته باوروبا عن طريق الموارنة وشجع التجارة مع اوروبا فازدهرت موانىء لبنان،خاصة صيدا ، نشطت الزراعة في عهده،خاصة زراعة شجرة التوت لتربية دودة القز ، حارب بني سيفا ، وبنى القلاع وشحنها بالجنود ؛ تم القضاء عليه في عهد السلطان مراد الرابع • من اجل المزيد عن حياته انظر احمد بن محمد الخالدي الصفدي (ت ١٠٣٤ هـ / ١٦٢٤ م) ، تاريخ الامير فخر الدين المعني ، تحقيق اسد رستم وفؤاد البستاني ، بيروت ، ١٩٦٩ ؛ المحبي ، خلاصة ، م ٣ ، ص ٢٦٦ — ٢٧١ ؛ عيسى اسكندر المعلوف ، تاريخ الأمير فخر الدين المعني الثاني ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، ١٩٦٦ ؛ الاب بولس قرألي ، فخر الدين المعني الثاني امير لبنان : ادارته وسياسته ، ١٥٩٠ — ١٦٣٥ ، حريصا ١٩٣٧ ؛ لنفس المؤلف ، لبنان والدولة العثمانية في عهد فخر الدين المعني الثاني ، مطبعة مصر الجديدة ، ١٩٥٢ ؛ انظر ايضا محاضرة كمال الصليبي : « فخر الدين المعني الثاني والفكرة اللبنانية » ، ابعاد القومية اللبنانية ، ص ٨٥ — ١١١، ولنفس المؤلف .

"Fakhr al-Dīn" E. I. , vol. ii, PP. 749 - 51.

(٣٠) الجون : يفيد معنى الزاوية ويذكر عادة مضافا الى عكار ، جون عكار ، وفي سنة ١٥٨٤ م ، نُهبت الخزنة المصرية التي كانت في طريقها الى اسطنبول في ذلك الموقع ، مما دعا الدولة العثمانية الى تجريد حملة على تلك المنطقة كان من نتائجها ضرب الزعامات في جبل لبنان،خاصة الزعامة المعنية . حول هذه الحادثة انظر ، الدويهي ، اسطفان ، تاريخ الازمنة ، ص ٢٨٤ — ٢٨٥ ، الشدياق ، طنوس ، اخبار الاعيان في جبل لبنان ، م ١ ، ص ٦٧ ، ص ٢٣٣ ، ٢٣٨ ؛ حول معنى كلمة جون ، انظر فريحة ، انيس ، اسماء المدن والقرى اللبنانية وتفسير معانيها ، جونية ، ١٩٥٦ م ، ص ٩٧ .

من الفتن مــا ينشرون،لا عن الدما (ء) كَفّوا ولا عــن المحارم عَفّوا ، يا الذئب بالقياس اليهــم الا من الصالحين ولا الحَجّــاج في العراق منهم الا أول العادلين ولا فرعــون في بني اسرائيل اذا قابلته بهــم الا من المقربين ، مــا تركوا للرعايا فضة الا فَضّوهــا ولا ذهبا الا ذهبوا بــه ولا ضيعة الا اضاعوها ولا فرســا الا افترسوه ، توالت مظالمهــم ومظالمهم واتّصلت غائمهــم وغُمُّهم ؛ عَيَّنوا درويش بن جان بولاد (٣١) مع شرذمة هي فراش النار وأوباش الامصار فتتابعت اليــه كلاب الغارة الشمو (ء) وتماوت لديــه ذئاب الفتنة الصمّا (ء) . دخل طرابلس في اواخــر شهر ربيع ، فالاعيان من اهلهــا دخلوا السفن والبعض آوى (جاءت آوا) الى حصن منيــع دخلها بمن لفّ لَفّيته وصافح علــى الضلال لكفنه من اشياع الغواية واتبــاع الغباوة اولئك الكلاب العاوية والعصبــة الضالة الباغية،لا يقيمون لــه وزنا ولا يمتثلون له اذنا وانمــا صار اهم شُغلها الــى الاموال المستهلكة والموارد المُرْدِيَــة المهلكة . وفي صبيحة نهــار السبت رابع عشرى ربيــع سافر بعض المراكب فبكــت لمصابهم الارض والكواكب قاصديــن الجزيرة (٣٢) والناس تبكــي بأدمع غزيرة،فلما استقر نهار الاحد وكان يــوم يشيب فيه لهوله الغــراب والولد ، غلايين (٣٣) ،

---

(٣١) درويش بــن جان بولاد : يُعَرِّفــه البوريني بقوله،درويش بك ابن عسم علي بك وانــه اخذ مدينة طرابلس الشام لكنه لــم يتمكن من احتلال القلعة التي تحصن فيها مملوك يوســف باشا سيفا ، الذي كان يعرف ايضا باســم يوسف ، انظر النص المنشــور ادنــاه .

(٣٢) المقصود بالجزيرة هنــا جزيرة قبرص ؛ انظــر نص البوريني المنشور ادنــاه والملاحظات المدونــة عنها في الهامش .

(٣٣) غلايين : جمع كلمــة غليون التي هي تحريف لكلمة galleon, galion الانكليزية و galeone الايطالية ، وهي سفينة أكبر مــن galley كان يستخدمها الاسبان في التجــارة خاصة مع ممتلكاتهم في العالــم الجديد ، والجدير بالذكر ان الشيخ عبــد الغني النابلسي في رحلته الى طرابلس يذكر مــا يلي « وقد رأينا على حافة المينــا أنواع المراكب والسفن،وقــد ذكر لنا أسماءهم صديقنا البارع الشيخ الديــن الطرابلسي المذكور ... فاعلم أن انواع المراكب وأسماءها كثيرة بلغ عشرين نوعا بعضهــا يخالف بعضا في الصورة والهيئــة وأسماؤها متعددة كل اسم يطلق على مركــب مخصوص لا يتناول المركب الاخر لكنه يطلق على الجميع المركب .

النصارى علينـا اقبلت ، فالعقول طارت والدمـوع فارت والاصوات قد علت لهذه النازلـة الهائلة والفظيعة والحادثة الكارثة ، يـا لها من مصيبة لا يداوي كَلْمها آسٍ ، ولا يسـدّ ثلمها تَناس ، ففي لحـة ادركونا ، وضربونا بالكاحل الطيّارة فاهالونـا وبشَرَر نارهم الهبونا واحاطوا بنـا فاخذونا . كـان في السفينة من المسلمين مائتـا (جاءت ماتا) نفـر وسبعة انفـار رجال ونساء واطفال ، عبيـد واحرار صاروا بأجمعهم في قبضـة الحربيين الكفّـار الاشقياء الفُجّار بين مقتول،نقل اللـه روحه الى دار السلام، واسـير موثق بين ايدي الكَفَرة اللئام وجريح تَمَثَّـل لـه الاجل فقال لسان حاله هذا اقصى المـرام ؛ ما الحيلة وقد حصل القضا (ء) ونـزل البلا (ء) وكُتِب الرضى والتسليم ونحن بـه آمنون لا حول ولا قوّة الا باللـه « انا للـه وانا اليه راجعون » (٣٤) ، لا نسخط لقدر اللـه وهو عدل ولا ننتكر (٢ ا) لقضاء اللـه وهو فصل ومن عنده الفضل ، يولي ويبلـي ويسلب ويعطي لـه الخلق وفعله الحق ، امـر اللـه سبحانه وتعالى لا يقابـل الا بالرضى والصبر على مـا قضى وامضى ، علما بـأن مقاديره لا تجرى الا على موجبات الحكمـة وتدبيره لا يخلو مـن باطن المصلحة وظاهر النعمـة .

= والسفينة » . ويعدد عشرين نوعا : منها الغليون.انظـر : التحفة النابلسية في الرحلـة الطرابلسية ، ص ٧٠ — ٧١ ، كذلك

Dozy, R., Supplement aux Dictionnaires Arabes, vol. II, P. 228.

انظـر كذلك The Oxford English Dictionary, vol. iv, P. 21.

ونجد أن ابـن اياس ، (ت ٩٣٠ هـ / ١٥٢٣ م) يستخدم هـذا المصطلح فيقول في اخبـار سنة ٩١٨ هـ / ١٥١٢ م ما يلي : « ثـم احضر السلطان قايتباي بالقرب من(الجيزة) المركـب الكبير الغليون الذي عمره واصرف عليـه نحوا من عشرين الـف دينار نارسوا بـه قبالة المقياس ، وصنعوا لـه ثمانية مراسي وعلقوا في صواريه القناديل في الامشـاط .. » بدائع الزهور في وقائـع الدهور ، م ٤ ، تحقيق محمـد مصطفى ، القاهرة ١٩٦٠ م ، ص ٢٧٦ ؛ انظر ايضا حبيب الزيات ؛ « معجم المراكب والسفن في الاسلام » المشرق ، مجلد ٤٣ (١٩٤٩ م) ، ص ٣٥٥ ، والجدير بالذكـر أن الاستاذ انيس فريحة لـم يذكره في معجمه ، معجم الالفاظ العاميـة في اللهجة اللبنانيـة ، بيروت ١٩٤٧ ، كما ان الدكتور البـير مطلق لم يذكره في معجم الفـاظ حرفة صيد السمك في السـاحل اللبناني ، بيروت ، ١٩٧٣ .

(٣٤) من سورة البقرة ، آيـة رقم ١٥٦ .

استمرَّينا بذلك الأسر نكابد المشقات والقهر بقلب هلوع ، وروع مروع نبكي على ايامنا الماضيات ونحسد من تقدَّمنا من الاموات . ثم لما تجلّت عنا غمة الخطوب ودارت لنا بشاير الرضا من المحبوب وانشقت سحابة محنته وتجلّت غمرة كربته وطلعت نجوم ارادته وطلعت سحابة سعادته واذن اللـه سبحانه وتعالى باخراجنا من الضيق الى السعة ومن الانزعاج الى الدعة ، القى (جاءت القا) اللـه سبحانه وتعالى الرافة في قلب ذلك العلج النصراني فأمرني بالخروج الى محروسة صيدا في ثامن عشرى شهر ربيع الثاني وطلب فدوى (عني) وعن ثلاثة وعشرين نسمة ضممتهم الي من الاهالي : نساء واطفال اربعة آلاف وثمانمائة ذهبا عال ، فعاهدته على ذلك واسرعت بالذهاب من غير تكاسل ولا اهمال مستجيرا برسول اللـه صلى الله عليه وسلم وعلى آله واصحابه خير صحب وآل مستشفعا مستغيثا متوسلا به في البكور والآصال ، فاعطف اللـه الكبير المتعال على هذا الضعيف قلوب سراة ذي اموال ، اعطونا تلك (جاءت ذلك) العشرة بخمسة عشر الى مضيّ شهرين، فقبلت منهم على ذا الحكم جميع ذلك الثمن ثم قالوا نحن سخينا بمالنا عليك فلا تدعنا نطالبك ، نحيل بكتابك على من يطالبك ؛ فشكرت فعلهم ومدحت فضلهم وقلت هذه المداينة لا اعدها الا كأنها عطية وهي عندي بمنزلة الهدية وانشا (ء) اللـه قبل تمام المدة نوصلكم جميع هذه العدة ، ثم اني قبضت تلك (جاءت ذلك) النقود بالتمام والكمال واقبضتها للحربيين فأخرجوا في الحين جميع العيال . فلما شاهدتُ الولد الأعزّ عمر لطف اللـه به وبفضله له عمر تهللت وفي وجوه الانس وكانت قبل عابسة واورقت (جاءت واورق) غصون من الفرج بعد أن كانت يابسة . ثم في اوائل شهر جمادي الاول دخلنا محروسة بيروت اقمنا برهة من الزمان . وفي غُرّة شهر شعبان من السنة المزبور (ة) جئنا (٢ ب) الى الاوطان فلاح لنا النجاح وانتشر نوره وأومض برق الفلاح ولمعت تباشيره فوجدنا صاحب الدولة والسعادة حضرة يوسف باشا بلغه اللـه من خيري الدنيا والآخرة ما يشا (ء) دخل الديار الطرابلسية وحكمها ، ومن ايدي الخوارج والبغاة

قد أنقذها ، وقطــع عروق البغاة اهــل العناد واطلع فيهــا كواكب السداد . فكانما بُدِّلت مــن الظلمة نورا ، واعقبــت من موتها نشورا .

ونرجع الى ذكــر الباحث عن مدينته المتعجل الـــى انقطاع مدته . بسط يده في المظالم يحتقبها والمحارم يرتكبها وضرب على اهالي حلب ضرايب ضربت الاموال بالتمحيق والبضائــع بالتمزيق.تلك البــلاد تلهبت بجمرات ظلمه ، وتنهّبت ببدرات (٢٥) غشمه فالمحــارم مهتوكة والدما (ء) مسفوكة ولسان الحال يقول.قــد يكون للباطل دولة وللفســاد صولة ، ثم ياتي من الانتقام والاصطلام ، مـــا يسقط الهام على الاقدام ، اما علــم ان العزيمة من امــير المؤمنين تنزل امثاله مثلا وتجعله لاهــل الشقاق والنفاق مثلا ! اما علــم انه اذا رماه بشعبة من افكاره ومسّـــه بجذوة من ناره عاد حرصه ندمــا وصار وجوده عدما ! وغُودِرُ اشياعه بددا بــل طرائق قددا ! نصب عليـــه سردارا الصدر الاعظم والدستــور المعظم نظام العالم مدبر جمهور بنــي آدم مراد باشا (٢٦) ادام اللـــه اجلاله وبَلَّغه من خَيْرَي الدنيــا والاخرى آماله،فسار اليــه باسعد الطوالع والفواتح وأيمن المحامــد والمناجح فخيلت لركوبه الارض مائجــة والبحار هائجة والمناجح تطرق بين يديـــه والميامن تسير حواليه وآيــات الظفر تقرا

---

(٢٥) البدرة : هي « جلــد السخلة اذا فطــم ويقال ثلاث بدرات » واستخدم بمعنى كيس فيه السف، أو عشرة آلاف ، لســان العرب ، م ٤ ، ص ٤٩ .

(٢٦) مراد باشا « صاحب الحروب مع المجــر والعجم والجلالية » ، عُــيِّن حاكما لليمن سنة ٩٨٤ هـ / ١٥٧٦ م ، واعطي بعــد ذلك حكومة قرمان ، شارك في الحــرب ضد بلاد فارس،ولــي دمشق حيث شيد فيهــا سنة ١٠٠٢ هـ / ١٩٥٣ م سوقا عرف باسمه ، عقــد صلح ستفا تروك سنة ١٦٠٦ م ، مع النمسا ، عُيِّن بعد ذلك سردارا علــى الشرق لاخضاع الحركــة الجلالية وحركة علــي بيك ابن جانبلاط ، كانت وفاته سنة ١٠٢٠ هـ / ١٦١١ م انظــر الغزي ، لطف السمــر وقطف الثمر ، ورقة ، ٤٤ ب ــ ٤٥ أ . المحبــي ، خلاصة الاثر ، م ٤ ، ص ٣٥٥ ــ ٣٥٨ ، ابن جمعة المقــار ، ولاة دمشق ، ص ٢٣ ، عبد القادر بدران (ت ١٣٤٦ هـ / ١٩٢٧ م)، منادمــة الاطلال ومسامرة الخيال ، منشورات المكتــب الاسلامي للطباعة والنشر ، دمشق ، ١٣٧٩ هـ / ١٩٥٩ م ، ص ٣٧٩ ــ ٣٨١ . صلاح الدين المنجــد « خطط دمشق » مجلــة الشرق ، م ٤٢ ، (١٩٤٨) ، ص ٦٢ ــ ٦٤ .

عليه والنصر يتراءى مـن ذائب أعلامه وبنوده وعناية اللـــه ممدة على مواكبه وجنـوده.ولم يزل سائرا والسعـود تواكبه ولطائف (جاءت الطايف) اللــه تصاحبه حتى قرب من مدينة حلب،فخرج علـي بن جان بولاد قاصدا لـه بالطلب يحضره الى مصرعه الاغاليل ويعجله الى ملاعبه الاباطيل ، حدتهـم (أ) لاستعجال (جـاءت الاستعجال) الآجـال ، وتصورت لهم المنايـا في سور الاماني والآمال،سـاروا وآجالهم تفسح في مطامعهم ومناياهم تحـتّ خطاهم الى مصارعهم . نقلهم اللـه باقدامهم الـى مصارع حمامهم (٣ أ) فلمـا التقوا وكان ذلك في شهـر جمادى الآخرة دارت على أعدا (ء) اللـه به الدائرة من شهور سنـة ست عشرة بعد الالف . وما احلّ اللّـه بهم من الانتقام ما شبّ عـن طوق الوصف وعلت ريـح الاقبال « لحزب اللـه » (٢٧) ، وذرت ريح الادبار على أعدا « حـزب اللـــه » متعهـدون بالمنايـح الزهـر واعـــدا (ء) اللـه بوزر المعاندين ازداد « حزب اللـه » شدة مراس وقسوة باس مترصدون بالمنايا الحمر ، فاز « حزب اللـه » بأجر المجاهدين واعدا (ء) اللـه بوزر المعاندين ازداد « حزب اللـه » شدة مراس وقسوة باس وثبات مقام ، وصدق انتقام ، واعدا (ء) اللـه انقلبت مواكبها وتضعضعت مراكبها وانخفض بيارقها لمـا شاهدوا الرايات المنصورة تزحف اليهم زحفا ، ملأت قلوبهم رجفـا وهي تخفق بالنجح ، والطبـول تنطق بالفتح ، أمـر بتسوية الصفوف التي لا فلول يعتريهـا ولا رجوف ، وجعل الجيوش ميامـن يقاربها اليمـن والنجاح ، ومياسر اقتضت اليسر والفـلاح ، وصار هو وقواده قلبا قالبا لمـن قابله وناكسا لمـن واجهه.فحين تراءى الجمعان وافضى الامـر الى قرب العيان والتهبت جمرة الضراب والطعان التقى الجمع بالجمـع وقرع النبع بالنبع (٢٨) وبلغت القلـوب الحناجر وشاهت المناحر المناخـر فعند ذلك صمتت الالسنـة وخَطَبت السيوف

---

(٢٧) « حزب اللـه » من سورة المائدة آيـة رقم (٥٦) ، وكذلك ذكرت في سورة المجادلة آيـة رقم (٥٨) .

(٢٨) النبـع : من أشجـار الجبال تصنع منهـا القسيّ ، لسـان العـرب ، م ٨ ، ص ٣٤٥ — ٣٤٦ .

على المنابــر واستمخرت (٣٩) سمر الرماح وتصافحــت بيض الصفاح بلــغ « حزب اللــه » من اقتناص الاعدا (ء) اقصى المبالغ ووطئوهــم وطء القانع الدافــع زحموا الاعدا (ء) مــن جوانبهم وتمكنوا مــــن نقض مواكبهم فضاق بهــم المجال وتحكّمت بهم الآجال فلم تَــرَ (جاءت تــرا) الا رؤوسًا تندر ودمــا تهدر واعضا (ء) تتطاير واجساما تتزايل، اوسعوهم ضربا وشقًّــا وطعنا ورشقا وجرحــا وزرقا؛ وطئوهم بسنابك الخيل وتركوهم كجفا (ء) السيل صبوا عليهم سوط (جاءت صوط) (عذاب) فاسلموهم لعوادي بتــار وتباب بين قتيل عجل اللــه بروحه الى دار جزائه واسير قــد أوثقه ما ارتكب من سوء رايــه ، وابن جان بولاد نكص على عقبــه وقد كادت صروف الايــام تفترسه وبأنيابها تنتهشه،لم ينــج الا بشرذمة لاذت بذمّة الهرب ولن يفوتوا يــد الطلب،اطار الرعب قلوبهم ويمكن الخــــوف لبهم ، خرجوا من تحت طــي السيوف وقد شارفتهم ، وشبــا (٤٠) الحتوف وقد شافهتهم ، ولم يزل دائرا في البلاد ايجد من يعينه علــى البغي والعناد فلم يجد (٣ ب) لـــه مساعد ولا خل معاضد،فأحــس عند ذلك قرب الموت لمــا راى من ضيق العيش وبعد الاوطان وقهــر الجيش،ودخل على بعض البغاة فــأراد (جاءت فارد) بعضهم أن يوثقـــه ويجعله اسيرا وبعضهم ظاهره وكــــان في خلاصه نصيرا.فانهزم وقصــد الاعتاب العليّة والســدّة العالية السنيّة في سابع عشري شهر رمضـــان سنة ست عشرة بعــد الالف من هجرة سيد ولــد عدنان يلتمس العفــو ، وَرَمَّقه على تَلَف وشفاهته علــى شرف، فأُخِّر لأَجَل مضروب وانسيء لأَمــل مكتوب .

وامــا « حزب اللـــه » عادوا منصورين مؤيدين موفورين لــم يَمَسّهم جِراح ولا عضّهــم سلاح،غنموا اموالهم التي لــم يؤدوا منها حقا معلوما ولم يغنوا منهــا سائلا ولا محروما ، ودخـــل الصدر الاعظم مدينة حلــب والزمان ضاحك متظاهر البشر مــن الفتح الذي نطقت بــــه

---

(٣٩) من مخــر : استمخر قابل ، لســان العرب ، م ٥ ، ص ١٦٠ ــ ١٦١ .

(٤٠) شبــا : الشباة طرف السيف وحُـــدُّه،وجمعها شبا ، لســان العرب ، م ١٤ ، ص ٤٢٠ .

ألسنةُ الشكر ومنحت لــه ابواب البشر ، والممالك ملأى (جاءت مليء) تهاني وبشارات والأوليــا شورى بين افراح ومسرات ، وسلمــت قلعة حلـب الشهبا بعد دخوله بثلاثة ايــام من غير حصار ولا اهتمام لعظيم سطوته (جــاءت حطوته) ، منحة مــن الكبير المتعال ، غرّتهم عــزّة وتحكّمت بهــم الأوجال ، طلبوا الذين (جاءت الذي) كانــوا في القلعة الامان فاعطاهم ، فنزلــوا على اسوا الاحوال ، هناه اللــه بالطوالع السعيدة عنــد نهضته ودلت عليه البشائر الحميــدة في سفرته وقد دانت لــه الطوائف وآمن بــه الخائف . كان حلوله بمركز غرة الدهمة الوطفا عن السنة الشهبــا والنور المنتشر بعد الظلام المتكــر ، انحسرت الغمّة بتلألؤ جبينه ودرت النعمــة باخلاق يمينه فاصبح العــدل ممدود الرواق والسلطان نصره اللــه ساطع الاشراق ، محروسا بعين عناية الملك الخلاق الواضع قدمه على ناصية الشمس ، الساحق بضيائه انوار البدر ، الضارب برواقه مــن فوق النجم المبسوط بــين المغربين خماله الممدود على الخافقين شراعه ؛ فاللــه يديم له الفتح يمينا ويسارا ويزيد اعداه ذلاً وخسارا ويجعــل اعداه حصائد سيوفــه ورهائن خطوب الدهــر وصروفـــه .

ترجمة يوسف باشــا سيفا للشيخ حسن بن محمــد البوريني (٤١)

« الامير يوسف بــن سيفا واخوه الامير علــي ، قد اتفق (١٤٩ ب) مسيرنا الــى طرابلس الشام فنهضت اليهــا من دمشق في شوال سنة ثمان والف من الهجرة النبويــة، على مهاجرها الف الف تحيــة . ومررنا

---

(٤١) الشيخ حسن بن محمــد البوريني (٩٦٣ هـ / ١٥٥٦ م — ١٠٢٤ هـ / ١٦١٥ م) ، مؤرخ من اصــل نابلسي عاصر احداث سنــة ١٠١٦ هـ / ١٦٠٥ م ، حول حياته وثقافته ومنزلته العلمية ومؤلفاته ، انظر الترجمة الوافية ومصادرها التي اوردها السيد صلاح الديــن المنجّــد في تقديمه للمجلد الاول من تراجــم الاعيان من ابناء الزمــان ، دمشق ١٩٥٩ م ، ص ٥ — ٢٦ . النص الذي ننشره مأخوذ من مخطوط تراجم الاعيان من ابنــاء الزمان ، نسخة فيّنــا ، رقم

Cod. Arab, 1190, Mixt. 346

وهذا النص يقع في خمس صفحات ونصف في كــل صفحة تسعة وثلاثون سطرا .

على مدينة عكار (٤٢) فاجتمعنا بالاميرين المذكورين وكان الامير علي له تعلق باهداب الآداب ، وتوثق من معرفته باوثق الاسباب ؛ ولعمري لقد شاهدت دولة سيفية وشهدت بسعادة يوسفية وعاينت مجدا عاليا وجودا وافيا يشمل البعيد والقريب . وكانت بهما عكار صافية ، ووعود الزمان بالمراد لمن قصدها وافية ، فاشتهرت بعد الخمول وقُصِدَت حتى صارت محطّ الحمول ؛ ولعمري ان الدولة السيفية كانت وريفة الظلال باسمة الثغور عن عقود الاقبال . وقد مدحتُ صاحب انشاء الدولة المذكورة ، الامير يوسف ذو السيرة المشكورة بقصيدة ميمية ومدحت اخاه عليًّا باخرى رائية ، وانصرفتُ من عكار الى طرابلس الشام وطرفي لبرق اقبال هاتيك الديار قد شام ، ورأيت في الطريق بقايا حصن يقال له عِرْقا (٤٣) وقد عرقه الدهر الجاير بمدية جوره عُرْقا ، وشاهدتُ تحامل الزمان على نواحيه وتشتيته لجموع ساكنيه واهليه مع انه من الحصون القديمة التي

(٤٢) النصوص المتوافرة بين أيدينا لا تشير الى مدينة تعرف بعكار بل تشير الى حصن عكار . فيقول عماد الدين اسماعيل ابو الفداء (ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣١ م) ، : « وعكار حصن في الجبل المذكور (جبل عكار) » . اما القلقشندي فيذكر ما يلي : « وهي قلعة على مرحلة من طرابلس في جهة الشرق بوسط جبل لبنان في واد ، والجبل محيط بها وشرب أهلها من عين تجري اليها من ذيل لبنان المذكور ولها ربض ليس بالكبير » . وكانت تشكل نيابات مملكة طرابلس الشام في العهد المملوكي ونيابتها امرة عشرة ونائبها يخاطب « النائب بحصن عكار » انظر ، تقويم البلدان ، حققه م . رينود والبارون ماك كوكين دي سلان ، المطبعة الملكية ، باريس ، ١٨٤٠ م ، ص ٦٨ ؛ صبح الاعشى في صناعة الانشا ، م ٤ ، ص ٨٥ ، ص ١٤٤ ، ص ٢٢٥ ، م ٧ ، ص ١٧٦ ، م ٩ ، ص ٢٥٣ ، م ١٢ ، ص ٤٦٤ — ٤٦٥ ، يورد المؤلف هنا نص كتاب تقليد لاحد النواب .

(٤٣) يعرفه ياقوت الحموي (ت ٦٢٦ هـ / ١٢٢٨ م) ، عِرْقَة ، بقوله : « عرقة بكسر اوله وسكون ثانيه ... بلدة في شرقي طرابلس بينهما اربعة فراسخ وهي اخر عمل دمشق وهي في سفح جبل بينهما وبين البحر نحو ميل وعلى جبلها قلعة لها » وذكرها أبو الفداء بقوله : « هي بلدة صغيرة ذات قلعة صغيرة ولها بساتين ونهر صغير ... » ، انظر معجم البلدان ، م ٦ ، تحقيق فردناند وستنفلد ليبزج ، ١٨٦٨ ، م ٣ ، ص ٦٥٣ — ٦٥٤ ، تقويم البلدان ، ص ٢٥٤ — ٢٥٥ .

محت رسومه كل ديمـــة مستديمة . فلما دخلتُ طرابلس حببتُ حسن
محاسنهـــا ورايتُ عجايب البحر بالقرب مـــــن مسالكها وفتنتُ انها
مســـا ليلة الاحد من اواســـط ذي القعدة المنتظم في سلسلة شهور سنة
ثمـــان بعد الالف من هجرة خير الانام عليه من اللـــه الصلاة والسلام .
ونزلتُ في منزل وكيل الامير علـــي اليوسفي السيفي وهـــو المسمى بعلي
ابن المقدم،وكان بـــين جماعته هو المشكور المقدم وكـــان النزول عنده
باشارة أستاذه المذكور بـــل بامره الذي يطيعه كل مامور ، فاكرمنـــا
اكراما وواصل الينـــا انعاما وحبانا الطافا ومَـــنَّ علينا إسعادا وإسعافا ،
وحضر الينا علماء طرابلس مسلّمين ولدعوى العلـــم من جانبنا مسالمين .
وقد صدر أن الامير يوســـف بن سيفا حاكم مدينة طرابلس صاحب هذه
الترجمة ارســـل في اواسط سنة خمســـة عشر بعـــد الالف الى باب
السلطنة العلية بقسطنطينية المحميـــة يتطلب حكما سلطانيـــا منشورا
خاقانيا ، بـــأن يكون راس العساكر ٱلشَّاميَّـــة وامير الامرا في مقاتلة
الولاية السنية لينتقم من علـــي بيك ابن الامير احمـــد بن جان بلاد الفارج
بحلب الشهبا الـــذي تباعد عن الطاعة وابى ؛ فأجيب الى ذلك ، وتلمس
السلطان ايده اللـــه تعالى انه قادر على ما هنالك وارسل اليـــه الحكم
المطاع الواجب الاتبـــاع بأن يكون راسا علـــى جميع العساكر ورئيسا
لجميع الجماهر مـــن حدود غزة والقـــدس ونابلس واللَّجُّون وعجلون
والكرك الى حـــدود طرابلس وجبلة واللاذقية وحمص وحمـــاة وما هنالك
من الاكراد والترك والعـــرب،وان يسعى على ازالة حكمه من حلب
ونواحيها وان يعيد الحكـــم السلطاني في البلاد المذكورة مـــن قواعدها
الى خوافيها . فلما جـــاء الامر المذكور وتُقَدِّر عنده الحكـــم المذكور
ارسل الى حكـــام العباد وراسل الامرا في سايـــر البلاد فاجتمعوا في
حماة وجعلها موطنه وُجِماه،وذهب هـــو ايضا اليها ونصب سرادقه عليهـــا.
ونهض علـــي بيك من حلب الى هناك وتقابلا وتقـــاولا وتجاولا ، ذاك
مع السكبانية الباغين وابـــنُ سيفا مع عساكر حضرة سلطـــان المسلمين ؛
فقدَّر اللـــه تعالى ان الكسيرة الكبيرة وقعت علـــى جانب عسكر السلطان،
وخرج سيف ابـــن سيفا من الاجفان ولكنه ما عـــاد اليها بعد الخروج،

وقد قبل قدم الخروج قبل الولوج ، ففر الى الشــام وما عرجوا على الخيام ، فبالهــا (١٥٠ أ) من كسرة ما وجدوا بعدهــا نصره ؛ فلما دخل علــي بيك الى مخيم الشاميين وابن سيفــا ورأى هناك سعادة وسلاحا ورمحا وسيفا، قوي مزاجه وعــزّ مع الغير امتزاجه فأرسل الــى ابن معن فخــر الدين يطلبه للاقبال اليه بعــد انكسار الشاميين. فاقبل اليه وورد عليه وكــان اجتماعهما عند منبع العاصي، وكــان ذلك رسما لاجتماع العصاة من الدانــي والقاصي ، فاتفق رأيهما أن يرســلا الى طرابلس عسكر (ا) يأخذها من يــد ابن سيفا واتباعه ؛ فعيّنا لذلك درويش بيك ابن عم علــي بيك مع جماعة لتفريق جيش ابــن سيفا بعد اجتماعه ، فبادر ابن سيفا الى الهرب من شــدة الخوف والرهب الى ركــوب السفينة بنفس لفراق وطنــه حزينة وأبقى قلعــة طرابلس حصينة بجيوش في ضمنها كمينة وجعل راسهــم مملوكه يوسف ، ودعا لــه بالحماية من موجبات التأهّف والتأسّف، واتخــذ سبيله في البحر سربــا وقضى الناس من فراقه لاوطانه عجبــا ، واخذ معه اموالــه الكثيرة وصحب محاسن امتعته العزيزة وســار معه غالب اهــل طرابلس من الرجال والنساء في مراكب متعددة وسفــن في البحر متبددة فأ (ما) سفينتــه التي سار فيها فقد جرّتها الريح الــى قبرص (٤٤) ونواحيها، ودخل الــى بعض مداين الجزيرة المذكورة ولم يجد ما رامــه عندما قدم عبوره فطــار في السفينة بأجنحة الشراع واقلع عــن ذلك الساحل بقوادم القلاع وســار الى الجانــب القبلي ماجيا ولم يلــو على طرابلس معرجا حتى خــرج من ساحل حيفــا (٤٥) من توابع اللجون (جاعت الجون) ولــم يسمع نصيحة

---

(٤٤) حــول تاريخ جزيرة قبرص في العهــد العثماني انظــر :

Hill, Sir George, A History of Cyprus, vol. iv, Cambridge University Press, 1952, PP. 1 - 99.

وكذلك المقالة : **Dakkot, Besim, "Kibris" I. A., vol. vi, PP. 672 - 76.**

(٤٥) حول النصــوص الجغرافية التي تذكر حيفــا انظر ما جمعه الاب مرمرجي الدومنيكي في بلدانية فلسطيــن ، بيروت ، ١٩٤٨ ، ص ٦٥ . في سنــة ٩٤٥ هـ / ١٥٣٨ م كان عدد سكان حيفــا عشرين خانة جميعهم من المسلمــين وربع حاصلاتها المدفــوع

اخوانه الذين في نصحه يَلِجّون. واما السفينة التي حملت امتعته المصونة واحتملت درره المكنونة فانها صارت للنصارى غُنْما ولكن بذهابها خسرانا وغرما، وكاد (جاعت وكان) يقتل وكيلها الذي اقامه عليها وجعله ناظرا وحافظا لديها ؛ والذاهب لا يعود والطالع المنحوس متمخِّضة للسعود. واما مَن سار من رجال طرابلس ونسائها في صحبة الامير ابن سيفا فانهم وُجَدوا بالأُسر حَتْفًا وليتهم لو تبعوه حتى قتلوا جميعا ، فاخذتهم النصارى وصاروا في قبضتهم اسارى، فكم عزيزة سارت في ايديهم ذليلة ومن مصونة اصبحت في قبضتهم بعد السعة ذليلة، وكم من عزيز في ايديهم قد ذَلَّ ومن عظيم قد احتُقِر بعد ما جَلَّ ؛ ولعمري انها كانت لفضيحة قبيحة ومصيبة اصابت لعدم قبول النصيحة . ثم ان الطاغية الذي أسر نساء اهل طرابلس الشام مكث في نواحي قبرس

- للدولة كان يساوي ٤٧٨١ اقجة . كما يشار الى وجود اسكلة (ميناء) فيها تتقاضى الدولة رسوما عن السفن التي ترده ، مقدارها الف اقجة سنويا ؛ والجدير بالذكر ان البحار العثماني بيري محي الدين ريس (ت ح ١٥٥٥ م) يشير في وصفه لساحل فلسطين الى وجود قلعة مدمرة في حيفا الا ان ميناءها كان يصلح للرسو ، وبموجب احصاءات سنة ١٠٠٥ هـ / ١٥٩٦ م ، كان عدد سكان حيفا ٣٢ خانة جميعهم من المسلمين ومجموع ما يتحصل منها عشرة الاف اقجة . الا ان هذا الاحصاء لا يشير الى رسوم الاسكلة مما قد يوحي بانها كانت معطلة كميناء . انظر طابو دفتري رقم ١٩٢ (اسطنبول) ، ص ٣ ، طابو دفتري رقم ١٨١ (انقرة) ، ص ١٩ — ٢٠ .

Heyd, U. "A Turkish Description of the Coast of Palestine in the Early Sixteen Century", Israel Exploration Journal, vol. vi, (1956), pp.210-211.

انظر ايضا : "Hayfa", E. I[2] . vol. iii, PP. 324 - 26.

راجع بالاضافة الى ما ذكر اعلاه جميل البحري ، تاريخ حيفا ، المكتبة الوطنية ، حيفا ١٩٢٢ م .

من اجل مقارنة حيفا مع كل من يافا والناصرة في القرن السادس عشر انظر مثلا :
Bernard Lewis : "Nazareth in the Sixteenth Century, According to the Ottoman Tapu Registers".
"Jaffa in the 16th Century, According to the Ottoman Tahrir Registers", in Studies in Classical and ottoman Islam Variorum Reprint, London, 1977, PP. 416 - 446.

كاسبا الآثام ، وشرع يبيع النسا لرجالها ، وينادي لكل فرقة وعيالها ، فبلغ الناس في النسا مبلغا عظيما وثمنا جسيما لكنْ مع الفضيحة الكاملة والحسرة الشاملة التي احرقت القلوب وعُظّمت الكروب ، وكان الرجل ينظر زوجته مأسورة ، ويرى جاريته منظورة والمنادي ينادي في كل نادي،فمنهم من يقدر على الفكاك ومنهم من يسقى من الإشراك في الأشراك،ومنهم من يُفكّ نفسه دون اهله فيذهب عنها وقد فقد نور عقله،فكم من بكر جميلة الصورة اصبحت في يد المشركين وهي مأسورة ، وكم من غلام يفوق البدر عند التمام ، وقد ناح عليه ابواه عند الفراق وذاب منهما الجسم بشديد الاحتراق،وذلك من اعظم المصايب واشدّ النوايب . واما ابن سيفا فانه خرج من البحر ضيفا عند الامير احمد (٤٦) ابن المرحوم الامير طرباي ابن الامير علي الحارثي،وهو الآن امير لواء اللجون (٤٧) فقام اليه مكرّما ولنزوله معظّما واظهر له ما يليق بأمثاله من اكارم الأُمرا وأُمرا الاكارم ، وابرز له ما يساوي

---

(٤٦) حول حياة الشيخ احمد بن طرباي الحارثي ، (ت ١٠٥٧ هـ / ١٦٤٧ م) ، امير لواء اللجون ودور اسرته في تاريخ سنجق اللجون بشمالي فلسطين منذ اواخر العهد المملوكي،انظر المحبي ، خلاصة الاثر ، م ١ ، ص ٢٢١ — ٢٢٢ . كذلك مقالة موشي شارون :

"The Political Role of the Bedouins in Palestine in the Sixteenth and Seventeenth Centuries", in Studies on Palestine during the Ottoman Period, edited by Moshe Maoz, Jerusalem, 1975, PP. 11 - 30.

كذلك دراستي : الأُسرة الحارثية في مرج بني عامر ٨٨٥ هـ / ١٤٨٠ م — ١٠٨٨ هـ / ١٦٧٧ م . المقدمة لندوة تاريخ العرب الحديث ، جامعة عين شمس ، القاهرة ، ٧ — ١٢ ايار ١٩٧٧ ، (تحت الطبع) .

(٤٧) حول لواء اللجون انظر دراستي المشار اليها سابقا خاصة هامش رقم ٢ ، ص ٢٥ . ولقد كان هذا اللواء يشمل النواحي التالية : شفا ، ساحل عتليت ، ناحية شعرا وناحية جنين ، لمزيد من التفاصيل انظر :

Wolf Dieter Hutteroth and Kamal Abdulfattah, Historical Geography of Palestine, Transjordan and Southern Syria in the late 16th Century, Erlangen, 1977, PP. 157 - 161.

البحار الزاخرة من المكارم ؛ والحال ان ابن سيفا طَلَع الى الامير المذكور وليس معه من جماعته سوى سبعة رجال على ما هو مشهور (١٥٠ ب) غير ان معه من الاموال مالا يدخل تحت الاحصا ولا يشمله الاستقصا ، وارسل علي بيك ابن جان بُلاد الى الأُمير احمد طَرباي رسالة تشتمل على ما معناه،انك يا امير احمد أجتَهِد في قتل ابن سيفا وجُرِّد في قتله وقتاله رمحا وسيفا ولك المال بأسره وتحزُّ لنا الراس نبادر بذلك فلا حرج عليك ولا بأس ، وان لم تفعل جوزيت منا بالعتاب او بغاية التعزير والعقاب . فاجاب بأن هذه كلمة لا تقال،ومَن وقع في مثل هذا فعثرته لا تُقال ، ليس ذلك من فعل الامرا ولا من شان الاعيان والكبرا ؛ كيف يكون ضيفي وينالـه رمحي وسيفي ؟ ثم انه بادر الى اهداء الخيول المسوّمة (٤٨) وتقديم الضيافات المثلّمة وقال له مرحبا بك يا امير واهلا بجودك الخطير ، لو كان لي مال لنَقَدْته اليك ووضعته بين يديك ، ولكن عندي خيول ليس لهـا مثيل ولا يتحاروها جواد ولا في التمثيل،وفيها جواد جيد قوي ايد جموح ابيّ ما علا ظهره احد بعد ابي ، وهو لك مني عطية راضية مُرْضيّة ليس فيها منّة عليك بل هي نعمة منك اليك ؛ ثم انه اضافه اياما عديدة وقدّم له ضيافة سديدة واكرم مثواه واجلّ ممشاهُ ؛ ثم انه ارسل الى عسكر الشام يطلبهم الى بلاد اللجون فساروا اليه ووردوا عليه ، فسار معهم على

(٤٨) يلاحظ انه عند عودة الامير فخر الدين المعني من ايطاليا،بفضل موافقة السلطات العثمانية سنة ١٠٢٧ هـ / ١٦١٧ م ، الى صيدا عبر عكا ، ان الامير احمد الحارثي « ارسل كتخداه بتقدمة الخيل ايضا التي ترتضيها الفرواة » ، راجع الشيخ احمد بن محمد الخالدي الصفدي ، تاريخ الامير فخر الدين المعني ، ص ٦٩ .

طريــق حوران (٤٩) ولـــم يسر على جُــبّ يوســـف (٥٠) وأرض كنعان (٥١) خوفـــا من الامير فخر الدين ابن معن فانـــه عَدُوّه وعند (٥) اصحاب الضرب والطعن ، فلمـــا دخل الى أرض الشام وجـــد أهلها في

---

(٤٩) في أواخر القـــرن السادس عشر الميـــلادي كانت حوران تشكل قضاء مـــن ضمن سنجق دمشـــق الشام ، وشمل هذا القضاء النواحي التاليـــة : ناحية البطيحة ، ناحية الجولان الغربـــي ، ناحية الجولان الشرقي ، ناحيـــة الكفارات ، ناحية بنـــي كنانـــة ، ناحية بنـــي جهمة ، ناحية بنـــي عاتكة ، ناحية بنـــي الاعسر ، ناحية جيدور ، ناحية بنـــي كلاب ، ناحية بني مالك الصـــدير ، ناحية بني مالك الاشراف ، ناحية البثنية ، ناحية بني عبد اللـــه ، ناحية بنـــي صرما ، ناحية بنـــي مقلـــد وناحية بنـــي نشبة،وليست نشية كما جاءت عنـــد Hutteroth انظـــر :

Bakhit, M. A. The Ottoman Province of Damascus in the 16th Century, Ph. D. Thesis, London, 1972, PP. 85 - 93, (in the press),

والملاحظ أن الاستـــاذ هوتروث يضيف ناحية أخرى هـــي ناحية بني عطية ، انظـــر هوتروث ، المرجع ذاتـــه ، ص ٢٠٤ — ٢٠٥ .

(٥٠) جـــب يوسف بالقرب من نابلس ؛ فيما يتعلق بهـــذا المكان انظر ما جمعه عنه الاب مورمرجي الدومنيكي ، بلدانية فلسطـــين ، ص ٤٩ — ٥٠ .

(٥١) أرض كنعان (الارض المنخفضـــة أو الغـــور) ، كانت في البداية تُطْلَق على بـــلاد الساحل ثـــم اتّسع مدلولها ليشمل بـــلاد سورية الجنوبية الغربية باكملها . الا ان مفـــهوم الجغرافيين المسلمين لهـــذه البلاد كان على الارجح يقتصر على الشمـــال الشرقي لبـــلاد فلسطين . يذكر ابو الفداء واديًا يُعْرَف بوادي كنعان فيـــه ضيعة تعرف باســـم كفرلا تبعد عن جـــب يوسف اثني عشر ميلا وانها بالقرب من بانياس . كما أن الشيخ صـــدر الدين ابـــا عبد اللـــه محمد بن عبد الرحمن الدمشقي الشافعي العثماني (ت ٧٨٠ هـ / ١٣٧٦ م) يذكر صفـــد بقوله « أما صفد نفسها فحصـــن منيع بقُنّة جبـــل كنعان » راجع ياقـــوت : معجم البلـــدان ، م ٤ ، ص ٢١١ — ٢١٢ ، أبـــو الفداء ، تقويم البلدان ، ص ٢٤٨ — ٢٤٩ ، ص ٢٧٠ — ٢٧١ .

Bernard Lewis, "An Arabic Account of the Province of Safad" BSOAS, vol. xv, (1953), P. 479.

فيما يتعلق بالمفـــهوم التوراتي لهذه البلاد ، انظـــر :

Smith George Adam, The Historical Geography of the Holy Land, New York 1907, PP. 4 - 5.

كذلك الخارطة رقـــم (٣) المرفقـــة بكتاب :

Yeivin, Sh.,The Israelite Conquest of Canaan, Nederlands Historishch — Archaelogisch Institute, Istanbul, 1971.

الخيام وهـــم في انتظار العساكر القادمة مـــن الأطراف لحصول الإسعاف منهم والاسعاف على ابـــن جان بلاط ومن معه من الاخلاط كابن حسن ويونس (٥٢) ابـــن الحرفوش،وكلّ من باطنـــه خاين مشوش ؛ فانهم لمـــا كسروا جيوش ابن سيفا على حماه حرس كـــلّ منهم بيت المغرور وحماه،وقصدوا طرابلس الشـــام فهتكوا حريمها ولم يبق لهـــا احترام، واقام بها درويش ابـــن حبيب ابن جان بلاط مـــدة يفسد فيها ومن معه من الاخلاط الـــى ان اصبحت قاعا صفصفا وما عفا عن اهلها ، فما نجي من ظلمه عفا ، لا سيّمـــا بيوت توابع ابن سيفا فانـــه قد اورثهم حيفا،اللهـــم الا قلعة طرابلس المحميـــة فانها نجت من حوادث البليّة،وما ذاك الا ان يوسف مملوك ابـــن سيفا حماها وحصّن ربعها وموطنهـــا وحماها ، وكان يلقي مـــن باطن القلعة المذكورة نيرانـــا محرقة يخرب بها بيوت اكابر طرابلس،لا سيمـــا بيوت التابعين لابن سيفا . ولمـــا وصل درويش ابن حبيب الى طرابلس الشـــام واوصل الى اهلها ما قدر عليـــه من التعدي والآلام ذهب علـــي بيك ابن عمه وابن معن الى نواحـــي بعلبك فأحرقوا ربضهـــا ونهبـــوا المدينة وما قدروا عليه مـــن قراها،وانحدروا راحلين الـــى ان استقرّوا في البقاع وانزلوها في الحنيش بعـــد البقاع. ولنذكر في اثناء هـــــذه الحكاية (التي) توجب غايـــة النكاية،وهي أن الامير موسى ابـــن الحرفوش امير الامراء ودار الاماجد الكبرا فخر بني حرفوش بالاتفاق؛ بل هو فخـــر امراء الشام على الاطلاق،كريم لا يباريه الغمام وعهـــد صادق العقدة في غايـــة الابرام وشجاعـــة فاقت على الاسود واصالت على كـــل ذي اصل يسود ، نهض من بعلبك وهـــو حاكمها الى نواحي حمص مستقبـــلا لابن جان بلاط وجيوشـــه ، مداراةً

---

(٥٢) جاءت في النص يوسف بـــن الحرفوش،والأصحّ كان اسمه يونس بـــن حسين بـــن موسى الحرفوش الذي اصبح « امين بـــلاد بعلبك » بدل عمـــه الامير موسى بن علي الحرفوش الذي كـــان ذا ميول سنّية،وتدخّل للصلح مـــا بين علي بن جانبلاط من جهة ومـــا بين يوسف باشـــا سيفا من جهة اخرى،الا انـــه فشل في مهمته وهرب مع يوسف باشا سيفا ؛ انظـــر البوريني ، تراجـــم الاعيان ، م ٢ ، ص ١٧٥ ، ايضا ورقـــة ١٤٨ ب ، ١٤٩ أ ، المحبـــي ، خلاصـــة ، م ٤ ، ص ٤٣٢ ـــ ٤٣٣ .

عن عرضه ومحاماة عن ارضه،فتحادثا وتقاولا وتشاوروا فيما صدر وتجاولا،فقال الامير موسى هلاّ تعطيني عهدا على الصلح به جرح الخراب يوسى ، وانا اذهب الى الشام وآخذ لك العهد الوثيق من الانام،فقال اذهب سليما وكن يا موسى كليما ؛ فحضر الى الشام ورمي من عسكرها بغاية الكلام لشدّة ما اوجعوه بغيظ الكلام ظنًّا من جهلائهم انه عليهم،وما كان الاّ ناويا سوق الخير اليهم ، (١٥١ أ) فلما حضر الى امير الامرا قال له بما قد جيئت على قدر يا موسى فجرِّدْ سيف عزمك لعلّه يُذهب البوسى،فقال يا امير الامرا : ابن جان بسلاط يطلب منك ان تعطوا حوران لعمرو (٥٢) البدوي من العرب المفارجة،والبقاع العزيزي لابن الفريخ (٥٤) منصور بن بكري،وأدخلوا

---

(٥٢) عمرو البدوي هو عمرو بن جبر شيخ عشيرة المفارجة ، حليف فخر الدين المعني ؛ كان رشيد بن سلامة بن نعيم شيخ السرديين من المفارجة ينافسه على المشيخة في حوران،وكان رشيد موضع عطف الدولة العثمانية ، حيث أعطي سنة ١٠٢١ هـ / ١٦١٢ م ، المشيخة بحوران • حول دورهما في معركة الصراع القيسي — اليمني ، انظر البوريني ، المصدر ذاته ، م ٢ ، ص ٢٢٤ — ٢٢٥ ، ص ٢٣٢ — ٢٣٣ ، انظر كذلك نص البوريني الموجود في مكتبة جامعة ليدن باسم : كراستان نُقِلَتا من خط الشيخ حسن البوريني Cod. or. 1515 ورقة ٤ أ ، حيث ان هذا النص يتفق مع النص الذي نشره صلاح الدين المنجّد في هامش ص ٢٢٥ من المجلد الثاني ، راجع ايضا الشيخ احمد الخالدي الصفدي ، المصدر ذاته ، ص ٨ ، ٩ ، ١٠ ، ص ١١ ، ص ١٣ .

(٥٤) الامير منصور بن الفريخ (ت ١٣ ربيع الثاني ١٠٠٢ هـ / ٦ كانون الثاني ١٥٩٤ م) قُتِل في دمشق بامر من السلطان بناء على رغبة والي دمشق آنذاك مراد باشا ، ولقد كان امير البقاع العزيزي بعد القضاء على اسرة آل الحنش البدوية السنية أعطي حكومة نابلس وامارة الحاج والتزم اموالا للدولة على صفد ، كان يقف ضد الدروز والمعنيين خاصة : ترك عشرة أولاد اكبرهم قرقماس الذي قُتِل على يد الامير موسى بن الحرفوش في ١٠٠٣ هـ / ١٥٩٤ م ، بايعاز من فخر الدين المعني بعد أن رفض الامير يوسف باشا سيفا ايواءه . من هنا نرى ان منصور بن الفريخ قد قُتِل قبل هذه الحوادث . ولربما اختلط الامر على الناسخ فخلط ما بين اسم ابن الفريخ واسم الامير فروخ بن عبد الله الجركسي امير الحاج الذي تولّى حكومة نابلس وعجلون والكرك سنة ١٠٢١ هـ / ١٦١٢ م ، وامارة الحاج • ولم يزل في هذا المنصب الى أن مات بمكة المشرفة في سنة ثلاثين والف

كيوان (٥٥) الى الشام كما كان ، واكتبوا عرضا بأن ابن جان بلاط لا يدخل الى ارض الشام ، وان ابن معن فخر الدين يؤدي ما عليه من مال السلطان، وبلاده موصوفة بالامان ؛ فعَقَدَ امير الأُمَرا ديوانا لهذه المطالب ، التي جاء الامير موسى وهو لها طالب ، فاتفقوا على ان حوران تعطى لعمرو ولكنْ في السنة القابلة، واما البقاع فان اعطاءه لمنصور المذكور غير معقول ، لكونه عند الرعايا غير مقبول ، وأما كيوان فانه يرجع الى الاوطان وعليه ما على الناس من الامان ، واليمين من جانبنا لازمة لجميع الاخوان وقد كنت حاضر (ا) في الديوان بدعوة من وكيل السلطان، فقال امير الامرا وهو الوكيل للفقير العليل : اكتب لنا صورة مكتوب الى ابن جان بلاط واخبره بما جرى عليه الاتفاق من قبول دخول كيوان والعفو عنه وعن ذنوبه، ومن وعده باعطا (جاءت باعطا) حوران ، لعمرو في السنة القابلة، ومن الاعتذار من عدم اعطا البقاع لمنصور بن الفريخ ابن بكري. وأخبِرْه بأن المحضر سيصل اليه بما طلب في حقّه وفي حقّ ابن معن . فلما انفض الديوان على ذلك وقع الاتفاق على ان يحضروا في اليوم الثاني الى بيت رجل من الجند الشامي يقال له تركمان (٥٦) حسن فاجتمع

= (١٦٢٠ م) • انظر احمد الخالدي الصفدي ، المصدر ذاته ، ص ٧ ، ص ٨ ، ص ٩ ، ص ١٦ ، ص ٢٧ ، ص ٣٥ ، الغزي ، لطف السمر ، ورقة ٢١٢ ب — ٢١٣ أ ، المحبي ، المصدر ذاته ، م ٣ ، ص ٢٧١ ، م ٤ ، ص ٤٢٦ — ٤٣٢ .

(٥٥) كيوان بن عبد الله (ت ١٠٣٣ هـ / ١٦٢٣ م) ، زعيم الجناح العسكري بدمشق المتعاون مع فخر الدين المعني ، كانت نهايته على يد فخر الدين نفسه • حول دوره في معركة الصراع ما بين العسكر في دمشق واستغلال العسكر للصراع القيسي — اليمني في صراعهم ذاك ، انظر الغزي ، لطف السمر ، ورقة ٤٢ ب — ٤٤ أ ، ب ، المحبي ، المصدر ذاته ، م ٢ ، ص ٢٩٩ — ٣٠٢ .

(٥٦) تركمان حسن المقصود به حسن باشا ابن عبد الله الامين الكبير المعروف بشوربزة حسن من صدور دمشق واعيانها الذي كان يرجع اليه في المهمّات ويعول عليه في الامور، وكانت تناط به أمور دمشق عند غياب ولاتها . توفي سنة ١٠٢٧ هـ/ ١٦١٧م. احتلّ ابنه محمد دورا مماثلا الى حين وفاته سنة ١٠٧١ هـ / ١٦٦٠م • حول حياتهما انظر ، الغزي ، لطف السمر ، ورقة ٢٩ ب ، ٣٠ أ ، المحبي ، المصدر ذاته ، م ٢ ، ص ٢٤ — ٢٧ ، م ٣ ، ص ٤٢٧ — ٤٢٨ .

الجند كلّه في بيـت الجندي المذكور ما عـدا الوكيل الاكبر عن السلطان وقاضي القضاة فانهما مـا حضرا ولا استحضرا.فوقـع الاتفاق على كتابة مكتوب مرغوب خطابا لعلـي بيك ابن جانبلاط بما سبق مـن الاتفاق، وعلى كتابة ديباجـة محضر بأن المذكور مـا وطىء ارض الشام،وان ابن معن يوصل مـال السلطان في محله ، وبلاده آمنـة الطرقات . فأما المكتوب فقد كَتَبْتُـه وخَتَمَه اعيان الجند،وامـا المحضر فانه عرض على الشيخ محمـد بن سعد الدين (٥٧) فما قبل معناه ولا رضـي بفحواه، وابرق وارعد وما وعد ، بل توعد و (قال) انا انا لا اكتب هذا ولا ارتضيه ولا اقبله ولا امضيـه ؛ فرجع الامير موسى الـى ابن جانبلاط بغير المـراد ، فعند ذلك قال ابـن جان بلاط ما يظهر مقامي عند جنـد الشام الا باظهار البرهان ، واظهـار السيوف البارقة والخرصان (٥٨).وقـام من يومه قاصدا بلاد بعلبـك وبلاد البقاع،وتخريب الاماكن والبقاع ؛ وامـا الامير موسى ابـن الحرفوش فانه استمر هاربا مـن ابن جانبلاط الى دمشق، فاخبرهم بأنه ترك الجماعـة قصدا للموت على الطاعة ، واقتضـى حضوره الى دمشـق حضور جند ابن جانبـلاط وحشرات ابن معن الى بعلبك فنهبوهـا ، والى من بقي من النسـا والرجال ففرَّقوها ، وخيَّم ابن جان بلاط وابـن معن في البقاع العزيزي ، وانحاز اليهم يونس بـن الحرفوش ومن معه من اولاد عمـه مغاضبا لحضرة الامير الكبـير ذو القدر الخطير الامـير موسى ابن عم يونس المذكـور ، وخرج الجنـد الشامـي الى الميـدان الاخضر بدمشق وخيّموا هنـاك،واستحضروا سنجق القـدس وسنجق نابلس وسنجق غـزة وسنجق اللجون وسنجق

---

(٥٧) الشيخ محمـد بن سعد الدين الجباوي (ت ١٠٢٠ هـ / ١٦١١ م) ، شيـخ الطريقة الجباوية بدمشق كـان ملّاكا كبيرا ، وكان يتوسط لـدى الحكام نيابة عن الرعية خاصة عنـد زيادة الضرائب.لمزيـد من التفاصيل حول حياته راجـع البوريني ، المصدر ذاتـه ، م ١ ، ص ٣٠٥ — ٣٠٦ ، الغزي ، لطـف السمر ، ورقة ٦ ب — ٧ أ ، المحبي ، المصدر ذاتـه ، م ٤ ، ص ١٦٠ — ١٦١ .

(٥٨) خرصان : جاءت خرصاز ،٠امـا الخرصان فهي الرماح ، انظر لسـان العرب ، م ٧ ، ص ٢١ — ٢٤ .

عجلون،واما صمد فانها كانت مع فخر الدين بن معن وهو كان مع المخالفين الخارجين.ولم تزل الجند تتزايد في دمشق، وكذلك عسكر الخوارج فانه ايضا كان يزيد.وترددت الرسل في الصلح من الجانبين فما حصل اتفاق،واختلفت آراء الجند الشامي فمنهم من كان يميل الى الصلح ومنهم من كان يميل الى القتال،حتى ان ابن جان بلاط ارسل من خوارجه جماعة الى دمشق (١٥١ ب) يطلبون الصلح فما رضي بذلك راس جاويشة العسكر الدمشقي،وهو محمد الشهير بابن الدزدار (٥٩) وخرج العسكر الشامي من الميدان الاخضر الى مكان يسمى العراد (٦٠) وزحف ابن جان بلاط وابن معن ومن معهم الى مقابلة العسكر الشامي، ومع ذلك ايضا فان ابن جان بلاط كان يُظهر إرادة الصلح،فما وافق على ذلك ابن الدزدار المذكور ومن تبعه من الجند الشامي ؛ والقدرة غالبة ويد الله غالبة . وفي أواسط جمادى الآخرة من شهور سنة خمس عشرة بعد الالف زحف الفريقان،ووقع بينهما القتال، فما كانت ساعة أو قريب من ساعتين واذا بالعسكر الشامي قد رعب فهرب ، مع كثرة عدده ووفور عدده.وبالله لقد اخبرني من راى الفريقين ان خيل اهل الشام حزرت فكانت تناهز اربعين الف فرس،وكانت عددهم وآلة (جاءت الت) حربهم في غاية القوة والمتانة،ولكنّ جند الله غالب وقدره سالب ؛ ولما هرب اهل الشام انقسموا فرقتين،فواحدة ذهبت الى اذرعات (٦١) في اواخر ارض حوران هربا من ابن جان بلاط

---

(٥٩) لم اعثر له على ترجمة في المصادر المتوافرة لدي .

(٦٠) العراد تقع الى الجنوب الغربي من دمشق .

(٦١) أذرعات ، كانت في العهد الفاطمي كما نقل ابو الفداء عن حسن بن احمد المهلبي (ت ٣٨٠ هـ / ٩٩٠ م) صاحب كتاب المسالك والممالك المعروف بالعزيزي ، « مدينة كورة البثنية » ؛ ويذكر ياقوت انها « بلد في اطراف الشام يجاور أرض البلقاء وعمان،ينسب اليه الخمر ».في القرن السادس عشر كانت تقع في ناحية بني مقلد،وتذكرها دفاتر الطابو باسم « قرية مدينة اذرعات » وانها كانت خاص ميرميران . بلغ عدد سكانها حوالي سنة ٩٣٠ هـ / ١٥٢٢ م ثماني عشرة خانة مسلمة ، ليرتفع عدد سكانها حوالي سنة ٩٥٠ هـ / ١٥٤٣ م ، الى ثمان واربعين خانة مسلمة وخمسة مجردين وخانة مسيحية واحدة ،

وابن معن،واخـــرى رجعت الى الشام.والراجعة الى الشـــام قسمان، القسم الاول ســـاروا متفرقين مشتتين،والقســـم الثاني مكثوا في دمشق محاصرين،وغلقـــت الابواب وتهيأ من بهـــا للحراب؛فقصدها حزب العدوّ ونهبوا ما كـــان خارج السور من المســـاجد والخانات والاسواق والدور ، وانبثّ الخوارج الأشقيـــا في البيوت الواقعة خارج دمشـــق،واخذوا الأسباب عـــن آخرها الا قليلا تَخبّوا تحـــت الارض،وأسروا كثيرا مـــن الاولاد وتحاموا الحريم مـــن النسا ؛ وذهب ابن سعد الديـــن الشيخ محمـــد الى ابن جان بلاط وهـــو نازل على قرية المِـــزّة (٦٢) فما قابله بالمزة ، وطلب منـــه حاميا يحمي محلّته المعروفة بالقبيبات (٦٣) فاعطاه

= انظـــر : ياقوت ، معجـــم البلدان ، م ١ ، ص ١٧٥ — ١٧٧ ، ابـــو الفداء ، تقويم البلدان ، ص ٢٥٢ — ٢٥٣ ، طابـــو دفتري ٤٣٠ (اسطنبـــول) ، ص ٥٥٥ ، طابـــو دفتري ٤٠١ (اسطنبـــول) ، ص ٦٧٠ .

(٦٢) المـــزة بالكسر ثم التشديد .. وهي قريـــة كبيرة غناء في وســـط بساتين دمشـــق ويقال لها مـــزة كلب . كان عدد سكانها في النصـــف الاول من القرن السادس عشر على النحـــو التالي :

طابو دفتري رقم (٤٠١)	طابو دفتري رقم (٢٦٣)
(ح ٩٥٠ هـ / ١٥٤٣ م) اسطنبول	(٩٥٥ هـ / ١٥٤٨ م) اسطنبول
(١٥٠) خانـــة مسلمة	(٢٦٢) خانـــة مسلمـــة
(٣٥) مجـــرد مسلـــم	(————)
(١) خانـــة مسيحية	(٢ خانـــة مسيحية)
طابو دفتري رقم (٤٠١) ص ٦٠ — ٦١	طابو دفتري رقم (٢٦٣) ص ١٨٢ — ١٨٥

ياقوت ، معجـــم البلدان ، م ٤ ، ص ٥٢٢

(٦٣) القبيبات : يعرّفها الشيخ محمـــد احمد دهمان بانها « محلة مشهورة في الميـــدان قرب الجامع الكريمي « جامع الدقاق »،سميت بذلك لان اكثر بيوتهـــا ذات قباب ولا يزال بعضها باقيـــا الى الآن ».انظر القلائـــد الجوهرية في تاريخ الصالحيـــة لابـــن طولون ، م ٢ ، تحقيـــق الشيخ دهمان،دمشـــق ١٩٤٩ ، ١٩٥٦ ، م ١ ، ص ١١٠ (الهامش) . كان عـــدد سكان هذا الحي بموجب دفاتـــر الطابو على النحـــو التالـــي :

طابو دفتر (٤٠١)	طابو دفتري (٢٦٣)	طابو دفتري (٤٧٤)
(ح ٩٥٠ هـ / ١٥٤٣ م)	(٩٥٥ هـ / ١٥٤٨ م)	(٩٧٧ هـ / ١٥٦٩ م)
(٢٧٢) خانـــة مسلمة	(٢٧٩) خانة مسلمة	(٣٩٨) خانة مسلمة
(٦) مجـــرد	(٦) مجـــرد	(١٢) مجـــرد
ص ٤٤ — ٤٥	(١) خانة مسيحية	(١) خانة مسيحية
	ص ٤٢ — ٤٨	ص ٧٢ — ٧٩

رجلا من السكبانية يقال لــه عقيل فمكث عنده حاميا بيتــه وحده ، ولم يَحْم بيتــا من القبيبات سوى بيته.على ان بيته قــد اخذ منه ذيله وبقاله ودوابه وغالب مالــه النقد،فكان الحامي يحمي لنفسه . اما اهـل القبيبات فقد غُدِروا من شيخهــم المذكور لانه قال لهم من رفع يـده للقتال كان من المقتولين ، فألقــوا سلاحهم وظنوا انهم يُرْحَمون بترك قتالهـم،فما كان القاء السلاح الا سببـا لخراب الديار وعدم حماية الذمـار ، فاجتمع عليهم الذلّ والجبن ونهبُ المــال وبعض الاولاد،واللــه تعالى ينتقم من اهل الغرور والعنــاد ؛ واستمرّ النهب في المحــلات الخارجة عن سور دمشق ثلاثة ايـام ولم يبقوا صامتا ولا ناطقا ولا ولــدا صغيرا من اهل الاسلام،وما نجــا سوى اهل محلة الشـاغور (٦٤) فانهـم حاربوا الخوارج خارج السور وقتلــوا منهم ما يزيد علي ثلاثين رجـلا بالخصوص،وقد قتل من الخوارج في الايــام الثلاثة في نواحي بساتين دمشق وعلــى ابوابهـا وبين بيوتها ما يقرب من الفــي رجل ، وغالب القتل كان من شباب دمشــق واحداثها . واما ابن سيفا فانــه ما خرج مع العسكر الشامي الى القتــال،فاستمرّ محتجبا في البيوت مع النسـا لا الرجال زاعما انــه مريض؛فلما بلغته كسر العسكر خاف وعَمّ اعضاه الارتعاش

---

(٦٤) الشاغور ، احـد الاحياء الخارجية لمدينـة دمشق ، تذكر دفاتـر الطابو الشاغور البرانـي والشاغور الجواني.وكان عـدد سكانها كما يلي :

ا ـــ الشاغور البرانـي

طابو دفتري (٤٠١)	طابون دفتري (٢٦٣)	طابو دفتري (٧٤)
(٥٥٩) خانة مسلمة	(٤٣٦) خانة مسلمة	(٥٣٦) خانة مسلمة
(٤٢) مجـرد	(ـــــــ)	(١٧) مجرد مسلم
(٢) خانة مسيحية	(ـــــــ)	(٤) خانة مسيحية
ص ٢٦ ـــ ٢٩	ص ٨٢ ـــ ٨٨	ص ٦٢ ـــ ١١٠

ب ـــ الشاغور الجوانـي

طابو دفتري (٤٠١)	طابون دفتري (٢٦٣)	طابو دفتري (٧٤)
(٢٢٧) خانة مسلمة	(٢٦١) خانة مسلمة	(٢٢٠) خانة مسلمة
(٣٠) مجرد مسلم	(١٩) مجرد مسلم	(٨) مجرد مسلم
(٦) خانة مسيحية	(٤) خانة مسيحية	(٢) خانة مسيحية
(١٣) شريـف	ص ٨٨ ـــ ٩٢	ص ٨٧ ـــ ٩٢
ص ٢٩ ـــ ٣٢		

فوزن لقاضي دمشق وبعض اعيانها ما يزيد على مائة الف غرش،وهي التي كانت سببا لخلاص المدينة من حصار ابن جان بلاط وابن معن؛ وذلك انه اعطى المال المذكور وفتحت له ابواب دمشق ليلا ونجا براس حمراء،ونجا وخرج مع البازي عليه سواد وسار معه بعض الجند الشامي،وسار معه ايضا المرحوم الامير موسى ابن الحرفوش؛ولم يزالوا معه حتى وصل الى حصن الاكراد (٦٥) واستحصن به لانه كان محافظا مع عمه الامير محمود ابن سيفا.وقبض ابن جان بلاط المال (١٠١٥ ؟) الذي اعطاه ابن سيفا ورحل عن دمشق بعد الايام الثلاثة، وذهب متوجها الى نواحي حلب،وسيشرب في مجلسه ما جلب وحلب. والقصة تتمة مفيدة تذكر ان شاء الله تعالى في هذا الكتاب بالخصوص لانها مشروحة في فصل بها مخصوص،والله اعلم .

---

(٦٥) يذكرها ياقوت في معجمه بقوله « حصن الاكراد على الجبل المقابل،وهو بين بعلبك وحمص.وكان بعض أمراء الشام قد بنى في موضعه برجا وجعل فيه قوما من الاكراد طليعةً بينه وبين الفرنج،واجرى لهم ارزاقا فتدبروها باهاليهم ثم خافوا على أنفسهم في غارة فجعلوا يحصنونه الى ان صارت قلعة حصينة منعت الفرنج من كثير من غاراتهم،فنازلوه فباعه الاكراد منهم ورجعوا الى بلادهم. وملكه الافرنج وهو في ايديهم الى هذه الغاية.وبينه وبين حمص يوم ولا يستطيع صاحبها انتزاعها من أيديهم.ويذكر أبو الفداء انه كان مقرّ ولاية السلطنة قبل فتح طرابلس . أما القلقشندي فيذكر انه احدى نيابات مملكة طرابلس الشام ونيابته امرة عشرة ورسم المكاتبة للنائب « النائب بحصن الاكراد ».ياقوت ، معجم البلدان ، م ٢ ، ص ٢٧٦ ، ابو الفداء ، كتاب تقويم البلدان ، ص ٢٥٩ ، القلقشندي ، صبح الاعشى ، م ٤ ، ص ٨٥ ، ٢٣٥ ، م ٧ ، ص ١٧٦ . راجع المادة التي أوردها عز الدين بن شداد (ت ٦٨٤ هـ / ١٢٨٥ م) . عن حصن الاكراد في كتابه "الاعلاق الخطيرة في ذكر امراء الشام والجزيرة"، تحقيق سامي الدهان ، منشورات المعهد الفرنسي ، دمشق ، ١٩٦٢ ، الجزء المتعلق بلبنان والاردن وفلسطين ، ص ١١٥ — ١٢٠ .

انظر كذلك :

Elisseeff, N., "Hisnal-Akrad" E. I. vol. III, PP. 503 - 506.

التقريـــر السنـــوي الاول

لمجمع اللغـــة العربية الاردني لعـــام ١٩٧٧ م

اولا : ـــ الخطـــوات التاسيسيّـــة

صدر قانون مجمـــع اللغة العربية الاردني رقـــم (٤٠) لسنة ١٩٧٦ م في عـــدد الجريدة الرسمية رقم (٢٦٣٤) تاريخ ١٩٧٦/٧/١ م .

وفي اليوم الأول مـــن شهر تشرين الأول سنة ١٩٧٦ بـــدأ المجمع بخمسة اعضاء ، عَيَّنهـــم مجلس الوزراء ، بنـــاءً على تنسيب من وزير التربية والتعليم ، وفقـــاً للفقرة (ب) من المـــادة (٢٠) من القانون المذكور ، فكانوا هـــم النواة لمجلس المجمع ، والمكتـــبَ التنفيذيَّ الأول لـــه . واقترنَ قرار التعيين هـــذا بالارادة الملكية الساميـــة .

وعَقَد مجلسُ المجمـــع اجتماعه الأول برئاسة وزير التربية والتعليم ، وانتَخَب رئيسا لـــه ، ونائبا للرئيس ، ونسب الى السيد الوزير تعيين امين عـــامّ للمجمع : فكان الدكتور عبـــد الكريم خليفة رئيسا للمجمع ، والدكتـــور محمود السمرة نائبـــا للرئيس ، والدكتور محمود ابراهيم والدكتور سعيد التـــل عضوين . وصَدَر قرار وزيـــر التربية والتعليم بتعيين الأستاذ عيســـى الناعوري امينا عامـــاً للمجمع .

وصـــدرت الارادة الملكيـــة السامية بتعيين الدكتور عبـــد الكريم خليفة رئيســـا للمجمع .

هـــذه كانت الخطوات الأولـــى والاساسية لتاسيس المجمـــع ؛ وهو المجمع الرابع في العالـــم العربي ، بعد مجمع دمشـــق ، ومجمع القاهرة ، ومجمـــع بغداد . والقانون رقم (٤٠) لسنـــة ١٩٧٦ م

اهداف المجمع في المادة (٤) منه ، كما يحدد في المادة (٥) الوسائل التي يحقق بها المجمع هذه الاهداف .

ثانيا : ــ مقرّ المجمع وانتظام العمل

من ١٩٧٦/١٠/١ م الى ١٩٧٧/٧/١ لم يكن للمجمع مقر خاص به ، يستطيع أن يمارس فيه عمله بانتظام وفعالية . وكان يامل ان يكون مقرّه المبنى القديم لمجلس الأمّة ، فهو خير مكان يمكن ان يصلح المجمع . ومن اجل ذلك قام رئيس المجمع بمقابلة دولة رئيس الوزراء ، ثم تشرّف الرئيس وأعضاء المكتب التنفيذي بمقابلة جلالة الملك المعظم . وقد تفضّل جلالته بابداء اهتمامه الكريم بالمجمع ، وبرسالته السامية ، وقال جلالته انه يمنح المجمع دعمه المطلق ، ووعد جلالته بدراسة موضوع المبنى القديم للمجلس .

وخلال هذه الفترة لقي المجمع من الجامعة الاردنية رعاية مشكورة ، ومساعدات ثمينة سهّلت له ممارسة المهمّ والضروري من اعماله : فكان المكتب التنفيذي ومجلس المجمع يعقدان اجتماعاتهما في رحاب الجامعة ، كما كان قسم كبير من اوراق المجمع ومَحاضِر جلساته يُطبَع ويُسْحَب على الآلة الناسخة في الجامعة نفسها ، وبوسائل الجامعة ، وبواسطة بعض موظفيها .

وفي ١٩٧٧/٦/١ وقع اختيار المجمع على مبنى مناسب في جبل الحسين ، فاستأجره بمبلغ (عشرة آلاف دينار سنويا) . ومضى يؤثثه بالعاجل الضروري من الأثاث لضمان انتظام عمله ، كما عَيَّنَ المجمع ثلاثة موظفين : واحدا للمحاسبة واللوازم ، وواحدا لاعمال الديوان ، والثالث كاتب لوازم ويساعد الاثنين ؛ وعُيِّن كذلك اثنين من الأذنة ؛ وطُبِعَت اوراق ومغلّفات وملفّات خاصة بالمجمع . ولم يستكمل المجمع اثاثه ولوازمه بعد .

وانتظم العمل في مَقرّ المجمع ابتداء من ١٩٧٧/٧/١ ، واخذ المكتب التنفيذي ومجلس المجمع يعقدان جلساتهما في المقرّ الجديد .

وقد انضمّ الى عضوية المجمـــع ستة اعضاء في بادىء الامــر ، وعضوان بعد ذلك ، نسَّبهم مجلس المجمـــع ، وصدرت بتعيينهم ارادة ملكية سامية ؛ فاصبح عـــدد اعضائه الآن ثلاثـــة عشر عضوا .

ثالثا : ــ موازنـــة المجمـــع

خـــلال الأشهر الثلاثة الأولى من تاسيس المجمـــع ــ وهي الأشهر الثلاثة الاخيرة من العام المـــالي ١٩٧٦ ــ حُوِّلَت مخصصات لجنة التعريب والترجمـــة والنشر من وزارة التربية والتعليـــم الى مخصصات المجمـــع . وقد بلغت تلك المخصصات (١٤٫٣١٤٫٧٥٠) أربعـــة عشر الفـــا وثلاثمئة واربعة عشر دينـــارا وسبعمئة وخمسين فلســـا .

وفي العام المـــالي ١٩٧٧ قرَّر مجلس الوزراء تخصيص اعانـــة سنوية للمجمع فـــي الموازنة العامة مقدارها (٦١٫٠٠٠) واحـــد وستون الـــف دينار ، تَسَلَّمها المجمع من وزارة المـــالية على اربع دفعات ، قيمة كل منها (١٥٫٢٥٠) خمسة عشر الفـــا ومئتان وخمســـون دينارا .

وتَلقَّى المجمـــع ، بفضل مؤازرة العضو الدكتور محمد سعيد النابلسي ، محافـــظ البنك المركزي ، تَبرُّعًا مـــن البنوك المحلّية بمقدار (٩٫٨١٢٫٥٠٠) تسعـــة الآف وثمانمئة واثنـــا عشر دينارا وخمسمئة فلـــس .

وعند إعداد الموازنـــة ، في اواخر عـــام ١٩٧٦ ، العام المـــالي ١٩٧٧ ، طَلَب المجمـــع رصد مبلغ (١٠٠٫٠٠٠) مئـــة الف دينار لبنـــاء مقرّ لـــه ، فلم يُرّصَد المبلغ في الموازنـــة .

وهكذا تأخَّر بنـــاء مقرّ المجمع ؛ وسيعاد طلب رصد هـــذا المبلغ للعام المـــالي القادم . وقد قام رئيس المجمـــع اخيرا ، مع عضو المجمع الدكتور اسحَق فرحـــان ، بمقابلة دولة رئيس الـــوزراء ، وحدثاه في موضوع البنـــاء،فوعد دولته بالاهتمام بـــه .

رابعا : — اعمال المجمع ومشاريعه

١ — رغبة في انتظام العمل في المجمع ، قام المكتب التنفيذي بوضع مشاريع الأنظمة التالية : استنادا الى الفقرة (د) من المادة (١٢) من قانون المجمع :

أ — النظام المالي .

ب — نظام الموظفين والمستخدمين .

ج — نظام اللوازم .

د — نظام علاوات الانتقال والسفر .

وقد رُفِعَت هذه المشاريع بواسطة وزير التربية والتعليم الى مجلس الوزراء لاقرارها ، فأُحيلت الى ديوان التشريع ؛ وقام الديوان بدراستها واعادة صياغتها ، ثم اعيدت طباعتها بصيغتها النهائية التي أقرَّها ديوان التشريع . ولكنَّ هذه الانظمة لم يتمّ إقرارها بعد في مجلس الوزراء رغم مضيّ بضعة اشهر على رفعها اليه .

وفي المقابلة التي تمَّت اخيرا بين دولة رئيس الوزراء ورئيس المجمع ، والدكتور اسحق الفرحان ، جرى البحث في موضوع الأنظمة المتأخرة ، واهميتها بالنسبة الى انتظام عمل المجمع . فوعد دولته بالعمل السريع على اصدارها .

وقد أعَدَّ المكتب التنفيذي كذلك عددا من مشاريع التعليمات الداخلية التنظيمية ، وهي تنتظر صدور الانظمة المذكورة آنفا لكي توضع موضع التنفيذ .

٢ — من اهم المشاريع التي انصرف اليها المجمع مشروع تعريب التعليم العلمي الجامعي . وقد ناقش هذا الموضوع في ثلاثة اجتماعات من اجتماعات مجلس المجمع ، كما بحثه في اجتماعات اخرى من اجتماعات المكتب التنفيذي .

وقد قـدَّم الدكتور احمـد سـعيدان مذكرة اقترح فيها اسماء عدد من الكتـب الممكن الشروع في ترجمتهـا ، واقترح كذلك اسماء المترجمين ، وقـدَّر تكاليف الترجمة . فوافـق عليها مجلس المجمع ، كما عَرَض الامـر على جامعة اليرموك لمعرفـة رأيها ، فأيَّدت المشروع ، ووعدت بالمشاركـة في الترجمة . ويرجى الشروع في الترجمة قريبا ، بالتعاون مـع الجامعة الاردنية وجامعة اليرموك ؛ ونأمل ان نجـد تعاونا كافيا من سائر الجامعـات العربية ، لكي تصبح اللغـة العربية في وقت قريب لغـة التعليم العلمي الجامعي في العالم العربـي بأسره .

٣ ـ وتعاوَنَ المجمـع كذلك مع الجامعة الاردنيـة ، ولا سيَّما كلية التربية فيهـا وعمادة البحـث العلمي والدراسات العليـا في الجامعة ، لانجـاز مشروع حصر المفردات المستعملة فـي المرحلة الابتدائية . وقد تـمَّ المشروع في وقت قصير ، وأُرسِلَـت الاوراق كاملة الى الجزائـر ، حيث يتمّ الاشراف علـى تنسيق المشروع بأكمله في العالـم العربي . وقد أَشْرَف على انجاز هـذا المشروع الأُستاذ عبد اللـه عويدات ، من كلية التربية في الجامعة الاردنية ؛ وكان تمويل المشروع مـن الجامعة نفسها ، في حين منح المجمع مكافأة ماليـة للمشرف على المشروع مقدارها مئـة دينار .

٤ ـ ورغبةً في المسـاعدة على تعريب المصطلحات في دوائر الدولـة ومؤسسـاتها ، كتب المجمـع الى جميـع الوزارات والدوائـر والمؤسسـات الاردنية لتزويده بما لديها مـن مصطلحات اجنبية ، ليقوم بتعريبها ، والاتفاق بعدئـذ مع المجامع العربيـة الاخرى على توحيد مصطلحاتها في جميـع البلدان العربية . وقـد استجاب لهـذه الدعوة عدد مـن الوزارات والدوائر ؛ وسيعهد المجمـع قريبا الى لجنـة المصطلحات بتولّي هـذه العملية بالتعاون مع الدوائـر المعنيّـة .

٥ — ومن أهم المشاريع التي يعمل المجمع الآن جاهداً لأجل تنفيذها اصدار مجلة باسم (مجلة مجمع اللغة العربية الاردني) لان هذه من الدعائم المهمة التي يقوم عليها المجمع ، ويؤدي عن طريقها رسالته العلمية واللغوية . ويأمل المجمع ان يصدر العدد الاول منها قبل نهاية العام الحالي[1] . ومن اجل ذلك طلب المجمع الى جميع اعضائه ، والى المجامع الشقيقة ، المساهمة في تغذية المجلة بالبحوث والدراسات.

٦ — تلقى المجمع عدة دعوات من المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، ومن المجامع الشقيقة ، وبعض الجهات الثقافية الاخرى ، وشارك في المؤتمرات والمناسبات الثقافية التالية :

أ — مؤتمر التعريب الثالث في طرابلس / ليبيا .

ب — مهرجان مجمع دمشق بمناسبة مرور مئة عام على مولد مؤسسه الرئيس محمد كرد علي .

ج — مؤتمر الدراسات العربية والايطالية في البندقيه وفي باليرمو / ايطاليا ١٩٧٦ .

د — تأبين المرحوم خير الدين الزركلي في دمشق .

هـ — حفلة استقبال الاستاذ احمد راتب النفاخ بمناسبة انتخابه عضواً في مجمع دمشق .

و — مؤتمر الدراسات الايطالية / العربية في ايطاليا ، ١٩٧٧ .

وسيشارك أعضاء من المجمع كذلك في مهرجان ابن رشد في الجزائر في ربيع العام القادم ، وفي مؤتمر التعريب الجامعي في بغداد ، في هذا العام .

٧ — اصبح المجمع عضواً في اتحاد المجامع العربية . وهذا يتيح له المشاركة الفعالة في اعمال المجامع العربية ، وفي تنسيق العمل معها .

(١) كتب هذا التقرير وقدم لمجلس المجمع في ٣٠ ايلول / سبتمبر ١٩٧٧ .

٨ ـ ألّف المجمع ستّ لجان دائمة للمساعدة على سرعة انجاز اعماله وهي :

١ ـ لجنة الاصول .

٢ ـ لجنة التعريب والمصطلحات والمعاجم .

٣ ـ لجنة التراث .

٤ ـ لجنة الترجمة .

٥ ـ لجنة المجلّة والمطبوعات .

٦ ـ لجنة المكتبة .

وبهذه اللجان يستطيع المجمع ان يطمئن الى انتظام العمل فيه ، والى انه يستطيع ان يمضي في تحقيق غاياته بخطى ثابتة ، آملا ان يجد الدعم الكافي من الدولة والمؤسسات الوطنية ، ليكون عمله مثمرا وفعالا في خدمة اللغة العربية ، والنهضة الثقافية في الاردن والعالم العربي ، باذن الله .

والمجمع يعلم ان المكتبة من اهم الدعائم التي يقوم عليها عمله ، وهو لذلك مهتم كل الاهتمام بتزويد مكتبته بالموسوعات والمعاجم والمراجع العلمية التي تهيىء له اسباب العمل الناجح المثمر .

ولقد كان المجمع يودّ ان يمضي في تنفيذ بعض مشاريعه الأخرى ، سيما اقامة موسم ثقافي للندوات والمحاضرات الفكرية ، مشاركة منه في حركة الثقافة الاردنية ، غير ان تأخُّر استقراره في مبنى خاصّ به ، وتأخُّر صدور انظمته ، عاقاه عن ذلك . وهو يرجو ان يكون العام القادم ، احفل بالنشاط المثمر ، ان شاء الله .

نـدوة المجمع الثقافيّـة الأُولى

الموضوع : ـ **اسباب الضعف في اللغة العربية**

عُقد مجمع اللغة العربية الاردني ندوتـه الثقافية الاولى في مقرّه في جبل الحسين الساعة الرابعة من بعد ظهر يوم الاحد ١٩٧٧/١٢/١٨ م. الموافـق ١٣٩٨/١/٨ هـ. وكـان موضوع الندوة (اسباب الضعف في اللغـة العربية) . وقد ادارها رئيس المجمـع الاستاذ الدكتور عبـد الكريم خليفة ، واشترك معـه فيها كلٌّ من عضو المجمـع الاستاذ الدكتور محمود ابراهيـم ، والدكتور نصرت عبـد الرحمٰن ، من اعضاء الهيأة التدريسية في قسم اللغـة العربية في كلية الآداب ، في الجامعة الاردنية . وحضر الندوة عـدد من اعضاء المجمـع ، ونخبة من المهتمين باللغـة العربية ، والكُتّـاب الأُردنيين ، ومن العاملين في مديرية التربيـة في محافظـة عمـان .

استهلَّ الدكتور عبـد الكريم خليفة الندوة بالاشـارة الى أن هناك مشكلة حقيقية تستدعي الاهتمـام والمناقشة ، وهي مُشْكلـة الضعف العام في اللغـة العربية ؛ فعلى الرغم من انتشـار التعليم في العالـم العربي بشكل واسـع ، لا يزال خرّيج الدراسـة الثانوية ، في الغالب ، يعجز عن قراءة صفحة واحدة قراءة صحيحة ، وعن كتابة رسالة قصيرة دون اخطاء كثـيرة : في الاملاء ، وفي التركيب ، وفي القواعـد الصرفية

والنحوية . وليس خريــج الجامعه باحسن حالا منــه . يضاف الى ذلك ان الكثيرين من المعلمــين والمعلمات ، حتى ممَّن يُدَرِّسون اللغــة العربية نفسها ، يعانون ضـعفـا ملموسـا فيها ، وكذلـك الكثيرون من الكتاب انفسهم ، ولا سيما مــن الشبان .

واشــار الدكتور خليفة الى ان هــذه ، في الواقع ، مشكلـــة خطيرة ، لان اللغـــة هي مرآة الأمّـــة ، وهي رابطة الوحدة التي تشمل الأمّــة في كل ارجاء وطنها الكبير ، وعلى الرغم مــن ان الموضوع قد استأثر باهتمامٍ واسعٍ وطويل الامــد من جميع الهيئـات المعنية باللغة العربية ، ظَلَّ الضعف كما هو ، ولم تُتَّخَذ ايــة خطوة عملية نحو معالجته .

وقال الدكتور خليفة إننــا نجتمع الآن مع هذه النخبة الممتازة من الاساتذة والمربّــين الحريصين على كرامة اللغــة العربية ، لكي نتبادل الراي معهم في هــذا الموضوع الحيوي ، لَعلَّنــا نضع ايدينا على مواطن الــداء ، ونتعاون معًا على ان نجد لـــه الدواء .

ثــمّ أعطى الكلمة للدكتور محمــود ابرٰهيم ، فبدأ بالحديث على الازدواجية في اللغــــة ، وقال إن الطفل يتعوّد علــى سماع اللهجة العاميّة في البيــت والشارع ، وعلى التحدّث بهــا ؛ وحين يصل الى المدرسة يجد امامه لغــة اخرى جديدة عليه ، يبــدا بتعلُّمها على معلّميه ، فيحسّ عندئذ بِهُوَّة واسعة بين اللغــة التي اعتادها ، واللغــة الجديدة التي بــدا يتعلمها ، فكأنَّ هذه لغــة اجنبية يُفْرَض عليه ان يتعلَّمها وان يُتَرجِم اليها افكاره ؛ وهــــذا سبب من اسباب الضعف الــذي نعاني منه في اللغــة العربية .

وقال الدكتور محمــود إن هناك اسبابا اخرى عديــدة ، لا يمكنه ان يفصِّل الحديث فيهــا دفعة واحدة ، ولكنه يقتصر الآن على هــــذا السبب الاول ــ وهــو الازدواجية ــ على ان يعود الــى تناول بعض الأسبــاب الاخــرى .

وأُعطِيت الكلمة بعــده الى الدكتور نصرت عبد الرحمٰن ، فبــدا بتلاوة نَصّ اخذه مــن (ادب الكاتب لابن قتيبـــة) يعيب فيه على المتادين

ضعف لغتهم ؛ ثم تلاه بنصٍّ لاحمد امين في الموضوع نفسه ، من كتابه (فيض الخاطر) في المعنى نفسه . ثم قال إن بين هذين النصّين نحو الف عام من الزمن ، ومع ذلك كانت الشكوى تتردَّد في كليهما من ضعف لغة الكتاب . فالشكوى اذن قديمة جداً ، رافقت تاريخ الأدب العربي كلّه ، ولا تزال تتكرَّر بالنغمة عينها .

وقد انكر الدكتور نصرت اسباب هذه الشكوى ، وقال انها غير قائمة ، لانه لا يزال لدينا اليوم كُتّاب يكتبون بلغة افضل من لغة احمد امين نفسه ، وهذا يعني ان اللغة العربية بخير ، وان الشكوى المذكورة ليست سوى من قبيل القلق الحريص على ان تَظلَّ اللغة قويَّة عزيزة .

غير أن الدكتور نصرت عاد فاعترف بوجود المشكلة ، وتحدَّث على سبب من أسباب الضعف في اللغة العربية ، اذ قال إن الكتب المدرسية في البلدان الغربيّة توضع على أُسُسٍ تربوية ونفسيه تُعْرف مقدرة الطالب في كل مرحلة من مراحل الدراسة ، فتجعل لكل مرحلة قاموساً من المفردات خاصا بها . واما عندنا فقد لاحظ المتحدث ان كتاب القراءة الصف السادس الابتدائي ، اصعب في مفرداته وتراكيبه من كتاب الصف الثالث الإعدادي ، مما يَدلُّ بوضوح على عدم وجود خطَّة تعليمية ذات اسس نفسية وتربوية سليمة . فلا غرابة اذن في ان يشعر الطالب بشيء من الفتور والتردد امام الصعوبة اللغوية التي تَبْرُز له في كتب المدرسة .

وعَقَّب الدكتور عبد الكريم خليفة على ذلك بأن حاول تلخيص ما قاله الزميلان : الدكتور محمود ابرٰهيم والدكتور نصرت عبد الرحمٰن ؛ ثم وجَّه الكلام الى الحضور ، وقال إن لديهم من الافكار والآراء حول الموضوع ما يمكن ان يزيد الموضوع انارة وبلورة .

واشترك في المناقشة كل من السادة : حسني فريز ، ومحمد عطيات ، والاستاذ مصطفى الزرقا ، وروكس العزيزي ، وعبد الرحمٰن بشناق ، والدكتور محمد بركات ابو علي . ثم طلب الدكتور محمود

ابرٰهيم الكلمة ، فعلّق علـى راي زميله الدكتور نصرت عبـد الرحمٰن : فقالْ:إن مــا يراه الزميل المحترم من ان اللغـــة العربية بخير ، وانـه ليس في الامكان ابدع مما كــان ، معناه ان المشكلة غـير موجودة ، وان مناقشتها لا ضرورة لهـا ؛ ولكن الواقع ان مـا يراه من ان هناك اليوم كُتّاباً يكتبون بلغـة افضل من لغـة احمد امين ، انما هو امر ينطبق على افراد معدودين ، وليس علـى المتعلّمين والمثقفين عامة . وقـال إن استمرار الشكوى منـذ زمن ابن قتيبة ، الى زمن احمـد امين ، ثم الى اليوم دليل واضح علـى ان هناك مشكلة حقيقية تقتضي العـلاج .

ثـم اشار الدكتور محمود الى ان المشكلة تكمـن في اكثر من سبب واحـد : فهناك الكتاب المدرسـي الذي لا تُراعَى فيـه سنّ الطالب ومقدرته الذهنية ؛ وهنـاك المنهاج الذي لم يوضع علـى أُسُس نفسية وتربوية وتعليمية سليمـة ؛ وهناك المعلم الذي كثيرا مـا يكون هو نفسه ضعيفا في اللغـة وقواعدها وبلاغتها . وما لـم يُعَدَّ المعلّم إعدادا جيّدا ، سيظلّ هو احـد الاسباب الكبرى في ضعف اللغـة عند طلابه .

وختـم الدكتور عبد الكريم خليفة المناقشة بقولـه : ان هذه هي ندوتنا الاولى ، وقـد خَصّصناها لمعالجة اسباب الضعف في اللغـة العربية ، لان المجمع قد قـام اساسا من اجل خدمة هذه اللغـة الشريفة ، لغـة القرآن الكريم ، ولغة الأُمـة العربية باسرها . والمجمع يَعْتَبِر هـذه اللغة امانةً مقدسة في عنقـه ، يحرص على سلامتهـا ، وعلى كرامتها وعلـى تلافي أسباب الضعف فيهـا .

وقـال الدكتور خليفة إن لغتنا ليست اكثـر صعوبة من اللغات الغربية ، فنحن لـو اخذنا تصريف الأفعال باللغـة العربية ، وقارنّاه بتصريف الأفعال في اللغـة الفرنسية ، مثلا ، لوجدنا أن لغتنـا اسهل كثيرا . وضرب علـى ذلك مثلا من تصريف الفعـل : (ذَهَبَ) ومقابله بالفرنسيـة (ALLER) وبَيَّن كيف يتنقّل الفعـل بالفرنسية بـين شكلين مختلفين كـل الاختلاف ، فيقـال :

Je vais - Tu vas - Il va

Nous allons, vous allez, ils vont

. فهناك فعلان يتصرفان معا ، لا فعلٌ واحد ، في حين أن الفعل العربي يظلُّ واحدا في كل تصريفاته .

وعقّب على ذلك بقوله إن الصعوبة اذن ليست في اللغة نفسها ، بل هي في أسباب أخرى خارجة عنها : من المنهاج ، والكتاب المدرسي ، والمعلم ؛ ومتى صلحت هذه كلها استطعنا التغلب على المشكلة من أساسها .

وأضاف قائلا إن هناك شيئا من الصعوبة الفعلية في قواعد الصرف والنحو ، ولكن هذه الصعوبة تزول متى عرفنا كيف نتغلب عليها بالحكمة ، وبأنْ لا نُعلِّم الطلاب منها الا ما هو أساسيّ،وعلى شكل دوائر : تبدأ صغيرة ، ثم تَكْبُر مع تعاقبِ الصفوف ، ونُمُوِّ الطالب . وأما حين نعطي الطفلَ كلَّ صعوبات القواعد وهو ما يزال دون سنّ النضج ، فنحن نضع العقبات في سبيل تعلُّمه للغة ، ثم نلومه على التقصير في فهمها .

وشَكَرَ الدكتور خليفة للمشاركين في الندوة تَفَضُّلهم بالحضور ، وحسنَ تعاونهم بالمشاركة في مناقشة المشكلة ، ووعد بأن يمضي المجمع في ندواته لخدمة اللغة العربية ، معتمدا على مشاركتهم وتعاونهم وتشجيعهم للمجمع ولرسالته المقدسة .

حــول "معجــم الرياضيــات"

تلقّـى رئيس مجمع اللغـة العربية الأردني الكتاب التالي مـن الدكتور محمــد مرسي احمد ، عالـم الرياضيات المصري ، والأمين العام لاتّحاد الجامعات العربيـة في القاهرة ، حول (معجـم الرياضيات) الذي اهداه اليه المجمــع الاردني ؛ والمجمع يعتزّ كـل الاعتزاز برأي الدكتور مرسي في (معجم الرياضيات) لانه صادر عن خبير وعالـم رياضي كبير .

« الاستاذ الكبـير الدكتور عبد الكريم خليفة ، رئيس مجمع اللغـة العربيـة الاردنـي .

تحيـة طيبة ، وشكرا جزيلا على ما تفضّلتم بــه من اهدائي (معجم الرياضيات) الذي سيســدّ ، ولا شك،فراغا كبيرا في تعليـم الرياضيات باللغـة العربية ؛ وكُنّـا في أمسّ الحاجة الى مثل هـذا العمـل الجليـل .

ولا اخفـي عليك انني مرتاح غايـة الراحة لاطّلاعي على هـذا المعجم ، لأنني،مـع زملائي في مجمع اللغة العربية في القاهـرة،مَعنيّون بتعريب وترجمـة بعض مصطلحات الرياضيات ؛ وحتـى لا نُكرّر عملا قد أُنجِز،فَلكُم منّـا كل شكر وتقديـر .

« اكـرر التحية والشكر ؛ ووفّقكم اللـه الى ما فيه خيرُ امتنـا ونفـعُ شبابنـا » .

القاهـرة ـــ ١٩٧٧/١٠/٢٢ م .

التوقيـع

(محمـد مرسي احمـد)

وجديـر بالذكر أن (معجـم الرياضيات) قد اشترك في وضعـه عشرة إخصائيين فـي الرياضيات من اساتذة الجامعة الاردنيـة،ووزارة التربية والتعليم ، بتكليفٍ من لجنـة التعريب الأردنية في ايامهـا الاخيرة قبـل ان تَتحوّل الى مجمع اللغـة العربية الأُردني.وقد قام المجمـع باهداء نسخ منه الى المجامـع الشقيقة والمؤسسات العلميـة الاخرى .

اعــلان مسابقة فــي التاليف

يُعلن مجمع اللغــة العربية الأردني إجــراء مسابقة في التاليف ذات جوائز ماليــة ، حسب الشروط التاليــة :

١ ـــ موضوع المسابقـــة : (تعريب التعليم الجامعــي) .

٢ ـــ الحـد الأدنى للحجم المقترح : ١٠٠ (مئــة) صفحة من حجم الفولسكــاب ، مطبوعة على الآلــة الكاتبة .

٣ ـــ موعد تسليم البحوث : قبــل نهاية شهر ايــار سنة ١٩٧٨ م ، ويتــم تقديمها الى الامين العــام للمجمع في ٣ نسخ .

٤ ـــ الجائزة الاولــى مقدارها ـــ ٤٠٠ (اربعمئة) دينــار .

الجائزة الثانيــة مقدارها ـــ ٣٠٠ (ثلاثمئة) دينــار .

الجائزة الثالثــة مقدارها ـــ ٢٠٠ (مئتــا) دينــار .

٥ ـــ تُعلَــن النتائج خلال شهر آب ســنــة ١٩٧٨ م .

رئيس المجمــع

الدكتور عبــد الكريم خليفة

المشتمل

اخبــار وتعليقــات